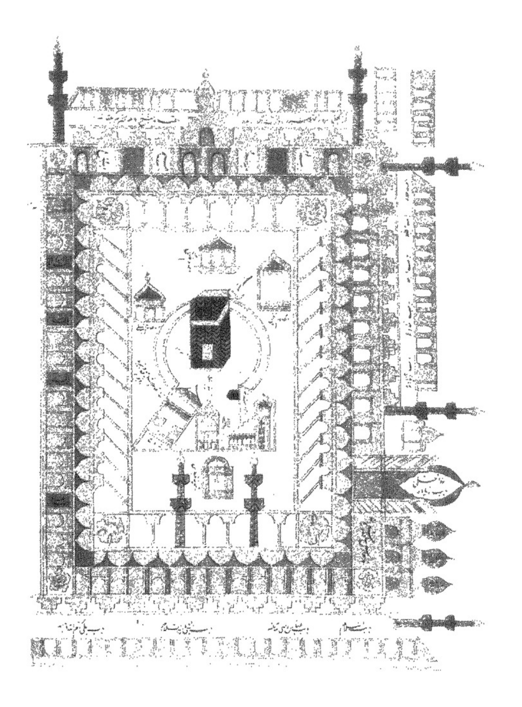
دار مصر المحروسة



النص المؤسس ومجتمعه

السفر الأول

خليل عبد الكريم

النص المؤسس ومجتمعه



الكتاب : النص المؤسس ومجتمعه
المؤلف : خليل عبد الكريم
الناشر : دارمصر المحروسة
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٢
المدير العام : خالد زغلول
المستشار الفنى : عمر الفيومى
مدير النشر والتوزيع : يحيى إسماعيل
الغلاف : عمر الفيومى
رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٣٤ / ٢٠٠٢

١٣ شارع قولة إمتداد محمد محمود - عابدين - القاهرة
تليفون : ٣٩٦٠٥٠٠ فاكس : ٦٣٦٠٩٢٢

النص المؤسس ومجتمعه

السفر الأول

خليل عبد الكريم

القاهرة ٢٠٠٢

الإهداء

إلى أحبابى الذين التزموا الصمت المطبق عندما انفجرت براكين الغضب على (فترة التكوين) أمنحهم فرصة أخرى ليكرروا الموقف ذاته لأن السكوت - حسب منهجهم الجديد - من ذهب ولكنه ذهب مع الريح وهيهات أن يعود !!

خليل عبد الكريم

فرشة

[١]

الحبيب المصطفى - عليه السلام وعلى آله - لم ير فى حياته مصحفا ولم نسطر أنه: لم يقرأ مصحفا لأنه كما ذكر القرآن العظيم وكما شهد هو على نفسه: أمىّ.

وكل من أبى بكر بن أبى قحافة التيمىّ وعمر بن الخطاب العدوىّ وعدد من الصحابة على ذات الشاكلة أى لم يشهدوا مصحفا.

تلك الحقيقة رغم ثبوتها إن ذكرتها لِ أى مسلم مهما بلغ حظه من التعليم - غير الدينى - بادر بِ استنكارها ورماك بِ الجنون أو أنك تستهزئ به أو ألصق بك تهمة المروق من الإسلام.

هذه المفارقة الصارخة تدعونا أو تضطرنا لِ التمييز بين القرآن المقروء أو المتلو الذى حفظته صدور الرجال وبين القرآن المكتوب الذى دون إبّان عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان الأموىّ.

القرآن المقروء أو المتلو أو المحفوظ فى الصدور غض طرى يتفجر نضارة وبكارة، أبوابه مفتوحة ومداخله ميسرة ومنافذه واسعة ومآتيه سهلة، ومفاتيحه طيّعة.

أما القرآن المدون أو المكتوب فَ تغلفه القداسة وتعلوه المهابة وهو محفود محشود ومحروس مخفور، تحوطه أسيجة منيعة وأسوار عالية يقف عليها حجّاب وسدنة ومرازبة يحولون بين أى إنسان والاقتراب منه إلا إذا حاز صفات حددوها بدقة وعينوها بِ صرامة وذكروها بِ تفصيل وهم وحدهم أصحاب الكَلِم الفصل فى إحاطته بها واستيعابه إياها وتمكنه منها كيما يتعين عليه أن يحصل على تصريح من أولئك الحُلاّس مذيل بِ توقيعهم المهيب وممهور بِ خاتمهم القدسانى.

[٢]

وترتيبا عليه وكَ نتيجة حتمية له فإن التفاسير الحديثة ليست للقرآن المجيد إنما هى للتفاسير التراثية السلفية القديمة التى مرت عليها قرون والتى تُنعت بِ أن أمة لا إله إلا الله تلقتها بِ القبول والترحاب والتجلّة.

ومن ثم فإن المفسرين المحدثين لا يطرحون تفسيرا لِ النص الأصلى ولا يقدمون تأويلات لِ القرآن الكريم بل ينفحون قراءهم توضيحات وتحشّيات وتعليقات وشروحا وتلخيصات ومختصرات لما فى تفسير الطبرى والزمخشرى والرازى والكلبى وابن كثير والقرطبى والبيضاوى والتسترى والسيوطى........إلخ

بل وحتى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مع أن العهد به قريب.

ولذا فَ إن القارئ غدا يعرف وإذا أحسنا الظن به قلنا إنه يعلم آراء أولئك الأكابر وأحكامهم ومذاهبهم وتنظيراتهم فَ حسب لا التى جاء بها الذكر الحكيم.



وهى معضلة لايستهان بها ويتوجب الالتفات إليها.

لماذا؟

لأنه مع تقديرنا البالغ لِ أولئك (= المفسرين) الأعاظم فإن مارقموه فى مؤلفاتهم شىء وما حمله (مأدبة الله) شىء آخر.

إن المفسر من أولئك الأفذاذ عاش فى قرن مُعيّن وبيئة محددة ومجتمع له أبعاده ومناحيه وأعرافه وموجباته وإكراهاته، وهو نفسه تملك ثقافة خاصة به تفترق بدرجة أو بأخرى عن ثقافة أقرانه من المعاصرين، وله ذكاؤه وقريحته وذاكرته الحافظة ووعيه وذهنيته ومخيلته ومُعتَقَده ومنحاه الفكرى واتجاهه الأيديولوچى ومدرسته الفلسفية ونحلته الكلامية (=علم الكلام)......إلخ.

ومن خلال كل هذه القنوات العامة والخاصة تسرب تفسيره أو تأويله، ومن طبائع الأمور أن يتأثر بها ويتشكل بِ قسماتها ويحمل بصماتها ويتروّح بِ ريحها (= رائحتها) ويتزيا بِ زيها ويبرز بآياتها.....إلخ.

وفى نهاية الأمر وغاية الشوط وآخر المدى ينقلب التفسير إلى نص آخر مغاير للنص الأصلى ومفارق ومباين إياه.

[٣]

حدث هذا بـ حذافيره فى الفقه المالكى فـَ (المدونة) التى أملاها عبدالرحمن بن القاسم على أسد بن الفرات ونقلها إلى إفريقية (تونس) ولو أنها مروية عن شيخ المذهب نفسه إلا أنها (=المدونة) غدت هى المرجعية التى لا تقبل جدلا أو مناقشة أو معارضة أو مُحاجّة، وعلى جوانبها ألفت الحواشى والتعليقات والمختصرات والتهذيبات.... إلخ.

حتى يمكن أن نقرر أن مالكية محدثة أو مبتدعة ظهرت واستقرت هناك لاصلة لها بـ مذهب شيخها، وإذا أحسنا الظن ربطتها به علاقة واهية أشد رقة من خيوط العنكبوت.

وغضب مورخون وفقهاء عديدون واتهموا من أقدموا على ذلك بأنهم أفسدوا مذهب الأصبحى صاحب الموطأ عالم المدينة مالك بن أنس عطّر الله مثواه.

ونطرح هذا المثل لِ التدليل على أن التيمم نحو النصوص الثانوية أو الجانبية أو الهوامشية والاحتفاء والعناية بها ووضعها فى بؤبؤ العين ومركز الرعاية ودائرة الضوء، منحى له تاريخ عتيق وجذر غائر وأصل ثابت فى فضاء الفكر الإسلامى وليس أمرا عارضا أو شأنا هزيلا أو رافدا محدثا أو بدعة وافدة أو سحابة صيف عن قريب تتقشع.



وهنا مكمن الخطر وبيت الداء وجرثومة العلة وسبب الوهن ومنشأ المرض، إذ لو أنه على خلافه لما أثار الانتباه وشد البصر واستوقف التأمل واستدعى التفكر واستنفر التمعن، وميدان أهميته فسيح ومجال أثره وسيع، ومدى فعاليته عريض. ويكفى فى هذه العجالة التمهيدية أو التمهيد العجل أن نورد شطرا نحيفا، وهو أنه يجر دارس القرآن العظيم والباحث فى علومه بعيدا عن ركائزه الأساسية وعمده الرواسخ وأصوله الثوابت إلى مجرد آراء وأنظار وأفكار فاه بها فلان، ويصرفه عن منابعه

الصافية وعيونه النقية وموارده السائغة إلى مشارب لا تقاس ولا تقارن بها، فـ أين الأرض من السماء وأين الثرى من الثريا.

[٤]

بيد أنه لِمَ أقدم المفسرون المحدثون عليه نعنى الانصراف عن تفسير (السبع المثانى) ذاته والنهل من التفاسير التراثية يقتطعون منها فقرات كوامل قد تطول أو تقصر أو يهذبونها أو يختصرونها أو يعلقون عليها أو يُحَلّون أعناقها بِ الحواشى والشروح والتوضيحات والتبيينات.....إلخ.

ولا بأس بِ إيراد بعض المفردات الغوامض من النص الأصلى لرفع الستار عن هذا الغموض.

والإجابة على هذا التساؤل لا تحتاج إلى زكانة ولا تتطلب فطانة ولا تستدعى لقانة ولا تستحث لوذعية.

لأن الاتكاء على التفاسير القديمة أو التراثية أو السلفية هو جواز المرور للحظوة بِ رضى المتنفذين فى رئاسة شئون التقديس الذين نصبوا أنفسهم حُلاّساً لِ (أحسن القصص) وهو درب الولوج إلى البوابة الملكية التى بدون المروق من عتباتها المهيبة يستحيل عليهم الحصول على الموافقة على نشر تصنيفاتهم وإن تقت إلى الانضباط فهى تجميعاتهم.



إن من أصعب الأمور أن نصدّق أن المفسّر المعاصر الحديث يجهل أن سلفه الصالح قد عاش فى زمان غير زمانه وفى مجتمع مغاير لِ مجتمعه وبيئة تخالف بيئته، وتسلح بِ ثقافة مباينة لِ ثقافته، وتزود بِ معارف غير معارفه، وحصل على علوم تفاصل علومه وواكبته أنساق اجتماعية واقتصادية ومعرفية وسياسية وإعلامية وتعليمية...... إلخ لا وجه لِ المقارنة بينها وبين أندادها من الأنساق التى تحايثه.

ومن أبعد الفروض أن نؤمن أنه (=المفسّر المعاصر) لا ينقه (= يفقه) أن تلك الإكراهات جميعها لابد أن تطبع تفسير سلفه بِ ميسمها، وهذا ما يؤكده ويثبته علم اجتماع المعرفة، بل ما تدركه بدائه العقول إذ تقطع به شواهد الحال، وهذا الدمغ لا يظهر فى الأسلوب فقط: تراكيب الجمل،

وصياغة العبارات، واختيار الألفاظ، وانتقاء الكلمات، بل يتعداه إلى الأفكار والتنظيرات والحكم على الأمور وتقييم الوقائع، واستنباط القواعد ومن ثم قيل: إن الإنسان ابن عصره.



ولِ التدليل عليه نضرب مثلا سريعا : فَ عندما تقرأ (عجائب الآثار فى التراجم والآثار) المشهور بِ (تاريخ الجبرتى) لمؤلفه عبدالرحمن بن حسن الجبرتى، وتطالع أى كتاب لسميِّه المؤرخ المعاصر عبدالرحمن الرافعى تلقى بونا شاسعا فى كل المناحى التى ذكرناها، مع أن الفارق الزمنى بينهما لا ينيف على قرنين وربع قرن.



هنا قد ينبرى لنا قارئ فِلْحَاس ويصيح ناعقا أو ينعق صائحا: هناك بينونة بين التأريخ والتفسير، إذ إن الأخير يتمحور على نص ونص مقدس يتوجب على المفسر تراثيا أو معاصرا أن يلتزم به ويدور فى فلكه ولا يخرج عن نطاقه.

أما المؤرخ فهو يرصد الوقائع ويحللها دون مرجعية أمامه يضطر إلى أن يرتبط بها ويتقيد بِ لزومياتها.

ونعقب عليه فنسطر:

هذا دفع فسيد؛ لأن وجود الأساس الذى ينبنى عليه التفسير لا يلغى خصوصية المفسر ولا ينفى كينونته ولا يغرّب هويته ولا يعدم شخصيته........ إلخ.

وإلا غدت مدونات التفسير نسخة واحدة وهو مالم يحدث، فضلا عن أنه لا يفوه به ذو لب صحيح وتفكير سديد وعقل سَوىّ بل لا يدعيه من له ذرة من وعى أو مُسْكة من قريحة.

وكيما نوقف المراء الشكس وننهى الجدل العقيم ونضع حدا للنقاش الفارغ، نهدى القارئ ما دبجه واحد من شوامخ مفسرى القرآن المجيد ومن أقدمهم، له فى فضاء الفكر الإسلامى مقام محمود ورتبة سامية ودرجة رفيعة، ولد فى قرية القداسة - بكة - فى منتصف القرن الهجرى الثانى وتلقى العلم على يديه وحدث عنه خلق لا يُحصى من الأثبات المحققين.

ويكفى أن تعرف أن ابن جرير الطبرى، شيخ المفسرين وعمدتهم وذروة سنامهم، نقل عنه الكثير فى تفسيره الذى لاينتطح عنزان فى قيمته وأنه من أجل التفاسير، ويمكنك أن تصرح بِ أنه مقدمها دون معارضة وب لا مجادلة و ب غير حجاج.



[٥]

فَ عندما فسر ابن جريج الآية الكريمة:

(الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير). (١) أورد ما يأتى :

أخرج ابن المنذر، عن ابن جريج فى قوله: (سبع سموات ومن الأرض مثلهن) قال: بلغنى أن عرض كل أرض مسيرة خمسمائة سنة وأن بين كل أرضين مسيرة الثرى واسمها تخون، وأن أرواح الكفار فيها ولها منها اليوم حنين، فإذا كان يوم القيامة القتهم إلى برهوت فاجتمع أنفس المسلمين بالجابية والثرى فوق الصخرة التى قال الله فى صخرة، والصخرة خضراء مكللة والصخرة على الثور له قرنان وله ثلاث قوائم يبتلع ماء الأرض كلها يوم القيامة والثور على الحوت وذنب الحوت عند رأسه مستدير تحت الأرض السفلى وطرفاه منعقدان تحت العرش ويقال الأرض السفلى على عمد من قرنى الثور ويقال بل على ظهره واسمه بهموت ياثرون إنهما نزل أهل الجنة فيشبعون من زائد كبد الحوت ورأس الثور، وأخبرت أن عبدالله بن سلام سأل النبى - صلى الله عليه وسلم - علام الحوت قال على ماء أسود وما أخذ منه الحوت إلا كما أخذ حوت من حيتانكم من بحر من هذه البحار، وحدثت أن إبليس تغلغل إلى الحوت فعظم له نفسه وقال: ليس خلق بأعظم منك غنى ولا أقوى، فوجد الحوت نفسه فتحرك فمنه تكون الزلزلة إذا تحرك فبعث الله حوتا صغيرا فأسكنه فى أذنه فإذا ذهب يتحرك تحرك الذى فى أذنه فسكن.(٢)

---

(١) الآية ١٢ من سورة الطلاق .

(٢) (تفسير ابن جريج) جمع وتحقيق على حسن عبدالغنى ص٢٣٣ - الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م مكتبة التراث الإسلامى - القاهرة.

فـ هنا تجلى بـ وضوح شديد الأفق المعرفى (الابستمولوجى) للمفسّر ونضحت ثقافته على ما خطه قلمه وتبدت معطيات بيئته وما حفل به مجتمعه من أساطير.

ونذكر أنه فى ذياك الوقت وجد قصاصون فى المساجد والتجمعات الشعبية درجوا على الخوض فى كافة المجالات الدينية وأخصها التى تصلح مجالا للتهويلات والخوارق والمدهشات مثل ما حفل به هذا النص المعجب. ومن أغزر الأخبار دلالة أن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب العدوىّ شجّع أولئك القصاص - خاصة فى البلاد التى داسوها بـ سنابك خيولهم المباركة واستعمروها ونهبوا خيراتها بهدف التمكين لـ الدين واللغة اللذين حملوهما للأراضى المغزوة التعيسة.



ومن الطريف أن محقق الكتاب، وهو كما سطر فى المقدمة عضو فى هيئة التدريس فى كلية جامعية، لم يعقب على هذا النص المدهش ولو بـ جملة أو شبه جملة.

وحراس (العروة الوثقى) من مؤسسة شئون التقديس يجيزون هذا النص وأمثاله، فى حين أنهم ينادون بـ مصادرة الآراء أو الأفكار أو المعطيات التى تهدى تجديدا للفكر الدينى (الإسلامى) وتنويرا وتثويرا.

ولكى لا نطيل على القارئ نكتفى بـ هذا النص، فهناك العشرات المشابهة التى تطفح بالأسطورية واللاعقلانية والخرافة فى التفاسير التراثية خاصة مايسمى «الإسرائيليات» عند تفسير الآيات الكريمة التى تتناول القصص الواردة فى العهد القديم الذى يقال عنه تجاوزا (التوراة) وكثير منها نقلها مصنفوها أو أوردوها عن عدد من مشاهير الصحابة وفى مقدمتهم عبدالله بن العباس وعبدالله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة وغيرهم.

حقيقة أن المفسرين المحدثين أو المعاصرين تجنبوا ما استطاعوا (الإسرائيليات) و(النصوص المدهشة) كالذى أتحفنا به ابن جريج ولكن فى نظرنا هذا المسلك لا يغير من الأمر: إذ ثبوت «الإسرائيليات» و «المعجبات» فى أى تفسير من التفسيرات التراثية يكشف بدون لبس وبغير غموض عن

المستوى الثقافى للمفسّر الذى رقمها فى مؤلفه ويوضح الرتبة الحضارية لِ المجتمع الذى شبّ فيه والبعد المعرفى لِ البيئة التى نشأ فيها.

وبالتالى من الميسور عليه (على المفسر الحديث/ المعاصر) أن يفطن إلى أن التعويل على ذياك المفسر والاتكاء على أطروحاته خطأ منهجى تماما كالطبيب الحديث/ المعاصر الذى يداوى مرضاه بِ السنا والسنوت وحبة البركة والفصد والحجامة والرقى.........إلخ.

هذه واحدة.



[٦]

أما الأخرى الأوعر والأدهى والأنكى فَ هى:ـ

إيهام القارئ أن هذه الخزعبلات والشعبذات والمخاريق هى عين ما جاء به القرآن الكريم وما هدف إليه وما تغياه.

ولعل من نافلة القول أن نسطّر أنه لا توجد إساءة له أشد، إذ هو منها برىء براءة الذئب من دم الفتى الحليوة يوسف بن يعقوب؛ لأنها تقيم بين القارئ وبين المعطيات الصحيحة لِ الذكر الحكيم سدا منيعا، وتحول دون فهمه إياها على الوجه السديد وتمنح الطروحات الزيوف سندا مقدسا مما يشيع الخرافات والجهل لديه وينفحه مناعة ضد قبول العلم وحصانة ضد إعمال العقل وملكة ـ إن صح هذا اللفظ ـ العيش فى خضم رمال البداوة وهضاب الجهالة وكثبان التخلف.



ونضع فى حجر القارئ علة أخرى لِ خَنَس المفسر المعاصر / الحديث عن النص الأصلى وهرولته إلى التفاسيِر التراثية يشرب منها عَلَلا بعد نَهَل بل يَعبّ منها حتى يتضلع:

الكسل العقلى والاسترخاء الفكرى والبلادة الذهنية وجماعها متوافقة تماما مع حالة التردى الراهنة التى تضرب الشعوب الإسَلامية عربية وأعجمية، فَ بِ استقراء تاريخ الفكر الإسلامى نلفى أنه فى عصور الانحطاط يختفى أو يكاد الإبداع والاختراع والابتكار ويشيع فيه التكرار والاجترار والاتباع.

وهو بالفعل ما حدث منذ أن بدأ انكسار الحضارة الإسلامية وهبوط خطها البيانى بل وانحداره ب شدة، ونستطيع أن نذكر، مع قدر غير قليل من التجاوز. أنه طفق يتحقق منذ القرن السابع الهجرى، إذ تحول التأليف إلى تصنيف وتجميع وتوليف...... إلخ، وأطلت الرؤوس الشوهاء للحواشى والتعليقات والملخصات والشروح........إلخ.

ومن ثم ف إنه من المؤتلف لهذه السُنّة الاجتماعية أنه لم يظهر فيلسوف بعد ابن رشد وتوارى فى الظل المجتهد المطلق بعد أئمة المذاهب الأربعة ومن لحق بهم إبان قرنين من الفقهاء ولم يبزغ فى سماء علم الكلام نجم ساطع وقمة شامخة ك واصل بن عطاء والجبائيين والجاحظ والنظام، ولم نر شاعرا مفلقا مثل أبى تمام والبحترى وجرير والأخطل وبشار بن برد وأبى العلاء المعرى.

أما فى نطاق المادة المبحوثة فقد انتهى زمن المفسرين الأكابر: مقاتل بن سليمان والطبرى والقرطبى والرازى والزمخشرى والبيضاوى وابن كثير (ولو آنه متأخر نسبيا)..........إلخ.

ثم نرجع ل سياقة الدراسة : إذن اتخاذ المفسر الحديث/ المعاصر التفاسير التراثية أو السلفية عكازا له مسألة طبيعية تناسب ولا تباين وتأتلف ولا تغاير وتوائم ولا تتنافر مع التخلف الحالى الذى تعانيه المجتمعات الإسلامية، إذ تصل نسبة الأمية فى العديد من دولها إلى أكثر من سبعين فى المائة، هذا عن الأمية الأبجدية، أما عن الأمية الثقافية فَ حدث ولا حرج، ويعيش شطر كبير من شعوبها تحت خط الفقر، ويكفى آن كل أربعة من عشرة أشخاص فى مصر على ذات الشاكلة، وأن سكان العشوائيات فيها يجاوزون الاثنى عشر مليونا.

ومصر تعد من الذؤابة العليا فى الدول العربية ف ما بالك بِ التى تعدن فى مؤخرتها أو مقعدها أو عجيزتها!!!

إذن من الناحية العلمية يستحيل أن تبرز التفسيرات الحديثة/ المعاصرة بِ هيئة منافرة لما تبدو بها الآن.

فالذين دبجوها هم قطعة من نسيج مجتمعاتهم المهترئة المتردية فى وهاد التأخر والتبدى والتوحش.

ومن جانب آخر: إذا فرضنا جدلا أن المفسّر الحديث المعاصر أبدع تفسيرا يمتاز

ب الاستنارة ويتضمخ بِ العقلانية وتفوح فى جنباته روائح التقدمية فَ

لمن يقدمه؟ ومن يقبل على مطالعته؟

❖ ❖ ❖

إن البعد عن التفاسير التقليدية أو التراثية ل القرآن العظيم المدون أو المخطوط أو المكتوب والمعروف بـ «مصحف عثمان» والتوجه نحو القرآن المجيد المتلو والمقروء والذى حفظه الصحابة فى صدورهم وهم الذين عرفوا ب «القراء» والذين استشهد منهم فى اليمامة فى معركة حديقة الموت ضد بنى حنيفة المئات، وهو الأمر الذى أفزع العدوىّ عمر بن الخطاب فأشار على التيمىّ ابن أبى قحافة ب جمع القرآن وتدوينه -عبء ثقيل على المفسر الحديث/ المعاصر ولا طاقة له به لأنه يحتاج فى البدىّ إلى:

أفق وسيع، وقريحة متوقدة، وبصيرة نافذة، وعقلية متفتحة، وفكر جسور. كما يتطلب: صبر أيوب على البحث والدراسة والتنقيب والتنقير فى المصادر الأصلية فى شتى فروع العلوم الدينية، وهذه التزامات شاقة مجهدة لا طاقة له بها، هذا إن أحسنا الظن به وسلمنا أنه تمتع بـ الملكات العقلية التى ألمعنا إليها فى ناصية هذه الفقرة، بقيت فقرتان رشيقتان نختم بهما هذه الفرشة: بيد أن الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة يكافئ ما يبذل فى سبيل تحقيقها.

الأولى: إن المفسر الحديث/ المعاصر عندما اختار النقل أو الاقتباس من موسوعات ومؤلفات وكتب التفسير التراثية أو السلفية، علاوة على أنه آثر السلامة وفضل العافية وانحاز لـ رجا «ناحية أو جانب» الدعة فإن احتمالا قائما لا نستبعده نحن، وهو أنه غير مؤهل لأن يدرك هو أن الكتب التى جاء بها البطاركة الكمل - لا القرآن وحده - ليست محتوى لغويا فـ حسب، بل هى مجموعة من المحتويات منها القصصى، والاجتماعى، والسياسى، والعسكرى أو الحربى، والتعليمى، والفقهى ....إلخ.

وأنه مكتوب بلغة عالية وهو، وهذا خاص بـ القرآن، إذ دخل فى علاقة جدلية فى شطر وسيع منه - مع الواقع المعاش والحياة اليومية لمن تلقوه أو استمعوا إليه - فإن هذه اللغة العالية هى التى أتاحت وما زالت تتيح

وسـوف تستـمـر فى نفح الفـرصـة أو الفـرص «ب الجمع» لِ إعـادة إنتـاج خطاب آخـر علـى هامـشـه وهو خطاب تفسـيـره وتأويله، ورقـمنا كلمـة أو عبارة «على هامشه» لأنـه جزمـا وحتمـا ضـرورة انتصـاب فـارق واضح بين النص الأصلى وهو الذكر الحكيم وبين التفسير.

ومن هنا فإن النص المقدس أو الأصلى ثابت مطلق لا يتغير فيه حرف واحد، أمـا الخطاب الثانى، وهو التفسير، فهو نسبى متغيـر متحرك؛ لأنه يتـأثر لا بِ الظروف الذاتيـة لِ مـبـدعـه مـثل ثقـافـتـه ومنحـاه الفكرى وأيديولوجيته.........إلخ، بل وبِ الأحوال العامة لمجتمعه وبيئته من كافة أقطارها: السياسية، والاجتماعيـة، والاقتصادية، فجميعهـا بغيـر استثناء تترك بصمات أصابعها على المنتج الثقـافى البشرى وهو التفسيـر، وهذا علة اختلاف التفاسير على مر العصور، وهنا مكمن الخطأ المنهجى الذى يرتكبه المفسـر الحديث أو المعاصر عندما يهجم على التفاسيـر القديمـة وينقل منها إما بِ فصها ونصها وإما بِ معناها.

الأخـرى: هى تحليل سـريع لخبـر ثابت فى كتب تأريخ القـرآن خـاصـة ومـؤلفـات التـاريخ «الإسـلامى» العـام والسـيـرة والتـفسـيـر....إلخ، وهو أن العدوىّ عمر بن الخطاب أصابه الجزع وأحس بالاضطراب وشعر ب القلق عندما بلغه نبـأ قتل مئات من (القراء) أى حفظة القرآن فى حديقة الموت على يد جنود مسيلمة «الكذاب» زعيم وقائد بنى حنيفة.

مـا وجـه هَلَع العـدوىّ بن الخطـاب لموت أولئك الحَـفَظَة وهو يعلم أن القـرآن مكتـوب على العظام وسـعف النخيل والأقتـاب والأكتـاف؟.. ولماذا اقترح جمع القرآن وكتابته وهو يعرف أنه، فضلا عن ذلك، محفوظ فى صدور المئات فى قـرية أثرب وغيرها وأنه إن استشهد من الحفاظ مئات فقد بقى منهم أضعاف هذا العدد، إذ إن حفظ القرآن شكل لديهم منقبة يفخر المسلم بها، حتى النِسَون فعلنه؟

ومـا هو السبب فى أن التيمىّ أبـا بكر تردد فى قبول الاقتـراح، وأن زيد بن ثابت اليثربىّ قاومه باستماتة ولم يرضخ إلا بعد أن ضغط عليه التيمىّ والعدوىّ؟

لعل الإجـابة على جمـاع هذه التسـاؤلات هى اعـتقـاد أبى بكر وزيد بن

ثابت أنه من الأصلح بقاء القرآن العظيم محفوظا فى الصدور؛ حتى يستمر على نضارته وبكارته وظزاجته وانفتاحه.

ويؤيد هذه الفكرة أن «سيد بنى آدم» لم يأمر بِ تدوينه ونقلت إلينا كتب سيرته الزكية أنه دأب على سماعه من عدد من الصحابة مشافهة ومباشرة، ولا يوجد خبر فرد أنه كلف واحدا منهم بِ أن يتلوه عليه من تلك الأدوات المعجبة التى كتب عليها!

إذن المصحف المقروء أو المتلو الذى استودعه الصحاب صدورهم واختزنوه فى ذاكرتهم ووعوه فى قلوبهم وحده هو الذى تسيد وهيمن طوال الثلاثة والعشرين عاما، منذ واقعة مغارة حِرَى الخارقة حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضيا مرضيا، ثم شطرا من خلافة ابن أبى قحافة التيمىّ ثم دوّن فى صحائف وسلم إلى حفصة بنت عمر إحدى الزوجات التسع لِ «أول من تنشق عنه الأرض»، ومع ذلك ظلت الهيمنة والسيادة للحفظ والتلاوة والقراءة «الشفوية» باقى أيام أبى بكر التيمىّ ثم طوال عهد العدوىّ عمر وشطرا من حكم الأموىّ عثمان، فإذا حسبت هذه المدد وضممتها إلى بعض بلغت أربعين عاما، وبداهة لا ينال من سيطرة القرآن الكريم المحفوظ فى الصدور وجود مصاحف خاصة لدى بعض كبار الصحبة على رأسهم: أبوالحسنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه وعبدالله بن مسعود وأُبىّ وأبو موسى الأشعرى، ومن النِسَون التيميّة عائشة؛ لأن هذه حالات استثنائية والاستثناء لا يقاس عليه.



وبعد هذه الجملة الاعتراضية نؤوُب إلى السياق:

علام يدل تسيد المصحف المتلو أو المقروء أو المحفوظ فى صدورهم رجالا ونسوة لِ مدة نيفت على الأربعين عاما إنّ فى قرية القداسة بكّة أو فى قرية بنى قَيْلة، ويمكن أن نضيف إليهما قرية بنى ثقيف «الطائف»، مع الوضع فى الاعتبار أنها «مدة الأربعين عاما» ليست عادية؛ لأنها هى التى شهدت الميلاد وعاينت التدشين وحظيت بِ الانبثاق وسعدت بِ الظهور وتمتعت بِ الشروق وتملّت من الطلوع وانفردت بِ البزوغ، والذين عاشوها شكّلوا طليعة التلقى، وجماعةُ ميزّها بِ البكارة ووسَمها بِ النضارة وحلّى

صدرها بِ الطزاجة وزّين جَيدها بِ الانفتاح وهى بكل المقاييس حقبة مدهشة مُعجبة؟.

❖ ❖ ❖

وتبعا لِ ذلك فإن القرآن الكريم الذى هيمن عليها - ونكرر أنه لا يباين القرآن المجيد الذى تم تدوينه إبان حكم الأموىّ عثمان بن عفان فى مصحف واحد - هو الذى يمنح دفعة قوية للتعرف عليه والتريض فى جنباته المونقة والتنزه فى مروجه المورقة وتنسّم روائحه العطرة وتذوق طروحاته الشهية.

ورأينا أن الطريق إلى ذلك هو التنقير عن أسباب النزول والتنقيب عن الملابسات التى واكبت ظهور الآيات والوقائع التى حايثت شروق النصوص؛ لأنها من جانب هى ذاتها التى دفعت الصحاب إلى حفظها ووعيها ودسّها فى الذاكرة، وهى ذاكرة تتميز بقوة الحفظ والجمع؛ لأن البدوىّ الأمىّ يعتمد عليها بِ الكلية بِ خلاف المتحضر والمتمدين، ومن رجا آخر لها أهمية بالغة وخطر شديد فى الكشف عن تأريخ القرآن العظيم، والإبانة عن مساره وإلقاء أضواء كواشف على خطواته.

أما الناحية الثالثة وهى مسك الختام: رفع الستار عن ذلك المجتمع وتلك البيئة فى جميع أقطارهما وهو شأن يفوق فى نفاسته ويبز فى ثمانته كل ما سبقه؛ لأن التعرف على أحوالهما (المجتمع والبيئة) هو الرافعة اليتيمة التى لا ضروب لها لاستخلاص القيم واستقطار المعانى واستخراج الدلالات التى هى - دون غيرها - المعوّل عليها فى النهوض من الكبوة والانفلات من الوهدة والانعتاق من القيود التى تكبّل مجتمعنا وتمنعه من المضىّ قدما كيما يلحق بِ الذين سبقوه فى مضمار الحضارة.



مقدام

{١}

هل القرآن المقروء والمتلو الذى حفظه الصحابة فى صدورهم غير القرآن المدّون فى المصحف الذى كتب فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان الأمويّ؟

بداهة : الإجابة لا، بصورة جازمة لا تدع مجالا لذرة من لبس ونعوذ بِ الله تعالى أن يفهم القارئ مما سطرناه فى «الفرشة» أننا عنينا أنهما قرآنان ونبرأ من مَن يدعيه، إذ هو محض زور وبهتان بل وأكثر.

كل ما فى الأمر أن القرآن المقروء والمتلو والمحفوظ فى صدور أول من تلقاه من « سيد ولد آدم» وهم صحابته اتسم بِ الحركة والديناميكية، لأنه ارتبط بحيواتهم ومشاغل معاشهم وشئون دنياهم، وقدم حلولا نواجع لمشكلاتهم، وإجابات مستفيضة على تساؤلاتهم وردودا بواهر لاستفساراتهم، وهداهم إلى الصواب فى ما قطع عليهم مسيرتهم من عقبات كأداء أو عوارض غوامض فى كل منحى، بل إن الدائرة اتسعت بِ صورة لم تخطر لهم على بال، إذ شملت الخصوصيات الدقيقة مثل النكاح، والطلاق، والظهار، واللعان، ووقت معافسة النِسْوَن فى الشهر الفضيل، وهجرهن، وضربهن ضربا غير مبرّح، ومعاملة الضرائر والمساواة والعدل، وحدد بدقة مكان حرثهن، وكيفية الإنفاق عليهن، ومن يدخل من الخدم والأتباع بيوت أسيادهم ووقته، إلى ما يماثلها أو ما هو دونها من الدقائق والتفصيلات الرفائع.



أما فى العموميات فقد غطّت مجالات الحرب والسلام والهدنة والغنائم والأنفال والأسارى والقتال والزحف والمعاهدات والعفو عمن فرّ من العدو من الصحابة فى غزوة أو أكثر وولاهم دبره ومعاملة أهل الكتاب وأهل النفاق والشقاق والأعراب الأشد كفرا ونفاقا... إلخ.

حتى إن المرء لَ يعتريه الدهش ويعلوه التعجب ويتملكه الانبهار من تلك العلاقة الجدلية الحميمة التى نشأت واستمرت أقل قليلا من ربع قرن بين القرآن العظيم (المتلو) وبين أحوال المجتمعين المكى واليثربى والأفراد الفاعلين فى كليهما، فقد تناولهما ب شمولية فاذة ونسطر ونحن مطمئنون أنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة. وفى نطاق الأفراد لم يقتصر على تبع «أول من تنشق عنه الأرض» بل تعرض للمشركين ورموزهم وللمنافقين وصناديدهم وللأعراب وزعمائهم ول أهل الكتاب اليهود وأحبارهم والنصارى وقسسهم وللأصنام وسدنتها وعابديها..

{٢}

بداهة لم نعرّج على ما طرحه (النبأ العظيم) فى ناحيتى العقيدة والعبادة؛ لأن هذين الجانبين هما ميدانه الأصيل الرئيس، فإذا لم يأت بهما فَ بأى شيء يجيء؟.

بيد أن الذى يلفت الأنظار ب شدة ويثير الانتباه ب قوة ثم يدعو للتفكير ويتطلب التأمل ويستدعى مراجعة النظر، هو أن القرآن المجيد فى دائرة العبادة حصرا وتحديدا أجمل ولم يفصّل وأوجز ولم يطل واختصر ولم يطنب، إذ يستحيل عليك أن تعرف منه كيف تؤدى الصلاة، وعلام تزكى، وما مقدار الزكاة فى كل؟ وما هى مناسك الحج؟

ومن حق المسلم أن يسأل - وهذا على سبيل المثال- أيهما أشد خطرا وأكثر أهمية، الصلاة أم اللعان؟

ففى الذكر الحكيم ليس ثمة بيان عن أوقاتها أو عدد ركعاتها أو كيفية إقامتها، فى حين أن الملاعنة سيقت فى شأنها تفصيلات دقيقة.

والتقليديون أو التراثيون يجيبون على هذا التساؤل الجوهرى أن (المثانى/ العربى= القرآن) أوكل مهمة التبيين فى الصلاة والزكاة والحج..

إلى «أول شافع وأول مشفع»، بيد أنه رد غير مقنع، إذ من الميسور التعقيب عليه ب الآتى:

إذن لماذا لم يوكله فى مسألة اللعان وهى أهون شأنا وأدنى رتبة وأخفض درجة وأدنى مكانة بِ ما لا يقاس من الصلاة التى هى عمود الدين ومن تركها ف قد هدم الدين؟!!



إن القرآن العظيم بِ اتفاق السلف والخلف منزه عن المطاعن إذن فَ لأى علة اختط هذا المنهج الذى يبدو للنظرة العجلى والتفكير الفطير والتدبر الناقص أنه مُحيِّر أو مريك أو مشكل؟

وقفت عند هذه النقطة من البحث مليّا وتمعنت فى قوادمها طويلا وتفرست فى خوافيها زمنا وأخيرا وفقنى الله وله المنة إلى الحل الصحيح:

نصوص الذكر الحكيم أى سوره وآياته انبثقت فى حنايا المجتمعين المكى واليثربى ومن ثم حملت همومهما وناءت بِ معاناتهما فى كل ضروب الحياة كما أوضحنا، ومن هنا جاءت مُنجّمة أو نجوماً أو متفرقة كلما قبّت (= من القبة) نازلة (= واقعة أو حادثة) قابلتها آية أو عدد من الآيات التى تفك عقدتها. وقد حدث أن المخاطب أو المخاطبين بِ الآية أو بضع الآيات إذا شعروا بأنها لم تفك من العقدة إلا شطراً منها توجهوا إلى (قطب الأقطاب) وشرحوا له الموقف فأحياناً فوراً وأخرى على التراخى تنبثق آية أو آيات تداوى ما بقى من المعضلة وتزيل ما اعترى نفس الذى تشكى له وفى أوقات أخرى يلمس هو بِ ذاته الشريفة القلق الذى ضرب تبعه أو أصحابه دون تفوه منهم وهنا تبرز آية أو آيات شافية لكل هَمّ، مزيلة لكل غَمّ.



هذا هو التبيين السليم لعبارة إن القرآن المجيد جاء منجما وهو بدوره ما يكشف لنا الغطاء ويرفع لنا الستار ويزيح عنا العتمة فى معرفة السر وراء استمرار انبعاث سور وآيات القرآن الحكيم لِ مدة ثلاثة وعشرين عاما.

فى حين أن موسى صعد إلى أحد أجْبُل سيناء فَ أعطاه ربه (لوحى الشهادة لوحى حجر مكتوبين بِ أصبع الله) (٢).

أى أن موسى أخذ من معبوده كتابه «عبارة عن لوحين » تفضل بِ نقشهما بِ أصبعه فى لحظة، أى لا تنجيم ولا تفريق، ومن هنا فقد صَفُرَ هذان اللوحان من المشاغل الحياتية والهموم المعاشية واقتصرا على ركنى العقيدة: «لا تسجد ل إله آخر لأن الرب غيور إله غيور هو»، والعبادة وطقوسها المتشابكة وقد حفلت بِ تفصيلات فى غاية التعقيد ولولا ضيق المجال وأننا سنبتعد عن جوهر الدراسة ل سطرنا ل القارىء طرفا ليطلع على تلك الأمشاج المُعْجبة.

غاية ما يعنينا فى هذه الخصوصية أن توراة موسى، إن صح أن ذينك اللوحين هما هى أو هى هما، انحصرت فى الركيزتين الرئيسيتين لِ أى .يانة ونعنى : العقيدة والعبادة، ولأنها هبطت من أعلى فَ قد خلت من شئون الدنيا ومشاكل الحياة ومغالبات العيش ونذّكر القارىء ب أننا نتحدث عن اللوحين اللذين تفضل رب موسى بِ نفحهما إياه بعد أن تكرم بِ رقمهما بِ أصبعه.

أما القرآن العظيم فَ لم يظهر مرة واحدةً كَ اللوحين/ التوراة أو التوراة / اللوحين، بل ظل يترى لِ ما يقرب من ربع قرن من الزمان، والحق أنها حقبة مبهرة مضيئة لم تنل حظها من البحث والتنقير ومن ثم تشيأ فيه عنصر العناية المكثفة بِ الأفراد والجماعات بِ أيأة بارزة ملموسة لا تخفى على ذى لُبّ ولا تستبهم على صاحب بصيرة ولا تستشكل على من لديه ذرة من حِجَى، بل لا نغدو مغالين إنه (= عنصر الاهتمام بِ الممارسات الحياتية) يكاد يلمس بِ اليد.

وبِ مفهوم المخالفة فَ إن حيز العقيدة والعبادة فى (الشفاء الكريم) برز محدودا مع روعته وعظمته وأصالته.



هذا هو الفرقان بين التوراة (اللوحين) والقرآن، فَ الأولى منهما ذكر صاحبها أو متلقيها أنها انحدرت إليه من أعلى ونقرها بِ أصبعه ربه

(٢) الاصحاح الحادى والثلاثون من سفر الخروج.

ومعبوده وتسلمها هو منه فى برهة يسيرة أو ربما فى لمحة خاطفة، لأن هذه اللحظات الباهرة لا تقاس بالزمان المعروف لدى الناس بِ الزمن الوجودى.

أما الآخر، أى الذكر الحكيم، «فى الترتيب الزمنى والتحقيب التاريخى أما فى المرتبة فهو الأول والمهيمن ا.هـ» فقد صاحب بنى آدم فى حلهم وترحالهم . فى سفرهم وعَدَنهم، فى ظعنهم وإقامتهم، فى فرحهم وترحهم، فى حربهم وسلمهم، فى عداواتهم وصداقتهم، فى بيعهم وشرائهم، ورهنهم، فى فقرهم وغناهم، داخل بيوتهم وخارجها، فى علاقاتهم العائلية وأحوالهم الشخصية، فى أفعالهم الحميدة وممارساتهم الذميمة، فى أنسابهم وقراباتهم ومع عُبدانهم وإمائهم وحرائرهم، فى ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم مع آبائهم وأولادهم وجيرانهم وأصدقائهم وخوَلهم، مع السلطة التى تعلوهم والمستوى الخفيض عنهم، فى أسواقهم ومتاجرهم .. إلخ.

فى كل هذه المناحى الكثيرة التى تحصى بِ العشرات لم تغفل عيناه عنهم:

أهدى لكل معضلة حلا ولكل سؤال جوابا، ولكل نازلة مخرجا، ولكل حدث حديثا، بل أحسن حديث، ولكل همٍّ فرجا، ولكل ضائقة توسعة، ولكل عقدة فكا، ولكل مغلاق مفتاحا ولكل مسكوك منفذا، ولكل جدب غيثا ولكل إمحال خصبا.. إلخ.

وترتيباً على جماعه تفرشحت فيه مساحة النصوص التى غطّت مغالبات الدنيا ومعالجات العيش ومراوضات الحياة.

وهى ميزة رائعة بِ خاصية فريدة، ومنقبة حميدة، وصفة شامخة تفرد بها القرآن العظيم عن سائر الكتب المقدسة المعزوة إلى الديانتين الإبراهيميتين اللتين تقدمتاه تاريخا لا منزلة فـ هو وحده - وهذه كلمة حق تقال - من بينها صاحب المقام المحمود والدرجة الرفيعة والمرتبة المنيفة.

{٣}

وجه تميز الذكر الحكيم هو عنايته الفائقة واهتمامه الشامل بِ الناس

ورعايته المضاعفة إياهم، ولقد أدرك الصحابة ذلك وفقهوه، ومن هنا تتبع الحقيقة التى تؤكد أنهم أكثر المسلمين فهما له، وأعمقهم علما بدخائله ومخارجه، وأغزرهم معرفة بِ دقائقه، وأوسعهم إحاطة بِ أسرار تراكيبه، وأحسنهم دراية بِ منهجه، وأنفذهم بصيرة بِ أسلوبه، وأعمقهم فطانة بِ طرائقه فى الخطاب، وأصدقهم قريحة فى الخبرة بِ مسالكه، وأحدّهم بصرا فى الاهتداء إلى دروبه.. إلخ.

ويُرّجع التراثيون والاتباعيون ذلك إلى سليقتهم العربية الفطرية، ويردد الخلف عن السلف هذه العلة دون تفكير وبِ لا تدبر وبِ غير إعمال عقل، فى حين أنها (العلة) وإن صحّت فَ إنها مجزوءة منقوصة، فَ هناك من بين الصحابة من لا ينطبق عليه هذا النعت، إذ عرف عن بعضهم لُكنة فى الكلام وحُبسة فى اللسان وعُجمة فى التعبير، منهم على سبيل المثال صهيب الرومى، وسلمان الفارسى.

كما وجد فى صفوفهم من نشأ فى قبائل بدوية فى لهجاتها حوشية وخشونة وبداوة وجفاوة، وأخبرنا القرآن الحميد أن الأعراب أكثرهم لا يعقلون إبان قَصّه عن أعراب بنى تميم الذين نادوا (سيد العرب والعجم) من وراء الحجرات، وبلغت بهم السفاهة والحماقة أنهم طلبوا منافرته، والذى لا يعقل لا يبين إنما يصدر عنه صخب وضجيج وجلبة تصم الآذان.

إذن ليس الشأن منحصرا فى تذوق فصاحة القرآن وبلاغته ونصاعة أسلوبه هذه الصفات التى لا يمارى فيها أحد وأنها التى حدت بِ الصحابة إلى استيعابه والإلمام به لأن القضية لا تخص اللغة وحدها.

وإذا صدق بِ النسبة لمعلقة أو قصيدة لِ امرىء القيس أو النابغة أو زهير بن أبى سلمى أو حتى لِ حسان بن ثابت أو الخنساء، فَ إنه من الركاكة والفهاهة والعَىّ سحب هذا الحكم على القرآن العظيم.



إن الصحابة عندما ينسب إلى جانبهم أعمق المسلمين قاطبة فهماً واستيعابا وفقها وإدراكا وعلما بِ الذكر الحكيم، خاصة الكوكبة اللامعة التى أحاطت بِ «أول من يفيق من الصعقة» والذين درج المسلمون سلفهم وخلفهم على وصفهم بِ علماء الصحابة، إنما مرده ومرجعه فى نظرنا

أنهم وقد رافقوا «الأمين المأمون» فى غالبية أوقاته فطنوا إلى المرونة التى حايثت ظهور الآيات الكريمة والأسباب والمناسبات التى واكبتها، حتى إن بعضهم وأشهرهم فى هذا المجال العدوىّ عمر بن الخطاب، الذى أصبح فيما بعد خليفة، دأب على نطق بعض عبارات، فَ إذا بعد قليل يتلو "الحبيب المصطفى" آية أو آيات تتضمنها أو يشير ب رأى فى موقف معين فَ يقرأ «مقدم ولد عدنان» آية أو آيات تقننه.

وشارك بعض الصحابة عمر فى هذا المنحى- كما سوف يتموضع فى الفصول القوادم - إنما لَحِقَ «هذا البعض» به وجاء مصليا «تالياً أو لاحقاً» للعدوى.

إذن نقه "فقه" الصحابة ، أو إذا شئنا التعيين علماؤهم آصرة القرآن العظيم الحميمة ب المجتمع ووجود علاقة تبادلية مع ظروفه تستقر حلولاً أو فتاوى آو استشارات أو علماً أو معرفة أو آراء - يقبل الذكر الحكيم إما سريعا كما فى مسألة الظهار وإما بعد برهة ب مَا يقرّ العيون ويثلج الصدور ويسر القلوب.. إلخ.

وبداهة تكرر عشرات المرات أمام عيون الصحبة اللوذعية الفطنة فَ ترسب فى أعماق يقينهم تحقق وشيجة ملتبكة بين نوازل المجتمع وبين الأيات الكريمة وأنه يمكن أن يُدّعى بِ غير تجاوز أن الأولى مقتضيات حتمية لإعلان الأخرى أو أنهما أشبه بِ الإيجاب والقبول إذا استعرنا لغة الفقه فى نطاق العقود.

وهذا التفطن يفسّر لنا ما فاه به أثبات علماء الصحابة وعلى الذؤابة رأسهم وسيدهم أبو الحسنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه وطيب الله ثراه ، أنه يعلم سبب أو مناسبة كل سورة وآية ومتى نزلت وأين نزلت..؟

أما عائشة بنت أبى بكر بن أبى قحافة، وهى معدودة منهم ، فقد صرحت بِ وجود الوثاق الحِوارى بين القرآن الكريم وبين موقف حَسّاس، وهو إقدام امرأة أو نِسْوَن على هبة نفسها أو أنفسهن لِ «المنصور بِ الرعب قرابة شهر» ولعل الذى وزّ التيمية على المشافهة به علتان:

الأولى: حداثة سنها إذ إنها عندما انتقل «سيد الخلق» إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً لم تجاوز الثامنة عشرة من عمرها.

الأخرى: أن الموقف حزَنَها وضيّق صدرها وأثار حفيظتها، لأنه سوف

يضيف إلى ضرائرها الثمانى ضرة أو ضرائر وهى ليست فى حاجة إلى مزيد، ومن ثم أفلتت منها تلك العبارات التى رقمنا فى كتابات لنا سوابق أنه لا يجرؤ مسلم غيرها صحابى أو غير صحابى على التلفظ بها.

وأيا هو الأمر فَ الذى لا مشاحة فيه أن تصريح ابنة أبى بكر غنى بـ الدلالات ملىء بـ المُعطيات حافل بـ المعانى وفى ذروة سنامها تأكيد الحبل المتين الذى يربط بين القرآن الحكيم وبين ما تتابع فى حنايا أبطن تجمعاتهم من حوادث وأحداث.

❖ ❖ ❖

لا يفهم من هذا الطرح أن كل ما انتصب فى سور وآيات القرآن العظيم استجابة لـ موجبات فعاليات المجتمعيْن المكىّ واليثربىّ وما اضطرب بـ فى أحشائهما. فَ هذا بِ القطع غير دقيق بِ المرة إنما الذى نرقمه أن شطرا وسيعا منه هيمن على تلك المجالى المركبة.

ولا نلقى أصدق من "أسباب النزول" دليلا على ما نذهب إليه، فَ هى محيط عميق يموج بـ أشتات من الأخبار تلمس فها باليد قبل العين استقرار الصلة بين نصوص (الأمر /البشرى = القرآن) ومن توجه إليهم.

وفى ذات الوقت فَ إنه عين ما قصدناه بالقرآن المقروء والمتلو الذى حفظته صدور الصحاب المتصف بـ الجدة والإبداع والطرافة لأنه داوى أسقاما عملية ورفع حواجز واقعية وأزال عقبات معاشية ويسرّ صعوبات حياتية وقدم لها الحلول النواجع.

❖ ❖ ❖

وليس مدلوله أن التى لاءمت أو ناسبت مفتتح القرن الأول الهجرى تصلح للمستجدات المدهشة لـ فواتح القرن الخامس عشر الهجرى أو أواسطه أو خواتمه إنما الذى نتغَياه معْطيين:

الأول: أن القرآن العظيم نص مفتوح ومحاولة تسييجه ضررها أضعاف نفعها ويكفى أنه تفضل بـ دور فى غاية الروعة وهو الارتباط العضوى بِ المجتمع الذى انبثق بين جنباته سواء فى بكّة أو يثرب.

فَ على من يود تفسيره مجتهدا أو غير متوان أن يؤمه مباشرة خاصة ما وصفناه بِ القرآن المقروء والمتلو الذى حفظ فىً صدور الصحابة الذى

أبرزت قسماته "أسباب النزول" أما الاتكاء على التفاسير العتيقة، مع بالغ التقدير لها، فإه يجافى المنهج الموضوعى العلمى فى التفسير.

الآخر: أن "أسباب النزول" وما كشفت عنه بِ جسارة من حلول وآراء وفتاوى واستشارات ومعارف وعلوم واكبت الأيات التى تُليت زمنها فلا يتطلب إنزالها بِ حرفياتها على مستجدات هذا القرن الحالى إنما الهدف هو الاستهداء فِ حسب بِ المبادىء أو القيم التى نستطيع استقطارها منها، لأن العبرة بِ المعانى لا بِ المبانى. وإذ إنها كما ذكرنا مقطع كبير من القرآن المقروء أو المتلو فإنها أولى بِ الإرقال صوبها للحصول على مفاتيح التفسير المستتير للقرآن العظيم.



لم يقتصر القرآن الكريم على الاهتمام بِ المجتمعين المكى واليثربى وأفراد كل منهما سواء من الذكور أو الإناث بل إنه أولى "سيد الناس ومقدم العرب" رعاية تميزت بِ الكثافة والتركيز البالغين فقد تناول كافة شئونه الخاصة منها بل شديدة الخصوصية:

فعلى سبيل المثال عندما تتفق عليه زوجتان من زوجاته التسع أو يتعاقدن جميعهن على طلب زيادة النفقة عليهن وشيئاً من التوسعة أو تكتشف إحداهن أنه مَسّ جاريته على فرشها وفى حجرتها فِ هنا تظهر آية أو آيات كريمة تزيل عنه الغمة. وكذا حُلّت معضلة زواجه من السيدة الفائقة الحسن والبهاء التى تزوجها قبله عبده ثم ابنه عن طريق التبنى ثم مولاه، ودرج تقليد راسخ بينهم على تحريم هذا النكاح بِ ورود آية فكّت العقدة وأبطلت ذاك العرف المستقر وسخّفته واستهجنته وأحلت زواج الرجل بزوجة ابنه المتبنى حتى ولو دخل بها وعاشرها وبذا حُقّ لِ تلك الزوجة الوسيمة القسيمة الفاتنة أن تفخر على سائر نسونه، لأن كلاً منهن زوجها وليها فى حين أنها الوحيدة التى جاء أمر نكاحها فى الذكر الحكيم وبسببه أيضا تم تحطيم قاعدة صلبة مضت عليها مئات الأعوام وهى تحريم حليلة الابن بالتبنى.

وفى ليلة عرسها أطال المدعُوون إلى الوليمة المكث لديه وهو أمر يقطع بِ قلة الذوق ويشى بسوء الأدب وينبىء عن الخشونة وينضح بالبداوة. إذ

من حق "سيد ولد عدنان" أن يدخل سريعاً على عروسه الوضيئة الجميلة، فـ انبرى القرآن العظيم وظهرت منه آية كريمة عابت على الضيوف الثقلاء لُبثهم غير اللائق وأمرتهم بـ سرعة الانصراف.

وتجرأ نفر من المنافقين وبعض رقيقى الإيمان وعدد من المسلمين لاشك فى إسلامهم بيد أن عقولهم خفيفة وأخلاقهم طَفِسّة ونفوسهم معقدة رموا أحب زوجات «المعصوم من الناس» وهى إبّان ذاك فى الثالثة عشرة من عمرها بـ تهمة حقيرة هى منها بريئة كل البراءة وأشاعوا عنها إفكاً وبهتاناً. فتصدى لهم الذكر الحكيم وأعلن براءة الزوجة الحدثة الصغيرة السن وزَيّف وبطلان أكاذيب السفلة أصحاب الإفك وفرج عن "أبى القاسم" أزمة نفسية قاسية ألمت به.

وفى غزوة أخرى فقدت ذات الزوجة الحبيبة الحديثة العمر عقدها فـ حبس الأصحاب على التماسه مما دعا أباها التيمىّ إلى أن يصيح فى وجهها أنها فى كل سفرة بلاء وعناء على الناس. ونتيجة له تعذر على المسلمين أداء الصلاة لانعدام الماء فى الموضع القفر وفجأة أقبلت آية قرآنية حلّت العقدة وفكّت الأزمة فأباحت التيمم.

فى سورة غضب أعلن صحابى أنه سوف ينكح ذات الزوجة الشابة بعد وفاة محمد، لأنها فضلاً عن صغر سنها حلوة مُلاّحة وتمت إليه «الصحابى» بـ قرابة حميمة ورغم أن "الشفيع المشفع" بشرّه بـ دخول الجنة إلا أنه أثبت أنه يتمتع بـ غلظ فى الحس وسماجة فى الشعور وانحطاط فى الأدب إذ لا يُتصور فى رجل متحضر أن يخبر آخر أنه ما إن يموت حتى يهرول إلى نكاح امرأته.

ولـ ندع الصحابى الجلف كيما نعود إلى سياقة الدراسة:

إن كلماته الفلوت آذت أحاسيس "رافع لواء الحمد" وآلمت نفسه بيد أن القرآن لم يتركه يعانى المواجع فـ هلّت إحدى آياته الحكيمة تحرّم نكاح زوجاته التسع بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً وتوافقت (=الآية) بـ الكلية مع اللقب الذى تحمله كل منهن وهو "أم المؤمنين" وعلى طول التاريخ لم نقرأ عن شريعة أباحت زواج الأم فضلاً عن أن الطبيعة البشرية السوية تنفر منه وتستقبحه.

أقدمت بعض النسون على هبة أنفسهن لـ "صاحب السيف" لكى تنال

شرفاً منيفاً ما بعده رفعة ولِ تحمل اللقب الباذخ "أم المؤمنين" بيد أنه أصاب زوجاته ب قدر من القلق وشىء من الغضب كرد فعل طبيعى، كما أنه سوف ينعكس على تصرفاتهن معه خاصة الوضيئات منهن مثل عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش مما سيصيبه ب عنت ومشقة، فَ أشرقت آيات كريمات تناولت الأزمة العارضة ب ما فيه رضاه وإياهن.

قبيل فتح الفتوح «فتح مكة» أرسل "الحبيب المحتبى" عمرو بن أمية الضمرى إلى الحبشة لِ يخطب له أم حبيبة بنت أبى سفيان، وقد دلت هذه البادرة على حنكة محمد السياسية التى لا ضروب لها لأن ابن حرب ابن أمية غدا زعيم مكة وسيدها فبارك الذكر الحكيم هذه الخطوة الذكية واللفتة التى تنم عن فطنة فاذة فى الآية السابعة من سورة الممتحنة "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة". نكتفى بِ هذه الأمثلة الثَرّة الدلالة التى سقناها ل الكشف عن جانب هام من جوانب معطيات الذكر الحكيم فى العناية ب الأحوال الشخصية ل "مَن سيفه على عاتقه".



كتب الكثيرون، من المستحيل إحصاؤهم، عن إعجاز القرآن سواء من السلف أو الخلف ومن العرب والأعاجم وبِ غالبية اللغات وتطرقت بحوثهم القيمة ل شتى وجوهه ولكن على حد علمنا لم يرقم أحدهم سطراً فرداً عن هذا المقطع ونعنى به الاهتمام الشديد بِ القائد والمجتمع وأفراده الفاعلين فيه وطوائفه المختلفة من كافة الزوايا التى ذكرنا حفنة منها - إذ إننا لم نستوفها على بكرة أبيها- ولم يمد باحث منهم قلمه إلى العلاقة الجدلية التى ربطت بِ آصرة محكمة الأسر أولئك بالآيات الكريمة والتى بنظرنا نفحت القرآن الحميد الحيوية الفائقة والنضارة الدائمة والبكارة الخالدة وجعلت منه مَعِينا دفاقا لا ينضب ماؤه ولا يغيض تدفقه ولا ينقص عطاؤه.

ب هذه الميزة الرائعة والخاصية الفاذة والصفة الفريدة هيمن على كتابىّ الديانتين الإبراهيميتين اللتين تقدمتا عليه فى تاريخ الظهور لا فى المكانة أو المنزلة أو المقام.

إن الالتفات إلى المخاطَبين فى جميع أوقاتهم وضروب معائشهم

ومختلف مواقفهم، والأخذ بـ أيديهم إلى الأمثل، وهدايتهم إلى الأصوب، وإرشادهم إلى الأقوم دليل لا يقبل المحاجة وحجة لا ترقى لمستواها المجادلة وبرهان لا يناله الوَهَن على أنه الكتاب العرّى عن الشبيه، والعديم عن المثيل، والبعيد عن القرين.

بـ ذات المستوى وفى نفس الدرجة بزغت حياطته بـ القائد وشموله بـ السهر والحدب عليه وإشعاره بـ أنه محط الموالاة وتحت مظلة الحفظ وداخل جناح الحراسة وفى بؤبؤ عين الصيانة.



إن كتابىّ الديانتين السابقتين تحدثا عن معجزات البطاركة الأكابر منهم إبراهيم وموسى وعيسى بيد أنهما صفرا صفوراً تاما "جاءا خاليين" من التعريج على أحوالهما وفى مقدمها الخاصة والشخصية. فى حين أن ذلك شكّل معلماً بارزاً فى الذكر الحكيم بالنسبة إلى من "جعلت له الأرض مسجداً" وإلى المجتمعيْن المكى والأثربى.

إن تناول الخوارق يتعلق بـ الغيبيات والماورائيات والميتافيزيقا أو ما خلف الطبيعة، أما الكلام عن الشئون الحياتية والممارسات المعاشية والأنشطة اليومية، فهو يتصل بوثاقة محكمة بـ الناس فى مختلف تقلباتهم، وشتان بـ من يقلق من أجل الهُشُوشة والهامشية والطرفية ومن يحصر همته فى القلب والمركز والجوف "الباطن" والمقارنة تغدو مجحفة بين من يصوّب نظره إلى العرَض وبين من ينفذ بـ بصيرته إلى الجوهر.

إن العجائب والمدهشات والمذهلات موقوتة سرعان ما يخبو ضوؤها وتذهب لمعتها ويذبل نورها، فى حين أن المعاشيات والحياتيات والفعاليات ثابتة أصلية أساسية. بـ معنى أن الأولى تحيّر من خُوطبوا بها وتدلّه الذين عاينوها وتربك معاصريها. وعند هذا الحد يتبخر مفعولها ويغيض أثرها وتنتهى النتيجة المرجوة منها . أما الأخرى فهى تمس واقع المخاطَبين بها ثم يمتد مسيلها إلى الأجيال والقرون المتطاولة التى تُخلق بعدهم. ولا يفهم منه أن تطبيق النصوص التى حملتها يتم حرفياً إنما نعنى الاستهداء بـ معانيها والاسترشاد بـ قيمها والتفطن إلى أهدافها ومعرفة دوالها وإدراك مراميها وفقه غاياتها، فـ سنرى فيما يأتى من

فصول أن بعضها قصد التخفيف فَ ننقه أن (= التخفيف) منهج (الحبل/القيم) . وآخر نهى عن اللعب أو الهزؤ بِ الألفاظ التى تتعلق بِ الروابط الأسرية فَ يترسخ لدينا اليقين بِ عظم شأنها، وثالث عاب تقديم الشيء الرديء عند إخراج الصدقة "الزكاة" فَ نتأكد أنها ركن ركين يتوجب علينا أداؤه على الوجه المرضى، ورابع يحكى عن تآمر الضرائر فَ نخلص إلى أن نكاح مرتين أو ثلاث او أربع خيبة قوية، وخامس يخبرنا عن صحابى نال من مرة ما دون فرجها وآخر ضرب حسناء جميلة على عجيزتها المكتنزة ثم استغفر كل منهما وصلى وورد أن الحسنات يذهبن السيئات، فَ ندرك أن الضعف البشرى أمر وارد لأن كل بنى آدم خطاء وأن دواءه التوبة والإنابة. .. وسادس ينقل إلينا صبر "متمم مكارم الأخلاق" على بذاءات اليهود والجدال العنيف الذى أثاره النصارى فَ نتعلم درساً نحن فى أمس الحاجة إليه فى ضرورة التعايش مع أهل الكتاب والتحاور معهم بِ التى هى أحسن. وسابع ينهى عن النكول عن أداء الشهادة ف لا نتردد فى القيام بها.. ونكتفى بِ هذه الأمثلة السبعة لأن فيها غناء، وقد تعمدنا أن نبلغ بها هذا العدد لأن له قداسة فى الديانات الإبراهيمية الثلاث وقيل إنهم نقشوا تقديسه من الديانات السامية التى سبقتها والتى ظلت مهيمنة على ذات المنطقة قرونا متطاولة. والقرآن العظيم ينص على تداول الأيام بين الناس ولعل أبرز ما يؤكد صدقه هو أن عبادة آمون رع استمرت، على ما ذكر علماء المصريات "الإيجيبتولوجى" دهراً مديداً حتى قيل لن يتقطع "وهو شطر بيت ل شاعر عربى".

ثم نؤوب إلى سياق البحث:

لعل من لديه أدنى مُسكة من عقل سليم قد اقتنع أن منهج القرآن الحميد فى هذه الخصوصية وهو الحِياطة بِ "صفوة البشر" والعناية بِ المجتمع وأعضائه وانتصاب وشيجة متينة وتشابك متداخل والتفاف ملتحم بين آياته وهؤلاء فى سائر ظروفهم وأوقاتهم، هو المنهج الأمثل وبه بزّ الكتابيْن المقدسيْن السابقين وفَلَج عليهما وغدا بِ حق "كتاب الحياة".



بيد أن سلوكه هذا المنهاج أدى بطريق الحتم واللزوم إلى انفجار ما

عُرف ب ظاهرة النسخ فيه. فـَ فى المائة والأربع عشرة سورة توجد إحدى وسبعون منها بها نسخ "أى ما يقرب من ثلثيها" منها خمس وعشرون سورة فيها ناسخ ومنسوخ وست منها تحتوى على ناسخ والأربعون الباقية تضم المنسوخ فقط.

وقديما أثار اليهود لغطاً حول النسخ ب حجة ان البدَاء لا يجوز فى الكتب المقدسة. "والبداء هو الإفضاء بقول ثم يعرض لصاحبه ما هو أحسن منه ف يفوه به وينبذ الأول"، بدليل أن التوراة خلت تماما من النسخ وكثيراً ما سألوا "أعظم الكائنات" يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى -فـَ رد عليهم القرآن العظيم : " وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة"(٤).

لقد اثبت اليهود طيش أحلامهم وقلة عقولهم وقصر نظرهم وعتامة بصيرتم وضيق أفقهم، إذ يعتبرون أن مجئ الكتاب مرة واحدة منقبة ويعدونه محمدة ويرون أنه ميزة ويذهبون إلى أن تنجيمه نقيصة ويحسبونه عيباً ويُطبقون على أنهُ ثلمة ويجمعون على أنه مَذمّة. فى حين أن العكس هو الصحيح والنقيض هو السليم والمخالف هو السديد، لأنه (= التنجيم) هو الذى يوائم الناس أو المخاطبين ويسد خلاتهم ويفى ب حاجاتهم ويحقق أغراضهم ويشد ظهورهم ويقوى ضعفهم ويهدى خطواتهم.

فى حين أن كتاب الدفعة الواحدة لايحقق شيئاً.

ومن هنا برزت التوراة التى فى أيدى اليهود مليئة ب الأساطير حافلة ب الخرافات طافحة ب الشعبذات ونرجّح أن مرده : محاولة ملء الفراغ وإلهاء المخاطَبين عن الإخلال الذى اعتورها نتيجة لازمة ل انحدارها من عَل دفعة واحدة ومن ثم فـَ هذا هو سبب اقتصارها على المعجزات والمدهشات والمخاريق.



إن التمييز بين القرآن المقروء/ المتلو - المحفوظ فى صدور الصحبة وبين القرآن المدون فى عهد عثمان الأموى ليس بدعة حسنة بل أمر مقرر

(٤) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره وأورده السيوطى فى الإتقان.

التفت إليه البُحاث القدامى وسطروه فى مؤلفاتهم وبداهة ليس من الضرورى ذكر التفرقة بِ فصها ونصها بل يكفى إدراكها من جماع ما رقموه.

أورد الإمام شهاب الدين القَسْطلانّى فى كتابه "لطائف الاشارات ل فنون القراءات": «فَ تلقاه » يعنى «القرآن المجيد» أصحابه «أى الأمين المأمون» منه غضا وأدوه إلى من تلقاه عنهم خالصاً محضاً". (٥)

والقسطلانى من علماء القرن العاشر الهجرى أى انصرمت على تدوين مصحف عثمان الأموى تسعة قرون وقرابة ربع قرن عند وفاته، بيد أنه يحدد بِ منتهى الدقة القرآن النص الخالص المحض الذى كَنّه الصحاب فى صدورهم ثم تلوه على التابعين كما تلقوه من (الإنسان الكامل/ لابس الصوف).

وهى عبارات صريحة النص والدلالة معا على ذيّاك التمييز الذى نسخناه فى بدىّ هذه الفقرة وليس ضربة لازب أن يسطره القَسطلانّى بِ حروفه.

❖ ❖ ❖

أما الإمام السيوطى فله ثلاثة مصنفات تناول فيها "أسباب النزول" خصّص أحدها لها والثانى عنوانه : «التحبير فى علم التفسير" تناولها فيه فى النوع الحادى عشر والثالث أشهرها: "الإتقان فى علوم القرآن" وقد أفرد فيه لها النوع التاسع سماه "معرفة سبب النزول" ودرسها بتوسع.

وهو أيضا من علماء القرن العاشر الهجرى مثل القسطلانى وفى كتابه الأخير سلط حزمة من الضوء الباهر على الصحابة الذين شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب التى لا تصح إلا بِالرواية عنهم والسماع من شفاههم ثم حمل إلينا خبراً غنيا بالدلالات والمُعطيات وهو أن محمد بن سيرين سأل عبيدة عن آية من القرآن فقال له : اتق الله وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن.(٦)

السيوطى يخلص إلى أن الصحابة هم الذين حظوا بِ رؤية السور والآيات وهى تشرق، ومن ثم وقفوا على معرفة أسباب بزوغها وأن عبيدة

---

(٥) (لطائف الإشارات ل فنون القراءات) للإمام شهاب الدين القسطلانى ٨٥١ / ٩٢٣هـ الجزء الأول ص ٢١ تحقيق وتعليق الشيخ عامر السيد عثمان ودكتور عبد الصبور شاهين- من إصدارات المجلس الأعلى ل الشئون الإسلامية - لجنة احياء التراث الإسلامى- الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ١٩٧٢م.

(٦) "الإتقان فى علوم القرآن» ل السيوطى ت ٩١١ه ص ٤١ - الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، نشرته مكتبة مصطفى البابى الحلبى ب مصر.

لما سأله محمد بن سيرين عن آية كريمة "يعنى سبب ظهورها" رد عليه ب أن الصحابة الذين عاصروها وتحققوا منها انتقلوا إلى رحمة الله.

إشارة واضحة لا تخفى على الفطن اللبيب إلى القرآن الذى حفظته صدورهم ووعته قلوبهم وقد سبقت تلك المحاورةُ المُوحيةُ التى جرت بين عبيدة وابن سيرين تأليف الكتب فى فرع "أسباب النزول" أحد فروع "علوم القرآن". وإلا لرجع ابن سيرين إلى أحدها إنما الذى يهمنا أن ما طلع به علينا السيوطى ترميز جلىّ لِ القرآن المتلو المحفوظ فى حنايا صدور الأصحاب.

والسيوطى، كما أسلفنا، من علماء القرن العاشر ولدى وفاته مضت تسعة قرون وعقد على كتابة مصحف الأموىّ عثمان بن عفان ومع ذلك سيطر على وجدانه القرآن المجيد الذى وصفه نديده ومعاصره القسطلانى بأنه غض ومحض وخالص.

ونكتفى ب شهادة هذين الإمامين العالمين العَلَمين ل إزالة ما قد يحيك فى قلب أى قارىء أو يسوط فى صدره أو يشوش عقله القول ب ضرورة التمييز بين القرآن المتلو المقروء/ المحفوظ وبين المدّون ب معرفةَ الأموىّ عثمان بن عفان وتحت رقابته وإبان خلافته التى أثبتنا ب الأدلة فى كتاب لنا سابق أنها بدأت التحوّل إلى ملك عضوض ثم تم علىَ الأيادى المباركة ل أبناء عمومته من الفرعين الأموى والسفيانى.

وعسى أن تولدت عند القارىء قناعة كاملة ب هذه الحقيقة البالغة الخطر نكرر ما سلف ورقمناه أنهما قرآن واحد مجيد بيد أن النظرة لأحدهما تفاصل النظرة ل الآخر، إنما هذا لا يعنى بحال أنهما اثنان ونعوذ ب الله تعالى منه ونبرأ ممن يذهب إليه.

ولسنا بصدد تأليف كتاب فى "أسباب النزول" فَ هذا الفرع الهام من فروع علوم القرآن أخذ حظا لا بأس به من العناية وإن لم يصل إلى مستوى علم التفسير، إذ كتب فيه قدامى ومحدثون أو سلف وخلف بيد من أبرزها كتاب "أسباب النزول" ل أبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى المتوفى سنة ٤٦٨هـ وقد طبع فى مصر وغيرها عدة طبعات، وفى الصفحات الأولى يذهب إلى أن "أسباب النزول" هى "أوفى ما يجب الوقوف عليها وأولى ما تصرف العناية إليها ل امتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نُزولها".(٧)

(٧) "أسباب النزول"- الواحدى - ص ٤ طبعة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ مؤسسة الحلبى مصر.

إنما سوف نتكئ عليها بدرجة ملحوظة لما لها من دلالات متعددة فى مقدمها زمن حدوث النص ومكانه " إن تيسر" والفاعلون أو ب معنى أشد وضوحاً أبطال الخبر أو القصة أو الواقعة ونوعية الموضوع الذى بزغ النص بشأنه أهو أمر أم نهى أم تشريع أم فتوى فى نازلة أم تفريج لِ ضائقة أم فكّ لِ عقدة أم توضيح ل غامضة أم حل ل مُشكلة.. أم تبيين لَ مُبهمة... إلخ.

جماع ذلك بِ هدف جوهرى وغرض رئيس وقصد أصيل هو تأكيد أن "البصائر /القرآن" أسس نصوصه وبنى آياته وأقام عُمُد مَتْنه ضمن التاريخ وفى داخل مسيله وفى قلب تياره وفى باطن مجراه. فَ هو إذن ليس مجرداً أو مفارقاً أو مغايراً أو مباينا أو ما شئت من هذه الكلمات التى تدل على القطيعة وتجزم بِ التباعد وترمز إلى البينونة... نقول ليس مفاصلاً للتاريخ الذى واكبه وللزمن الذى تولد فيه كَ حال الكتابين المقدسين اللذين سبقاه فى البزوغ أو الظهور لا فى القيمة أو المحتوى أو المضمون أو اللب.

والتحام القرآن الكريم بِ تاريخ شروقه وامتزاجه ب زمن طلوعه هو فى نظرنا من بين أبرز أسباب شدة نفاسته وارتفاع قدره وشموخ مكانته وسمو رتبته وعلو جاهه. لماذا؟

لأنه التحم بِ الواقع ومس الحياة وخالط المعاش وجميعه نفحه المصداقية ووهبه الحيوية وأعطاه النضارة ومنحه الشباب وتولدت عنه الاستمرارية ونتجت عنه الديمومة وانبثق عنه الخلود.

وهذا الكتاب محاولة غير مسبوقة لِ رفع الستار وكشف الغطاء عن هذه الجوانب المبهرة فى الذكر الحكيم وخاصة فى القرآن المتلو الذى حفظته صدور الصحابة ووعته قلوبهم وجمعته ذاكرتهم.

فى مذهبنا لا يكفى أن ندعى أنه أشرق ضمن التاريخ وطلع فى حنايا الزمن فَ هذه دعوى بِ غير دليل وقول بِ لا حجة ومعطى بِ دون برهان وكل منها إذا قدم بصورته هذه لا يلتفت إليه.

ومن ثم انتصبت الحوجة وقام الافتقار وبرزت الضرورة إلى مؤلف يسد هذه الثلمة ويغطى هذه الثغرة ويملأ هذه الفجوة بِ أن يضع فى حجر القارئ الأدلة القواطع والبراهين السواطع والحجج الدوامغ على صحة

هذه الدعـوى وابتنائهـا على أسس ثوابت وعـمـد رواسـخ وقـواعـد صلبـة، ويتبدى هذا فى أيأة "هيئة" التوثيق المبالغ فيه إذ هو ديدننا فى ما طرحناه قبلاً من تأليف كيما نسد الطريق ونسك المنفذ ونغلق الدرب على أى مراء سقيم أو لجاج عنيد أو محاجة شكسة.

وبداهة هو ليس كتاباً فى التفسير لأنه من ناحية نحن فى نظر حلاس الإسطار المقدس لا نملك أدوات المفسر ومن أخرى فإن منهج البحث والدراسة فيه يغاير منهج التفسير.

وكما سطرنا فى عدد من مؤلفات لنا سوابق أن المحاولات الرائدة - رضى أصحابها أم سخطوا- فمن الحتم اللازم أن تبوء ب قصور وأغلاط وهنات ربما غير هينات إنما الذى لا مشاحة فيه أنها الثمن الذى لا بد أن يدفعه الرواد كيما ينالوا شرف الريادة.

هذا والله وحده وراء القصد وهو سبحانه ولى التوفيق

٢٧ جمادى الآخرة ١٤٢١هـ ١٧ أغسطس ٢٠٠٠م

خليل عبد الكريم

الباب الأول

آيات كريمة أشرقت تحقيقا لرغبة القائد وأخرى تلبية لرجاوات تبعه

الفصل الأول

آيات أشرقت تحقيقا
ل رغبة القائد

(١)

ظل "سيد الناس وذؤابة العرب" ثلاثة عشر عاما يدعو ويبشر بِ الديانة الجديدة " الإسلام" بيد أن المرازبة الجحاجح صناديد قريش أعرضوا عنها ومنهم نفر من بنى هاشم الفرع الذى ينتمى إليه أو رهطه وحذا حذوهم طواغيت ثقيف بِ الطائف وصدوه صداً جافياً غليظاً نم عن الجلافة وكشف عن الغلظة وأثبت البداوة.

ولأسباب تند عن هذه الدراسة رحب بنو قيلة " الأوس والخزرج" وفيما بعد سماهم "الأنصار" بِ دعوته وطلبوا منه أن ينتقل إلى قريتهم وفيها سيجد المنعة وتعهدوا له بِ حمايته وحراسته وفعلاً نزح إلى يثرب وسبقه إليها العدد المحدود الذى صدقه.

امتازت تلك القرية بِ كثافة يهودية سيطرت على المقدرات الاقتصادية حصراً وتحديداً بِ الإضافة إلى أن بِ أيديهم إسطيرا مقدسا وهو أقدم الإسطيرات المقدسة ويزعم أصحابه أنه أصل الأصول ومن معينه استقى من جاء بعده ومتح من بيره ونهل من منبعه ولعل هذا شكّل أحد أسباب غطرسة اليهود وغرور أولاد يعقوب وعنجهية بنى إسرائيل.

و " النذير البشير" عبقرى لا يشق له غبار ولا يلحق به فى مضمار، فَ رأى بِ ثاقب نظره ووسيع أفقه ونافذ بصيرته أن يوادع يهوداً فَ حاول استمالتهم وخطا خطوات حثيثة منها : أنه أقر بنى قيلة " الأوس والخزرج والأنصار" على عرف مستقر لديهم وغيرهم من القبائل القريبة من أثرب وهو الزواج من بنات يعقوب ، وكالعادة نطرح دليلاً هو : كعب بن الأشرف الذى ناوأ " المنصور بِ الرعب مسيرة شهر" وحرض عليه بالقول "الشعر"

والفعل حتى إنه لم يجد طريقة لِ إسكاته إلى الأبد سوى انتداب نفر من بنى قيلة فَ اغتالوه وأراحوه من شره. هذا الكعب أمه يهودية، وفى شريعتهم لايعد منهم إلا من ولدته يهودية.

وأباح "من جعلت له الأرض طهوراً" لأتباعه طعام ذرية يعقوب وهو اعتراف بِ أمر واقع لأن الخلطة بين بنى قيلة وبينهم متينة الأسر وتتخذ صوراً متباينة: الحلف والولاء والجوار والمصاهرة والشراكة فى التجارة والمعاملات الأخرى: الزراعة- الصناعة- صناعة السلاح.. بل إن بعض بنى قيلة تركوا أولادهم ينشأون وسط بنى إسرائيل ومنهم من اعتنق دينهم ورفض التخلى عنه والدخول فى الإسلام رغم الضغط عليه من خاصته وذويه ونفر منهم نزح مع يهود عندما أجلاهم "صاحب السيف".

فَ تحريم طعامهم لابد أن يجر على الأوس والخزرج بلوى عمومية تصيب حياتهم بِ الربك ومصالحهم بِ المرج ومعايشهم بِ الاضطراب.

بيد أنه عندما أدرك "الأمين المأمون" ذاك أباح مطاعمهم وقصد فى ذات الوقت التقرب إلى أبناء يعقوب، خاصة إذا وضعنا فى الحسبان أنه حرم على تبعه بنصوص باترة كَ حد السيف نكاح المشركات ومآكل المشركين.



علم "الإنسان الكامل" إثر نزوحه إلى يثرب أن بنى إسرائيل يصومون العاشر من محرم يُسمّى لدى العامة وغيرهم يوم عاشوراء. بِ مقولة إن ربهم نجى نبيهم موسى عند هروبه وتبعه من مصر بِ تلك الخارقة المعجبة والمعجزة المدهشة وهى شق البحر الأحمر. لهم فَ أمر "سيد الخلق" من تابعوه على دينه من النازحين واليثاربة بصومه لأنهم أحق به إذ إنهم مثل يهود يؤمنون بِ نبوة موسى الذى حظى بِ تكليم ربه إياه، والقصد الخبىء والغرض الخفى والهدف المستتر من ورائه هو المشى خطوة أو عدة خطوات نحو استئلاف أولاد يعقوب.

«وقال القرطبى: لعل قريشاً كانوا يستندون فى صومه "يوم عاشوراء" إلى شرع من مضى كَ إبراهيم، وصوم رسول الله يحتمل أن يكون بحكم الموافقة لهم كما فى الحج.

وأذن الله له في صيامه على أنه فعل خير، فلما هاجر ووجد اليهود يصومونه وسألهم وصامه وأمر بِ صيامه احتمل أن يكون استئلافاً لليهود كما استألفهم باستقبال قبلتهم ويحتمل غير ذلك.

وعلى كل حال فلم يصمه اقتداءً بهم فإنه كان يصومه قبل ذلك، وكان ذلك في الوقت الذي يحب فيه موافقة أهل الكتاب فيما لم يُنْهَ عنه..) (١)

في هذا النص نجد أن القسطلاني نقل عن القرطبي وهما إمامان كبيران ونجمان ساطعان في فَلَك العلوم الإسلامية أن "سيد ولد عدنان" عندما وصل إلى يثرب وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فصامه وكلف تبعه بِ صيامه، وأن فعله الشريف هذا من الجائز قصد به استئلاف بني إسرائيل مثلما استألفهم باستقبال قبلتهم أي بيت المقدس- في الصلاة- وأنه في ذياك الإبان دأب على موافقة أهل الكتاب في مالا يخالف الديانة الشريفة التي يبشر بها.

إن هذا الأثر بالغ الثمانة، عالي القيمة، موفور القدر. فضلا عن أنه ثَرّ بالدلالات، غنيّ بِ المعاني، مليء بِ الإيحاءات.

إنه يؤكد ما سبق أن زبرناه أن السلف من المؤلفين والمصنفين بِ عكس المحدثين/ المعاصرين على درجة رفيعة من المسئولية الفكرية، ورتبة عالية من الأمانة العلمية، ومستوى منيف من الالتزام بِ الموضوعية.

{٣}

في الإسطير المقدس عند بني إسرائيل أن ربهم أنجز الخلق وفرغ منه في ستة أيام واستراح في اليوم السابع.

سبق أن رقمنا أن العدد سبعة له قداسة لدى الديانات الإبراهيمية الثلاث نقلاً عن الديانات السامية القديمة التي خيمت على شعوب المنطقة قرونا متطاولة.

ومن ثم فإنه يعتبرون السبت (اليوم السابع) يوم بطالة وعطالة وراحة وفيما بعد أطلق عليهم القرآن المجيد أصحاب السبت.

ولَكَ بادرة وداد قرر "سيد ولد عدنان" اعتبار يوم الجمعة يوم اجتماع

---

(١) (المواهب اللدنية بِ المنح المحمدية) (لِ شيخ الإسلام القسطلاني)- المجلد الثاني - ص ص ٤٥٣- ٤٥٤/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م - دار الغد العربي - بمصر.

عام فَ غَدَتَ له نكهة خاصة ومذاق متميز وطعم منفرد عن سائر أيام الأسبوع، وحتى الآن وبعد مرور أربعة عشر قرنا وقرابة ربع قرن يتخذ المسلمون منه يوم عطلة تغلق فيه المصالح الحكومية والمتاجر والمصانع أبوابها... إلخ.

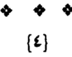
ويوم الجمعة هو اليوم السابق مباشرة لِ يوم السبت ومن يحاج فى أن هذه خطوة موادعة لبنى يعقوب من قبل "المعصوم من الناس" لنا أن نسأله:

لماذا لم يتخذ يوماً آخر مثل الاثنين أو الثلاثاء أو الأربعاء أو الخميس يوم اجتماع عام، خاصة يوم الاثنين، فقد حُفظ عنه أنه فيه ولد وفى ليله التقى ملاك الرب جبرائيل لِ أول مرة فى مغارة حَرَى؟!

هذه واحدة.

أما الأخرى فهى أن "سيد الخلق" ظل بعد أن أعلن ديانة الإسلام فى قرية القداسة بكة ثلاث عشرة سنة فَ لماذا لم يأمر باتخاذ يوم الجمعة يوم اجتماع عام؟

ذكرت مؤلفات سيرته المعطرة أن أول جمعة أقيمت فى قرية يثرب فى محلة بنى سالم بن عوف بعد أن نزل بِ قباء على شيخ بنى عمرو بن كلثوم بن الهدم، وطفق يجلس مع اليثاربة ويحادثهم فى بيت سعد بن خيثمة لأنه عزب «غير متزوج» وقضى بها "= قباء " عدة أيام بنى فيها مسجداً أسس علَى التقوى، ولاشك أنه إبانها خبر أحوال أثرب ونقه ثِقل وخطر يهود فيها فـ سنّة موادعتهم والتقرب إليهم واتخاذ خطوات فى هذه السكة ومنها "التجميع".



{٤}

عندما استقر "سيد الكائنات" فى يثرب كتب ما يسمى بـ الصحيفة، وقد وصفها البُحّاث المحدثون بِ أوصاف لا تنطبق عليها فَ على سبيل المثال أطلق عليها الشيخ محمد سيد طنطاوى(٢) "معاهدة،" وهذا توصيف خاطئ، لِ أن شروط المعاهدة لا تنطبق عليها، فَ اليهود لم يوقعوا عليها، وقد أورد ذلك فى الرسالة التى تقدم بها لِ نوال إجازة العالمية (٣) يسميها الأزهريون الآن "الدكتوراة" متابعين فى ذلك الفرنجة، وعنوانها "بنو

(٢) حاليا يتربع على دست رئاسة شئون التقديس فى مصر المحروسة.

(٣) يسميها الأزهريون الآن «الدكتوراة» متابعين فى ذلك الفرنجة.

إسرائيل فى القرآن والسنة" وقد مشى الشيخ طنطاوى وراء عبد الرحمان عزام الذى وصفها بِ أنها من أنفس العقود الدولية وأمتعها وأحقها بِ النظر والتقدير.(٤)

لاحظ وصفه لِ الصحيفة التى أطلق عليها معاهدة بأنها متعة وهو وصف لا يليق بها، وهذا يؤكد ما سنذكره بعد قليل أن عزاماً هذا ليس له فى الفكر نصيب، وفى صعيد مصر ينعتون المرأة التى ترضى الرجل عند المفاخذة أنها "مَرَة مِتّعة" بِ كسر الميم.

وعبد الرحمان عزام، الذى تابعه طنطاوى، رجل سياسة «تولى منصب أمين عام جامعة الدول العربية» وليس له فى العلم عير ولا نفير وبعض الكتبة نفح «الصحيفة" لقب دستور وزايد عليه غيره فقال إنها أول دستور فى العالم.

ثم نرجع بعد هذه التفريعة إلى سياقة التنقير:

(ذكر ابن كثير : قال محمد بن إسحق وكتب رسول الله كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود).(٥)

والذى يهمنا فى هذه الفقرة المنقولة عن ابن كثير أنه سماها (كتاباً) لا معاهدة أو دستوراً كما تصنع جوقة التعظيميين والتفخيميين من الكتبة المحدثين، ولا شك أن "أول من تنشق عنه الأرض" استهدف من الكتاب أو الصحيفة موادعة أولاد يعقوب.



{٥}

توالت مبادرات التواد والموادعة من ناحية «أول من يفيق من الصعقة» إلى بنى إسرائيل، وهنا نصل إلى المحطة الأخيرة وهى استقبال بيت المقدس فى الصلاة وهى قبلة اليهود:

(أخرج الطبرى والنحاس والواحدى وغيرهم عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال:

---

(٤) (الرسالة الخالدة) لِ عبد الرحمن عزام – ص ٦٥ نقلا عن (بنو إسرائيل فى القرآن والسنة) لِ محمد سيد طنطاوى ص ١٤٤ طبعة نوفمبر ١٩٩٧م دار الشروق بِ مدينة نصر.

(٥)(البداية والنهاية لِ ابن كثير)– ج ٣ ص ٢٢٤ نقلا عن «بنو إسرائيل فى القرآن والسنة» لِ طنطاوى ص ١٣٨.

كان أول ما نُسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله عز وجلّ أن يستقبل بيت المقدس، ففرح اليهود، فاستقبلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -بضعة عشر شهرا، فكان رسول الله- صلى الله عليه وسلم - يحب قبلة إبراهيم- عليه السلام- فكان يدعو وينظر إلى السماء.

فأنزل الله تبارك وتعالى : «قد نرى تقلب وجهك فى السماء».. إلى قوله : "فولوا وجوهكم شطره " (البقرة ١٤٤)

فارتاب من ذلك اليهود وقالوا : " ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟! فأنزل الله عزّ وجلّ:

"قل لله المشرق والمغرب" وقال : " فأينما تولوا فثم وجه الله" .(٦)

وهناك مصدر آخر يؤكده :

(عن ابن عباس، كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله - ص- لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود ف أمره الله أن يستقبل بيت المقدس فَ فرحت اليهود فاستقبلها رسول الله - ص - بضعة عشر شهرا وكان يُحّب قبلة إبراهيم ف كان يدعو الله وينظر إلى السماء ف أنزل الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء)(٧)

هذا الخبر الذى حملته إلينا مصادر من الوزن الثقيل صريح فى أن "الصادق المصدوق" ما إن وطئت قدماه الشريفتان أرض يثرب وأحيط علماً بِ مكانة يهود فيها أخذ يوادع يهوداً وطرح المبادرات التى ذكرناها ويأتى فى مقدمها أنه استقبل قبلتهم فى الصلاة وتحول صوب بيت المقدس وظل عليها ثمانية عشر شهراً.

إبانها لم يبادل أولاد يعقوب "البشير النذير" موادعة بِ موادعة أو وداداً مقابل وداد، ولم يدخلوا الديانة التى بشرهم بها بل ادعوا فى صلف أنهم الأصل والجرثومة والأس، وجادلوه فأكثروا، وحاوروه فأطالوا، وناقشوه ف أبعدوا، ولم يكتفوا بل لجأوا إلى الدسائس وما هو أوعر، والمؤامرات وما هو أشنع، والمكائد وما هو أفظع ، وأثبتوا أنهم يستحقون اللقب الذى

---

(٦) (المقبول من أسباب النزول). تأليف : الدكتور / أبو عمر نادى بن محمود حسن الأزهرى

(٧) (التيسير - خلاصة تفسير ابن كثير)- ت ٧٧٤ هـ ب قلم الشيخ محمود محمد سالم- الجزء الأول - ص ٦٧- الناشر : دار الشعب - مصر

وسمهم أو وصمهم به آخر البطاركة الأكابر عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم "أولاد الأفاعى".

❖ ❖ ❖

تيقن "سيد ولد قُصَىّ" أنه لا فائدة من بنى إسرائيل فَ لا هم سيتركون عقيدتهم ويسلمون ولا سيكفون عن مسلكهم الأثيم وأفعالهم وممارساتهم الدنيئة، وغدت متابعتهم على قبلتهم أو الاقتداء بهم فى التولية نحو بيت المقدس والتأسى بهم فى التوجه صوب إيلياء غير مجدية، خاصة أن الذرية المباركة ل بنى يعرب بن يشجب لم تسترح نفسياتها ولم تطمئن صدورها ولم تهدأ قلوبها من جرائه، فغدا من الضرورى ترك قبلة أولاد الأفاعى واستقبال الكعبة إرث إبراهيم كبير البطاركة وحامل لوائهم وإسماعيل أبى العرب المستعربة... وهنا أصبح شروق آية تقضى على طقس الاتجاه نحو بيت المقدس وتأمر ب استقبال القبلة الحبيبة حتماً لازماً وحاجة ملحة.

وهذا ما نقلته إلينا كتب "أسباب النزول".

(عن أبى إسحق عن البراء قال : كان رسول الله - ص - يصلى نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله فَ أنزل الله "قد نرى تقلب وجهك فى السماء ...)(٨)

وهنا نرى واجباً علينا أن نلفت نظر القارئ إلى مسألة على درجة خطيرة من الأهمية وبدون فهمها يظل استيعابه لِ مضمون كتابنا هذا غائما ويغدو إدراكه لِ طروحاته مشوشاً وتصبح معرفته بِ مراميه مُضبّبة وهى الانتباه إلى كلمة أو عبارة "فَ أنزل الله" إذ إنها تصبغ النص "الآية" ب صبغة تعاقبية للنازلة أو الواقعة أو المسرودة التى هلّت بِ سببها، وبِ معنى أوضح التى شكلّت علة بزوغها أو ظهورها، لأن الفاء فى "فَ أنزل الله" إما هى فاء السببية ف تمسى هى ال ما صدق لما طرحناه، وإما هى للتعاقب مثل توضأت ف صليت وهنا نوثق ما رقمناه من قبل أن النص أو الآية ترسخت على التاريخ "تاريخ الحدث" وانسابت مع مسيله الزمنى

---

(٨) (لباب النقول فى أسباب النزول) ل السيوطى - ص ١٩ طبعة ١٣٨٢هـ كتاب التحرير - ٢ دار الشعب ب مصر.

وعامت فى نهره وسبحت فى تياره.

ولك أن تختار أى الوجهين: السببية أو التعاقب، فكلاهما يثبت أن النص أو الآية لا يتفكان عن سلسال التاريخ وحركة الزمن، ونأمل وضوح هذه النقطة الجوهرية، لِ أن حكمها يجرى على سائر الآيات أو النصوص التى سوف نسوقها فى الفصول القوادم.

❖ ❖ ❖

وساهمت كتب التفسير سنية أو معتزلية "نسبة إلى المعتزلة" تراثية أو حديثة فى تأسيس ما سلف:

(كان رسول الله - ص - يتوقع من ربه أن يحول القبلة إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم وأدعى ل العرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ولِ مخالفة اليهود فَ كان يراعى جبريل- س - والوحى بِ التحويل).(٩)

وإذ إن صاحب الكشاف "الزمخشرى" من المعتزلة الذين ينعتون بِ أنهم (فرسان العقل) لذا نجده يذكر أن (سيد الحاضر- والبادى) توقع من ربه أن يحوّل القبلة إلى الكعبة لأن لفظه (يتوقع) أبلغ فى الدلالة من الكلمة التى خطها زميله السنى ابن جزّى الكلبى "رجاء" ف فى فقه اللغة الرجاء أضعف من التوقع ب ما لا يقاس، لأن من يتوقع لديه قدر من اليقين على تشيؤ أو تموضع ما يتوقعه بخلاف من يترجّى: (كان النبى - ص - يرفع رأسه إلى السماء رجاء أن يؤمر ب الصلاة إلى الكعبة).(١٠)

❖ ❖ ❖

من أحدث التفاسير التى ظهرت "تفسير القرآن الكريم" ل عبد الله محمود شحاته، ومثل ضروبه من كتب التفسير الحديثة توكأ على القدامى أو السلف، بيد أننا نورد ما نقشه فى شأن تفسير آية تحويل القبلة لأنه جاء ب عبارات تؤكد ما وضعناه عنواناً ل هذا الفصل وهو إشراق آيات تحقيقاً ل رغبة القائد، بل إن شحاته استخدم لفظاً أكثر جرأة، فهو يؤكد أن آية التحويل هلّت علينا بطلعتها المضيئة إجابة لما طلب (صاحب الخاتَم) وتلبية لما سأل:

---

(٩)(الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل) ل أبى القاسم جار الله الزمخشرى ٤٦٧-٥٣٨هـ - طبعة دار المعرفة- بيروت.

(١٠) (التسهيل ل علوم التنزيل) لمحمد بن جزّى الكلبى- نشر دار الكتاب العربى- بيروت.

(قد رأيناك تتجه ب وجهك إلى السماء دائما تصرفه فى أرجائها مردداً بصرك فى ضراعة ورجاء تطلعاً ل الوحى ب تحويل القبلة إلى الكعبة وها نحن قد أجبناك إلى ما طلبت وأعطيناك ما سألت ووجهناك إلى قبلة تحبها وتميل إليها ..)(١١)

هذا هو المثل الأول الذى وضعناه فى يد القارئ للآيات التى تهادت بناء على تطلع أو رغبة أو تشوق "المخصوص ب المجد" وقد رأينا و س نرى فيما يتلوه أن الاستجابة لا تتأخر والتلبية لا تتوانى وتحقيق الطلب أو الرجاء لا يغيب.



{٦}

زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى- صحبته أمه سعدى ل زيارة قومها ف أغارت عليهم خيل ل بنى القين بن جسر ف احتملوه وهو غلام يفعة ف أتوا به سوق عكاظ ف عرضوه ل البيع ف اشتراه حكيم بن حزام ل عمته خديجة ب أربعمائة درهم ف لما نكحت " مقدم بنى هاشم" وهبته له ف بحث عنه أبوه حارثة حتى أخبره حاج بنى كلب أنه ب مكة ف خرج هو وأخوه كعب ل فدائه وطلبوا من "أبى القاسم" أن يمن عليهم ويحسن فى فدائه ف عرض عليهم أن يخيّروا زيداً فإن اختارهم دفعه لهم ب غير فداء ف اختار "الحبيب المصطفى" عليهما ف رداً على ذلك أعلن أن زيداً ابنه يرث أحدهما الآخر ومن ذياك الوقت دعى (زيد بن محمد) وبعدها قال له: يا زيد أنت مولاى ومنى وأحب الناس إلىّ، وقال ابن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد.

ومن حبه له زوجه ثلاث قرشيات هن: أم كلثوم بنت عقبة، ودرة بنت أبى لهب، وهند بنت العوام أخت الزبير.

ثم أنكحه زينب بنت جحش وهى نصف قرشية، ل أن أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة "أول شافع ومشفع".(١٢)

---

(١١) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله محمود شحاته- الطبعة الأولى ٢٠٠٠- الناشر دار غريب - الفجالة- القاهرة.

(١٢) ب اختصار وتصرف من كتاب "الإصابة فى تمييز الصحابة" للحافظ شيخ الإسلام وقاضى القضاة أبى الفضل شهاب الدين- المشهور بابن حجر العسقلانى - ٧٧٢هـ/ ٨٥٢هـ - تحقيق طه عبد الرؤوف سعد- ص ٢٢ وما بعدها المجلد الثالث - بدون تاريخ- الناشر: دار الغد العربى ب مصر.

ونضيف أن قبيلة "كلب" من بين القبائل التى انتشرت فيها النصرانية قبل الإسلام.

❖ ❖ ❖

عن الشعبى قال:

(مرض زيد بن حارثة ف دخل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وزينب ابنة جحش امرأته عند رأسه ف قامت ل بعض شأنها ف نظر إليها رسول الله - ص - "كذا" ثم طأطأ رأسه ف قال : سبحان الله مقلب القلوب والأبصار ف قال زيد أطلقها لك يا رسول الله ؟ ف قال : لأ، ف أنزل الله عز وجلّ: (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه: إلى قوله: " وكان أمر الله مفعولاً ".(١٣)

يصف المحققان "سيرة ابن إسحق ب الآتى:

أعظم الكتب التى عنيت ب سيرة أعظم العظماء - ص- ومن أقدم كتب السيرة الجامعة وأهمها .. ومن أوائل أمهات المراجع وأهمها فى السيرة النبوية العطرة.(١٤)

ولقد عول عليه أبو محمد عبد الملك بن هشام فى مصنفه المشهور ب "سيرة ابن هشام" والذى يعتبر ذروة سنام السير.

وأبرز المحققان المكانة العلمية السامقة ل ابن إسحق، ف هو ثبت فى الحديث عند أكثر العلماء ولا تجهل إمامته فى المغازى والسير ثم أوردا ثناء كبار العلماء عليه منهم الزهرى والبخارى والشافعى وشعبة بن الحجاج، وأضافا أن كلاً من يحيى بن معين والإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان وثقوه واحتجوا بحديثه. (١٥)

وذكرنا ل مكان محمد بن إسحق العلمية ول مقام سيرته مآبه قطع الطريق على أى طعن على ما أورده فى شأن خبر زينب بنت جحش.

❖ ❖ ❖

لم ينفرد ابن إسحق بل ساقه موثقاً عدد من أصحاب الأسماء اللوامع

---

(١٣) (السيرة النبوية) ل ابن إسحق تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وبدوى طه بدوى - (المجلد الأول) - ص ٢٢٩- الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م الناشر: القطاع الثقافى ب دار أخبار اليوم - القاهرة.

(١٤) المصدر ذاته - ص ٤.

(١٥) ذات المصدر ص ١١.

فى سماء العلوم الإسلامية : إخباريين، مؤرخين، مفسرين.

رقم الإمام الإخبارى النسابة أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمى المتوفى سنة ٢٤٥هـ فى مصنفه الذائع الصيت "المجبر" ما يلى:

(ثم تزوج - ص- زينب بنت جحش.. وكانت قبله عند زيد بن حارثة الكلبى مولى رسول الله -ص- وكان سبب تزويجها أن النبى -ص- أتى زيداً ذات يوم ف وقف على بابه ثم نادى زيداً. فَ نظر إلى زينب وعليها قميص لها مردع ب الزعفران ف وقعت فى نفسه فَ قال سبحان مقلب القلوب- ثلاثاً، ف سمعه زيد وهو يتوضأ ف عرف أنها وقعت فى نفسه ف خرج زيد إلى النبى -ص- ف مكث أياما ثم قال : يا رسول الله أنا أطلق زينب، قال: ولم؟ قال قد ساء خلقها وآذتنى ب لسانها ف قال : اتق الله وأمسك عليك زوجك، فَ طلقها فَ تزوجها النبى-ص- وفيها أنزل الله تبارك وتعالى (وإذ تقول.. إلى آخر الآية). (١٦)

وقد قال محقق الكتاب عنه " أما عن كلام علماء الجرح والتعديل عن ابن حبيب وحكمهم على تلقى العلوم عنه من ناحية القبول أو الرد أو التوقف فيها فقد قال جماعة إنه ثقة حافظ ، وقال آخرون إنه صدوق وهى درجة تجعلنا نطمئن لما يروى لنا من أخبار عن الثقات من طريقه هو" .(١٧)

وأضاف أنه ألف اثنين وأربعين كتاباً منها ما هو فى القرآن والحديث.

❖ ❖ ❖

أجمعت أمة لا إله إلا الله أن صحيح البخارى هو أصح كتاب بعد القرآن العظيم وقد جاء فيه:

(عن أنس بن مالك- رضى الله عنه - أن هذه الآية : «وتخفى فى نفسك ما الله مبديه»..

نزلت فى زينب ابنة جحش وزيد بن حارثة.(١٨)



أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبرى فقيه صاحب مذهب ولكن لم

(١٦) "المحبّر" ل أبى جعفر بن حبيب- تحقيق سيد كسروى ص ١٠٨ طبعة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م - الناشر: دار الغد العربى / مصر.

(١٧) ذات المصدر ص ١٦.

(١٨) صحيح البخارى - كتاب التفسير.

يجـد من ينشـره فـانـدثر وغـدا من المذاهب الدارسـة التى تقـرب من العشرين، كما أنه مفسر عظيم وكتابه فى التفسيـر يعد عمدة فى هذا العلم ومـؤرخ ثبت ومـؤلفـه "تاريخ الرسل والملوك" المعـروف ب (تاريخ الطبرى) لا يشق له غبار ويعتبر مقدم كتب التاريخ الإسلامى ومثله من المستحيل أن تحمل مصنفاته أخباراً غير صحيحة أو مشكوكا فيها وقد نقل إلينا بشأن زينب وزيد الخبر الآتى:

(... عن محمد بن يحيى بن حسان قال:

جاء رسـول الله - ص- بيت زيد بن حارثة وكـان زيد إنما يقـال له زيد بن محمد، ربما فقده رسول الله-ص- الساعة فـ يقول: أين زيد؟ فـ جاء منزله يطلبـه فـ لم يجـده، فـ قامت إليـه زينب بنت جحش فُضُـلا "بضم الفـاء والضـاد" فـ أعرض عنهـا رسـول الله -ص- فـ قـالت : ليس هو ها هنـا يا رسـول الله فـادخل ب أبى أنت وأمى فـ أبى رسـول الله -ص- أن يدخل وإنما عجلت زينب أن تلبس إذ قيل لها رسول الله -ص- على الباب، فـ أعجبت رسـول الله -ص- فـ ولى وهو يهمهم ب شىء لا يكاد يفهم إلا أنه أعلن : سبحان الله العظيم، سبحان الله مصرف القلوب!

قال : فـ جاء زيد إلى منزله فـ أخبرته امرأته أن رسول الله -ص- أتى إلى منزله، فـ قال زيد: ألا قلت له: ادخل؟! فـ قـالت : قد عـرضت عليـه ذلك فـ أبى ، قال: فـ سمعته يقول شيئاً؟ قالت: سمعته يقول حين ولى: سبحـان الله العظيم سبحـان الله مصرف القلوب، فـ خرج زيد حتى أتى رسـول الله -ص- فـ قـال: يا رسـول الله بلغنى أنك جـئت منزلى فـ هلا دخلت ب أبى أنت وأمى.

يا رسـول الله، لعل زينب أعجبتك فـأفارقهـا! فـ قال رسـول الله-ص- أمسك عليك زوجك- فـ مـا استطاع زيد إليها سبيلاً فـ كان يأتى رسـول الله -ص- فـ يخبـره فـ يقـول له رسـول الله -ص- أمسك عليك زوجك- فـ فارقها زيد واعتزلها وحلّت.

فـ بينا رسول الله -ص- يتحدث مع عائشة إذ أخذت رسول الله -ص- غشيـة فـ سرى عنه وهـو يبتـسم ويقـول : من يذهب إلى زينب يبشـرهـا، يقـول إن الله زوجنيهـا؟ وتلا رسـول الله -ص- : "وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك...) القصة كلها.

قالت عائشة: ف أخذنى ما قرب وما بعد لما بلغنا من جمالها وأخرى هى أعظم الأمور وأشرفها ما صنع الله بها زوجها ف قلت تفخر علينا بها.

قالت عائشة : ف خرجت سلمى خادم رسول الله -ص- تخبرها ب ذلك ف أعطتها أوضاحاً عليها).(١٩)

وفى الهامش امرأة فُضُل أى تلبس ثوباً واحداً.

والأوضاح: جمع وضح وهو حلى من فضة.

ثم سرد الطبرى رواية لا يند مضمونها عن هذه.

ومما هو جدير ب الذكر أن عائشة فى ذلك الوقت لم تجاوز الثالثة عشرة.



آن الأوان ل المفسرين كيما يطلعونا على ما سطروه فى هذه الخصوصية ومنعاً ل الإطالة ودرءا ل الإملال وتجنباً للسأم فإننا نكتفى ب ثلاثة منهم وقطعاً لطريق المشاكسة فقد اخترناهم من القمم الشوامخ والذرى السوامق والقُلل العوالى.

أ- الإمام ناصر الدين البيضاوى:

(أمسك عليك زوجك زينب وذلك أنه -ص- أبصرها بعدما أنكحها إياه ف وقعت فى نفسه ف قال سبحان الله مقلب القلوب وسمعت زينب ب التسبيحة ف ذكرت ل زيد ف فطن ذلك ووقع فى نفسه كراهة صحبتها ف أتى النبى- ص- وقال: أريد أن أفارق صاحبتى، ف قال: مالك أرابك منها شىء؟ قال لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ولكن ل شرفها تتعظم على، ف قال له أمسك عليك زوجك واتق الله فى أمرها ف لا تطلقها ضرارا لها وتعللاً ب تكبرها وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ونكاحها إن طلقها وإرادة طلاقها).(٢٠)

نرى المفسر البيضاوى يذهب إلى أن ما أخفى فى النفس هو إرادة طلاق زينب من زيد لنكاحها بيد أنه سيظهر أو يبدو أو سيعلن وهو ما جاء فى الآية بعد "زوجناكها" وهو تحقيق ل الرغبة الكامنة والمدسوسة فى

(١٩) (تاريخ الطبرى) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- الجزء الثانى ص ص ٥٦٢/٥٦٣- الطبعة السادسة ١٩٩٠م - دار المعارف ب مصر.

(٢٠) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوى) ل الإمام ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازى البيضاوى- دون تاريخ نشر- دار الفكر دون ذكر البلد.

حنايا الصدر وفى داخل النفس.

ب- الإمام فخر الدين الرازى:

(وتخفى فى نفسك ما الله مبديه" من أنك تريد التزوج ب زينب)(٢١.)

والفخر الرازى من أعلام المفسرين وكتابه (مفاتيح الغيب) موسوعة فى التفسير حتى اشتهر ب « التفسير الكبير».

وهو يؤكد أن إرادة نكاح زينب دون غيرها هى مقصود ما نص عليه «وتخفى فى نفسك ما الله مبديه» وهو عين ما خلص إليه البيضاوى فى أنواره.

وهذا أفحم رد على جوق الطبالين الذى يلوون أعناق الآية ويزعمون على خلاف السياق وما تقضى به ضرورات اللغة العربية هو أن المقصود به الخوف من مخالفة العرف الراسخ آن ذاك وهو تحريم نكاح الأب لمنكوحة ابنه بالتبنى تماما مثل تحريم زواجه ب حليلة ابنه الصلبى التى دخل بها وعاشرها.

ج- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى:

(اختلف الناس فى تأويل هذه الآية ف ذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين منهم الطبرى وغيره إلى أن النبى -ص- وقع منه استحسان ل زينب بنت جحش وهى فى عصمة زيد وكان حريصاً على أن يطلقها زيد فَ يتزوجها هو، ثم إن زيداً لما أخبره ب أنه يريد فراقها ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر وأذى بِ اللسان وتعظيماً بالشرف قال له : اتق الله- أى فيما تقول- وأمسك عليك زوجك وهو يخفى الحرص على طلاق زيد إياها وهذا الذى كان يخفى فى نفسه ولكنه لزم ما يجب من الأمر ب المعروف.

وقال مقاتل: زوج النبى -ص- زينب بنت جحش من زيد فَ مكثت عنده حيناً ثم إنه عليه السلام أتى زيداً يوما يطلبه فَ أبصر زينب قائمة وكانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش فَ هويها وقال : سبحان مقلب القلوب فَ سمعت زينب بِ التسبيحة فَ ذكرتها ل زيد فَ فطن زيد فَ قال: يا رسول الله إئذن لىَ فى طلاقها فَ إن فيها كبراً تتعظّم على

---

(٢١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير) للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى ٥٤٤/٦٠٦هـ المجلد الثانى عشر الطبعة الأولى ١٩٩٢/ ١٤١٢هـ الناشر : دار الغد العربى/ مصر.

وتؤذينى ب لسانها، فَ قال عليه السلام: أمسك عليك زوجك واتق الله.

وقيل : إن الله بعث ريحا ف رفعت الستر وزينب متفضّلة فى منزلها فَ رأى زينب فَ وقعت فى نفسه ووقع فى نفس زينب أنها وقعت فى نفس النبى-ص- وذلك لما جاء يطلب زيداً ف جاء زيد ف أخبرته ب ذلك فوقع فى نفس زيد أن يطلقها.

وقال ابن عباس"وتخفى فى نفسك" الحب لها، و " وتخشى الناس؛ أى تستحييهم وقيل تخاف وتكره لأئمة المسلمين لو قلت طلقها ويقولون أمر رجلاً ب طلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها).(٢٢)



هذه الفقرة - على طولها- ثَرّة ب الدلالات حتى إنها فى غُنية عن أى تعليق وليست فى حوجة ل تحليل ف عبارات مثل: .. وكان حريصاً على أن يطلقها زيد فَ يتزوجها .. وهو يخفى الحرص على طلاق زيد إياها وهذا الذى كان يخفى فى نفسه.. وكانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش ف هويها.. ف وقعت فى نفسه ووقع فى نفس زينب أنها وقعت فى نفسه.. وتخفى فى نفسك.. الحب لها.. وتكره لأئمة المسلمين لو قلت "أى ل زيد" طلقها ويقولون أمر رجلاً ب طلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها .. إلخ. صريحة النص والدلالة معاً على أن "زوجناكها" تحقيق لإرادته نكاحها.



أما الذى جاء فى السياق (... ووقع فى نفس زينب أنها وقعت فى نفس النبى -ص- فيؤكده وغيره مما قرأناه فى سائر الأخبار من أقوال بنت جحش ل زيد بن محمد "حتى ذياك الحين" عن واقعة زيارة "أعظم الكائنات "َ ل منزلهما وإحاطة زوجها (الذى) امتعضت هى ورهطها من زواجه إياها ثم أذعنت وإياهم بعد أن تلا "أبو القاسم" عليهم آية حاسمة تأمرهم ب الامتثال" ب العبارات التى سمعتها من الزائر العظيم عند انصرافه خاصة "سبحان مقلب القلوب" ودلالتها لا تستبهم على زيد..

(٢٢) (الجامع ل أحكام القرآن) المشهور ب تفسير القرطبى ل أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، المجلد الثامن - كتاب الشعب ب مصر.

نقول يؤكده أن ابنة جحش تشوّفت منذ بَدىّ الوقائع إلى نكاح "ذؤابة ولد إسماعيل":

(وأخرج الطبرانى ب سند صحيح عن قتادة قال: خطب النبى -ص- زينب وهو يريدها ل زيد فَ ظنت أنه يريدها لِ نفسه ف لما علمت أنه يريدها لِ زيد أبت ف أنزل الله " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم" الآية ٣٦ من سورة الأحزاب).(٢٣)

إن ما نهدف إلى توضيحه هو أن موقف زينب بعيد عن السلبية بل إنها ساهمت ب قدر ملحوظ فى إيقاع الطلاق من قبل زيد ل تحل لنكاح "أول من يفيق من الصعقة" وتحقق حلمها القديم وتحظى ب هذا الشرف الباذخ وتحمل اللقب المنيف "أم المؤمنين" الذى يحلى جيد من هن أقل منها جمالاً وحسناً وبهاءً وأخفض منها حسباً ونسباً.



وسواء لقى هذا التحليل القبول أم أبدى القارئ عليه تحفظاً أو أكثر، ف الثابت أنه بعد تمام ما حدث هلت آية كريمة "... زوجناكها" حققت رغبة "المزمل" ووفت ب منيته وموضعت طِلبته على أرض الواقع.

وهذا الملحظ الدقيق أدركته التيمية ابنة أبى بكر وصرحت به علانية ولا يتاح ل غيرها لا من الزوجات ولا حتى من أكابر الصحابة أن يفعله معتمدة على قسامتها وحلاوتها وصغر سنها وحبه الشديد إياها:(...حدثنا أبو أسامة قال هشام حدثنا أبيه عن عائشة- رضى- قالت: كنت أغار على اللآتى وهبن أنفسهن ل رسول الله -ص- وأقول أتهب المرأة نفسها؟ ف لما أنزل الله تعالى "ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت ف لا جناح عليك" قلت ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك".(٢٤)



(٢٣) (لباب النقول فى أسباب النزول) ل السيوطى ص ١٣٩- طبعة ١٣٨٢هـ كتاب التحرير - مصر.
(٢٤) (صحيح البخارى) كتاب التفسير.

على هامش ذلك الخبر ب رواياته المتعددة وب مصادره الغزيرة تسيل بعض الحواشى أو التعليقات ال شديدة الآصرة به:

أولا: مقام المفسرين الثلاثة ومكانة مؤلفاتهم كما رقمها الشهيد الشيخ محمد حسين الذهبى - عطر الله مرقده:

أ- الرازى ومفاتيح الغيب:

(.. كان رحمه الله فريد عصره ومتكلم زمانه، جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها، ف كان إماماً فى التفسير والكلام والعلوم العقلية وعلوم اللغة، ولقد أكسبه نبوغه العلمى شهرة عظيمة ف كان العلماء يقصدونه من البلاد ويشدون إليه الرحال من مختلف الأقطار...

وإن تفسير الرازى لَ يحظى ب شهرة واسعة بين العلماء وذلك ل أنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير ب الأبحاث الفياضة الواسعة فى نواح شتى من العلم. (٢٥)

ب- قاضى القضاة البيضاوى وأنوار التنزيل:

... صاحب المصنفات وعالم أذربيجان وشيخ تلك الناحية.

وقال السبكى : كان إماماً نظاراً خيراً صالحاً متعبداً.

تفسير العلامة البيضاوى، تفسير متوسط الحجم جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل على مقتضى قواعد اللغة العربية وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة.(٢٦)

ج- الإمام القرطبى والجامع ل أحكام القرآن:

... كان رحمه الله من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الزاهدين فى الدنيا، المشغولين ب ما يعنيهم من الأمور الآخرة...

وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير ف قال : هو من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعا أسقط منه القصص والتواريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ).(٢٧)



(٢٥) (التفسير والمفسرون) ل محمد حسين الذهبى- الجزء الأول- ص ص ٢٧٨/ ٢٧٩- الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م - مكتبة وهبة / ب مصر.

(٢٦) المصدر ذاته والجزء نفسه ص ص ٢٨٢/٢٨٣.

(٢٧) المصدر ذاته - الجزء الثانى ص ص ٤٣٧/٤٣٨.

مؤلف كتاب (التفسير والمفسرون) هو الشيخ محمد حسين الذهبى أستاذ علوم القرآن والحديث ب كلية الشريعة- جامعة الأزهر وتولى فى ما بعد منصب وزير الأوقاف فى عهد الرئيس السادات وقامت ب تصفيته جسدياً بطريقة دامية إحدى الجماعات المتطرفة ل تصديه للإرهاب- رحمه الله وأنزله منازل الشهداء.

وكتابه المذكور من أميز المؤلفات الحديثة فى بابه شمولاً وعمقاً وغزارة مادة وإحاطة ب الموضوع منذ عصر الصحابة حتى الأستاذ الإمام محمد عبده وتبعه الشيخ محمد رشيد رضا.

ولعل القارئ بعد جماع ما قدمه الذهبى فى حق المفسرين الثلاثة ومؤلفاتهم اطمأن قلبه وهدأ فؤاده وثلج صدره ل الأخبار التى نفحنا بها أولئك العلماء الأماثل والأئمة الأفذاذ والشيوخ الكُمّل، إذ يستحيل دينا ويستبعد عقلاً ويتعذر منطقاً أن أمثالهم يتورطون فى سرد وقائع مكذوبة أو طرح أحداث منحولة أو ذكر نوازل زيوف.

وإذا نسب واحد من المتشنجين لأى منهم ضعفاً فى النقل أو وهناً فى الاستقراء أو هُزالاً فى الاستنباط أو تخليطاً فى التخريج أو رَبكاً فى الاستنتاج ف هذا ليس طعناً فيهم ف حسب ولكنه ب مثابة هدم للتراث الفكرى الإسلامى ب رمته.



ثانياً: اختلاف روايات الخبر هل هو علة قادحة؟

يمتاز التاريخ الإسلامى خاصة فى الفترة الباكرة ب الاختلاف البيّن سواء فى أسماء الأشخاص أو فى رواية الأحداث ومرده إلى الأمية التى هيمنت على الأفراد وجهلهم ب التدوين كما درجت عليه الأمم المتحضرة مثل مصر القديمة ولا يعنى ذلك كذباً أو اختلاقاً أو تزويراً.

ضَربَ هذا التباين كافة المناحى واذ إن السيرة المحمدية العظيمة هى البدء الحقيقى ل مسيرة التاريخ الإسلامى ف نلفى أنه رافقها منذ فاتحتها، ف مثلاً أولاده الذكور من خديجة هل هم القاسم وعبد الله والطيب والطاهر أم هما اثنان القاسم (وبه كنى) وعبد الله الذى لقب ب الطيب والطاهر؟

وبعد وفاة خديجة هل تزوج فى مكة قبل نزوحه إلى يثرب اثنتين هما سودة بنت زمعة والتيمية عائشة بنت أبى أبى قحافة أم ثلاثاً أضاف إليهما غزية بنت دودان ابن عوف؟

أما عندما عَدَن فى أثرب فعدد وأسماء من تزوجهن وخَطَبَهن وفارقهن ب خلاف التسع المشهورات لا يعلمه إلا الله وحده لا بسبب الكثرة وإنما مآبه ل اختلاف كتاب السيرة المعطاءة والمؤرخين والإخباريين ب شأنهن.

وذات الأمر مع غزواته وسراياه وتواريخها وترتيبها وعددها وأسامى من استخلفهم على قرية أثرب عند خروجه وأعداد من رافقه فى كل منها سواء من النازحين (المهاجرين) أو من بنى قيلة "اليثاربة أو الأنصار" وأمراء السرايا وعدد القتلى إن من تبعه أو من عدوه والغنائم التى ظفروا بها والمدة التى استغرقتها كل واحدة منها بداهة باستثناء الغزوات ذات الصيت المدوى مثل بدر وأحد والخندق وتبوك علماً بأنها لم تفلت من الاختلاف فى الجوانب الفرعية وإن اتسمت ب قدر من الأهمية مثل عدد المقاتلين والفارين. (٢٨)

كذا وقع عدم اتفاق على الأسماء حتى ل بعض كبار الأصحاب وأشهرهم فى هذا المجال أبو ذر الغفارى فقد أغدقت عليه "كتب الصحابة" مثل "أسد الغابة والاستيعاب والإصابة" عدة أسماء ، وما توافقت عليه فحسب هو كنيته : "أبو ذر الغفارى" الزاهد المشهور الصادق اللهجة- مختلف فى اسمه واسم أبيه والمشهور أنه جندب بن جنادة بن سكن وقيل ابن عبد الله وقيل اسمه برير وقيل ب التصغير، والاختلاف فى أبيه كذلك إلا فى السكن قيل: يزيد وعرفه وقيل اسمه هو السكن بن جنادة بن بياض . .. إلخ).(٢٩)



إن الاختلاف وصل إلى بعض سور الذكر الحكيم من ناحية تواريخ وأمكنة شروقها ووصل إلى سورة الفاتحة ذاتها وهى أم الكتاب، فقال بعضهم إنها مكية والآخر إنها مدنية، وحتى يحل هذا الإشكال ذكر ثالث

---

(٢٨) "نفر من كبار الصحبة أطلقوا لأرجلهم عنان الفرار فى بعض الغزوات فى مقدمها أحد وحنين واعترف العدوى عمرو بن الخطاب ب أنه ارتكبه يوم أحد» ا.ه.).

(٢٩) (الإصابة) المجلد السابع – ص ١٥٥.

أنها نزلت مرتين أى ب قرية القداسة أولاً ثم ب يثرب، ورابع طلع علينا ب رأى فى غاية الظرافة إذ قسمها شطرين أولهما ب بكة والآخر هلّ ب أثرب (... وذهب قوم إلى أن الفاتحة مدنية وقال آخرون نزلت مرتين وقال بعضهم نزل نصفها ب مكة ونصفها ب المدينة، وقال أبو الحسن الحصار فى كتابه "الناسخ والمنسوخ" المدنى عشرون سورة ونظمها مع السور المختلف فيها). (٣٠)

ونشد بصر وبصيرة القارئ إلى ما تضمنه عجز الفقرة "ونظمها فى السور المختلف فيها" وهو شأن معروف لمن لدنه أدنى ذرة أو مُسكة فى علوم القرآن وأقرب كتابين متاحين للقارئ هما "الإتقان" لِ السيوطى و "البرهان" لِ الزركشى.

❖ ❖ ❖

نخلص من جماع ما وضعناه تحت أعين القراء أن اختلاف روايات الخبر بخاصة حوادث الفجر ووقائع المبتدأ ونوازل المفتحح لا يشكّل علة تقدح فى الخبر ولا عيباً يفسده ولا منقصة تشينه، ولو اتخذنا الاتفاق مقياساً للصحة ومعياراً للصدق وميزاناً ل الاطمئنان إليه ل انهارت مئات بل ألوف الأخبار والآثار التى هى بِ مثابة ركيزة التراث الفكرى الإسلامى.

❖ ❖ ❖

ثالثا: التدرج فى تحريم الربا والخمر والفورية فى تحريم التبنى:

اتخذ القرآن المجيد منهجاً سديداً فى تحريم عادتين متأصلتين فى المجتمع آن ذاك هما الربا ومعاقرة الخندريس "شرب الخمر" على الوجه الآتى:

أ- تحريم الربا:

فى البدئ «وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فَ أولئك هم المضعفون).(٣١)

ف هنا لم يأت حكم فى الربا بل توجيه الى الفرق بينه وبين الزكاة فهى

---

(٣٠) (التحبير) ل السيوطى ص ٤٣ سابق.

(٣١) سورة الروم - الآية التاسعة والثلاثون.

تتضاعف وتزيد إذا أريد بها وجه الله تعالى فى حين هو "= الربا" على النقيض.

ثم تشرق آية كريمة أخرى فى ذات المَحجة (فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً. وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس ب الباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما).(٣٢)

هاتان الآيتان الكريمتان لم تحظرا الربا إنما سارتا شوطا ملحوظا فى درب تحريمه ف قامتا ب تبشيعه فهو صد عن سبيل الله وظلم وأكل أموال الناس ب الباطل ومن يستحله ف جزاؤه عذاب أليم.

ثم تضىء آية النهى " يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون). (٣٣)

ثم طلعت آيتان حاسمتان لا تدعان مجالاً لأى شك فى التحريم : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ...). (٣٤)

وبعدها غدا الربا حراماً على تبع "الأمين المأمون»



ب- تحريم الخمر:

عموما شربا وبيعاً وشراءً، بيد أننا ذكرنا المعاقرة لأنها الأصل الذى يتفرع عنه سائر الأفعال ف لولا الإقبال على المزّة لما دارت حولها تجارة أو خدمة.

فى أول الأمر نهى القرآن الكريم الصحابة عن الصلاة فى حالة السكر لأن واحداً من المقدّمين أمّ نفراً منهم وخربق فى تلاوة سورة "الكافرون" فظهرت الآية الكريمة (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون).(٣٥)

---

(٣٢) سورة النساء الآية الستون بعد المائة والآية الواحدة والستون بعد المائة.

(٣٣) سورة آل عمران الآية الثلاثون بعد المائة.

(٣٤) سورة البقرة الآية الثامنة والسبعون بعد المائتين والتاسعة والسبعون بعد المائتين.

(٣٥) سورة النساء الآية الثالثة والأربعون.

والتى جاءت ب تحريم جزئى أو وقتى وهو عدم الاقتراب منها عند العزم على الصلاة.

يبدو أن البعض سأل "المزمل" عن الخمر والميسر معا فَ أجابت آية (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما). (٣٦)

ف ذكرت أن إثم احتساء القهوة (الخمر) كبير وكأنما هى وطّأت الطريق أمام آية التحريم كيما تقبل : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ف اجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون). (٣٧)

وما إن سمعها أحد متنفذى الصحاب حتى صاح : انتهينا يا رب، ومنذ تلك الساعة حُرّمت الخمر على المسلمين.



لماذا عدل القرآن المجيد عن منهجه التدرجى فى تحريمه للربا وللخمر واتخذ المنهج الفورى فى تحريم التبنى وما استتبع ذلك من رحلّية منكوحة الابن المتبنى (سورة الأحزاب) الذى حطم نسقاً اجتماعياً راسخاً فى مجتمع شبه جزيرة العرب؟

من الجائز وجود بصيص من النور يساعدنا على الإجابة الصحيحة على هذاالسؤال لو فى مقدورنا معرفة الفارق أو المسافة الزمنية بين تبغيض الربا والميسر والتحريم القاطع، بيد أنه يحول بيننا وبينه تعذر معرفة الترتيب التاريخى ل ظهور السور والآيات. والعمل الذى أنجزه نولدكه فى هذه الدائرة لم يترجم إلى اللغة العربية حتى الآن.

والأرجح فى مجال الرد على السؤال أن الربا ضفيرة من نسيج النظام الاقتصادى السائد آنذاك والذى يتمحور حول التجارة النشاط اليتيم فى أم القرى والمشارك فى قرية اليثاربة وأبناء يعقوب، فَ تحريمه دفعة واحدة سوف يصيب المعاملات المالية ب تصدعات غوائر ومن ثم فإن الحكمة استلزمت التدرج.



(٣٦) سورة البقرة الآية التاسعة عشرة بعد المائتين.

(٣٧) سورة المائدة – الآيتان التسعون والواحدة والتسعون.

أما من رجا "= ناحية وجمعها أرجاء" السلسبيل ف كتب التراث ب ما حملته من آثار ب شأنها تؤكد أنها تمكنت من كثير من الصحابة بل من بعض الأماثل إن من بنى قيلة اليثاربة أو من النازحين من قريش أم دونها من القبائل ومن ثم فإن تحريمها فجأة سوف يصيب نفوسهم ب الحبوط ومزاجهم ب العكر ووجدانهم ب الانقباض و "المنتصر" حرص على إرضائهم ودأب على مداراتهم وتوخى تأليف قلوبهم، وهذا أمر طبيعى بل بديهى لأنهم أعوانه المخلصون وشيعته المؤازرون وجنده المقاتلون ومن فجاج هذه الأرضية انفجرت علة التدرج فى تحريمها وغدا من الحتم اللازم تهيئة ذواتهم للحظر المقبل والنهى القريب والمنع الوشيك.



على نقيض ذياك جماعه فَ تحريم التبنى وإباحة الدخول ب منكوحة الابن الدعىّ فهو خفيض الشأن هزيل المنزلة نحيف الخطر ف لا يُحدث زلزلة فى سوق المال ودوائر التجارة ولا هو تمكن من النفوس أو تغلغل فى الوجدان أو تعمق فى الشعور الجمعى. ورغم الحوجة إلى إحصائية بِ عدد الأبناء الأدعياء ليغدو الحكم صحيحاً فَ إن ما تناثر من آثار بِ خصوصهم ينبئ بِ ضمور العدد.

ولعلنا: ب ذلك أفلحنا فى أن نلقم حجراً من يغمزون ويلمزون مباينة (الموعظة = القرآن) المنهاج الذى استقر عليه فى موضوع التبنى وزواج منكوحة الدعىّ ونذكرهم ب أن الذكر الحكيم حرم فوراً وأد البنات لأنه أيضا أمره هامشى فَ حالاته عوارض وحوادثه طوارئ ووقائعه خمائص.

رابعاً : شرف الكلبى بذكر اسمه فى (البلاغ / المبين) فى حين أنه خوى من ذكر اسم أو كنية أو لقب التيمىّ عتيق:

فى رحلة النزوح من مكة إلى أثرب رافق "خير من مشى على الأرض" التيمىّ ابن أبى قحافة واسمه عتيق وكنيته أبو بكر ولقبه الصدّيق ومكث معه فى غار ثور وسجلته آيات كريمة من القرآن المجيد، ولِ هذا يذهب الفقهاء إلى أن من ينكر صحبة أى واحد من الصحابة ف لاتثريب عليه إلا هو لأن عدم الاعتراف ب صحبته تكذيب لما ورد فى الذكر الحكيم- نعوذ

ب الله تعالى من ذلك.

بيد أن الآيات خلت من اسمه أو لقبه أو كنيته فى الوقت الذى نصت على اسم الدعىّ الكلبىّ أو الكلبىّ الدعىّ وهى مفارقة معجبة لعدة أمور منها :

أ- أن أبا بكر ولو أنه من فرع هزيل من قريش إلا أنه قرشى فى حين أن زيداً كلبى ولا وجه ل المقارنة بين قريش وكلب.

ب- أن الخدمات التى قدمها التيمى ل (المحمود فى السماء والأرض) ول الديانة التى بشر بها لا يقاس بها كل ما قدمه الكلبى، بل إن (الجامع ل أنواع الخير) نفح الأخير أى (=الكلبى) أفضالاً لا تقدر.

ج- أن رحلة النزوح علامة فارقة بل هى ذروة سنام العلامات الفوارق فى مسيرة الدين الذى دعا إليه "أحمد" ولا تعد منا مغالاة إذا رقمنا أنه لولاها ل تغير تاريخ جزيرة العرب.

وليس من الإنصاف فى شىء أن توضع فى رتبتها واقعة طلاق الكلبى ل ابنة جحش، بعد ان حدّس أن "سيد الأولين والآخرين" يريده وغبّ أن أوحت إليه (= إلى الكلبى زيد) زينب به. ما زال الاستفسار يحك قذاله "مؤخر رأسه" لأنه لم يتلق إجابة شافية أو حتى قطرة ماء يبل بها ريقه النشف.

من وجهة نظرنا أن الحرص من جانب (البشرى = القرآن) على تعيين الاسم وتحديده هو قطع الطريق على أى لبس أو شك فى أن الزوجة التى بشره ب نكاحها هى زينب بنت جحش دون غيرها لّ يحقق رغبته كما توصل إليه المفسرون الكُمّل والإخباريون الأثبات وكتاب السيرة المحمدية المعطار الذين ألمعنا إليهم.

فَ لو قال الذكر الحكيم "فلما قضى منها وطراً" أو « فلما قضى منها زوجها وطراً" ل تساءل أحدهم من الذى قضى منها وطراً؟ أو من هو ذلك الزوج؟ ولو تزوج "سيد ولد قصى" ابنة جحش دون هذا التحديد الدقيق ل أحدث ذياك النكاح ربكا وأوقع بلبلة وأثار اضطراباً فى مسألة على قدر وفير من الدقة ونصيب كبير من الحساسية وحظ غزير من الحروجة.

ونأمل أن يصح هذا التحليل ف هو نتاج مكث طويل على باب الموضوع ولبث مديد أمام الواقعة ووقوف متأن عند الخبر.

وبداهة فان للقارئ الحق فى قبول هذا التحليل أو ملاقاته ب نظرة زوراء، إنما الذى لا محاجّة فيه أن الكلبى نال شرفاً تقطعت دونه أعناق أكابر الصحاب وتشوف إليه أعاظمهم وتمنته ذؤابتهم وأنه جاء من (القصص/القرآن) مكافأة له جزاء وفاقاً على إقدامه على فراق الزوجة الحسناء الفاتنة ل يحقق رغبة أبيه ب التبنى ومولاه فيما بعد.



خامساً: رد بنت الشاطئ المفحم على جوق الطبالين و"مايسترو" هم هيكل:

خرجت من قراءتى ل عشرات كتب السلف التراثية فى السيرة أن القدامى اتصفوا ب الأمانة العلمية وامتازوا ب الضمير الفكرى ومن ثم اتسموا ب الموضوعية والنزاهة، فى حين أن المحدثين نفضوا أيديهم من ذلك كله وآثروا النفاق واختاروا الانتهازية وانحازوا إلى الذبذبة، ومن ثم حفلت كتاباتهم ب التلفيق وطفحت ب الانتقائية واكتظت ب الترقيع وامتلأت ب التبرير وتضلعت من التعمية وارتوت ب التضبيب ونهلت من الغطرشة " التعالى عن الحق"، ولهذا فهى توسم بالنفاق الفكرى ومجافاة الأمانة العلمية ومخاصمة الضمير الثقافى ولسنا فى حوجة إلى تبيين العلة الكامنة وراء سلوك المحدثين ل هذا المنهج الفسيد والسير فى هذا الطريق المعوج والمشى فى هذه الجادة الملتوية.

ولو أنك رسمت خطاً بيانياً للأمانة الفكرية ل هذا الفرع من العلوم ل جاء منحدراً وهابطاً ونازلاً لأن القدامى أوردوا الوقائع كما سمعوها والأحداث كما تلقوها والآثار كما رويت لهم مهما حملت من صدمة للقارئ أو دهشة ل المتلقى أو استنكاراً لدى السامع، وكان منطقهم وهم يصنفون:

ل يستحسن من يستحسن ول يستهجن من يستهجن ول يستغرب من يستغرب ف هذا ليس من شأننا ولسنا مسئولين عنه. ثم خلف من بعدهم خلف أمعنوا فى الغواية وأسرفوا فى الضلالة وبالغوا فى النكراء «المنكر» ف أخفوا وغطوا وسوغوا وجماعه على حساب الضمير والمسئولية والأمانة التى حملها الإنسان الظلوم الجهول.

والذى حَيّرنى فى موقفهم هذا أمران:

الأول : أنهم ليسوا ب حال من الأحوال ب أتقى من سلفهم الصالح ولا أشد خوفاً من الله تعالى هذا من جانب، ومن آخر أن علمهم - الحق أننى أقولها تجاوزاً - بجانب علم السلف مثل قطرة فى محيط أو حبة واحدة فى رمل عالج، فَ مَن منهم يصل إلى مستوى ركبة ابن إسحق أو الطبرى أو الرازى أو البيضاوى أو القرطبى .. إلخ؟

الآخر : من المفروض أننا مرقنا من العصورالوسطى وخرجنا من عهود الظلام وغادرنا زمن القيود والسدود ونعيش الآن فى أيام حقوق الإنسان وحرية الفكر والإبداع والكتابة وغدا العالم قرية كبيرة هذا من رجا، ومن آخر لم تعد المؤلفات السوابق أسراراً مكتومة ولا أحاجى ولا ألغازاً مستورة ولا ألغازاً مخبوءة وب أى صورة تغدو كذلك ونحن ننعم ب ثورة الاتصالات. لكن فيما يبدو وب أياة "هيئة" جلية أنهم عندما يغمضون عيونهم يتوهمون أن غيرهم لا يراهم.



بعد هذه الفرشة التى نأمل عدم تململ القارئ من طولها النسبى ندخل فى صميم الموضوع:

محمد حسين هيكل بدأ كاتبا ليبرالياً مستتيراً وأصدر مؤلفات محترمة، أما عندما خاض فى خضم بحر (الإسلاميات) ف قد َفكّ صمولة (٣٨) ضميره العلمى لأسباب لا تخفى على الفطن ولا تغيب عن اللبيب ولا تتوارى عن الذكى.(٣٩)



ومن أشهر ما طلع به على القراء فى ذات المضمار كتابه «حياة محمد» وبند عن جوهر دراستنا تقييمه أو غيره من الإسلاميات الهيكلية، إنما الذى يهمنا ما خطه ب شأن خبر الكلبى وطلاقه لِ ابنة جحش:

«أفيبقى بعد ذلك أثر لِ هذه الأقاصيص التى يكررها المستشرقون والمبشرون ولكنها شهوة التبشير المكشوف تارة والتبشير باسم العلم أخرى والخصومة القديمة للإسلام هى التى تملى على هؤلاء جميعا ما يكتبون

---

(٣٨) مجمع اللغة العربية فى مصر أقرها واعتبرها كلمة عربية فصيحة وأدرجها فى الوسيط والوجيز.
(٣٩) عباس محمود العقاد قام ب ذات الصنيع.

وتجعلهم فى أمر زواج النبى وفى أمر زواجه من زينب بنت جحش يتجنون على التاريخ ويلتمسون أضعف الروايات فيه مما دُسّ عليه ونسب إليه».(٤٠)

هذا كلام يصيح به ب أعلى طبقات صوته المهيب فى خطبة منبرية فى يوم جمعة واعظ فى مسجد إحدى القرى أو الأحياء الشعبية ولا يستقيم ب حال صدوره من باحث جاد.

ونحن هنا إزاء احتمالين لا ثالث لهما :

أولهما : أن هيكلاً لم يطلع على أمهات كتب السيرة والتاريخ وأسباب النزول والتفسير والأحاديث والأخبار..

وهذا عيب قادح وقصور فادح ونقص واضح.

آخرهما: أو أنه قرأها وسمح له ضميره العلمى أن يرقم هذه العبارات الفلوت وهنا يثبت أنه تخلى عن أمانة القلم.

ومهما تصدى واحد من خشداشينه للدفاع عنه ف لن يفلح لأنه (هيكل) لو هرب من الفرض الأول فإنه سوف يتردى فى براثن أو شباك الآخر وهو الأوعر.



هذا المسلك من جانب هيكل أثار ثائرة الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» ويعرف الجميع عنها أنها باحثة رصينة فضلاً عن أنها سلفية تقليدية لأقصى درجة - ف هلهلته.(٤١) وبهدلته «=كلمة عربية فصيحة» ولم تترك له جنبا يرقد عليه (٤٢)

«إن قصة إعجاب الرسول ب زينب وحكاية الستر من الشعر الذى رفعته الريح وانصراف الرسول عن بيت زيد وهو يقول : سبحان الله مقلب القلوب، قد كتبت قبل أن تسمع الدنيا ب الحروب الصليبية ب أقلام نفر من مؤرخى السيرة ورواة السيرة لا يرقى إليهم اتهام ب عداء النبى والدس على الإسلام.

---

(٤٠) (حياة محمد) ل محمد حسين هيكل ص ٣٣٦ وما بعدها - الطبعة الحادية عشرة دار المعارف ب مصر.

(٤١) في المعجم الوجيز/ تهلهل الثوب= رق حتى كاد يبلى.

(٤٢) عبارة تقال فى صعيد مصر دلالة على أن الخصم فند جميع حجج خصمه حتى أعياه واضطره للصمت.

ف من الحق أن ندع المستشرقين والمبشرين أمثال موير ومرجليوث وإرفنج وسبرنجر لنقرأ القصة على مهل فى تاريخ الطبرى وفى الإصابة وفى كتب التفسير وفى السمط الثمين». ص ١٤٠.

وفى الهامش : راجعها ب التفصيل فى تاريخ الطبرى ٤٢/٣و٤٣ وفى النهاية ل بن الأثير/ حوادث السنة الخامسة للهجرة وفى السمط الثمين / ١٠٧ وفى الإصابة ج /٨.

وأضافت ابنة الشاطئ :

«. فيكفى للرد عليه أن ننقل هنا تفسير الزمخشرى للآية منذ أكثر من ثمانية قرون ب أن رسول الله أبصر زينب بعد ما أن أنكحها زيداً ف وقعت فى نفسه ف قال سبحان الله مقلب القلوب» . ص ١٤٢/١٤١.

ثم انتهت إلى نتيجة حاسمة وهى:

... أن الدكتور هيكل أخطأ من حيث أراد الدفاع عن الرسول ذلك أنه ب إنكاره ميل الرسول إلى زينب ورفضه أن يكون -ص- تعلق بها قد ألقى على المسألة ظلالاً من الريبة توهم أن هذا التعلق خطأ لا يجوز على الرسول ومنقصة يجب أن - ننزهه عنها ... » ص ١٤٢ .(٤٣)

هذا مثل قدمناه لما تقوم به فرقة الطبالين والمداحين بطريقة فجة تلحق ب «الحبيب المجتبى» وب سيرته المعطار أفدح الضرر، ومما يؤسف له أن من جاءوا من بعد هيكل زايدوا عليه وتضاعفت الفجاجة والركاكة والهياف «الضموز»، ولقد تنبأ هو ب عبقريته الفاذة وب معرفته ب ما جاء فى التوراة والإنجيل من قصص أنبياء بنى يعقوب أن تبعه سوف يطرونه بذات الكيفية التى أطرى بها النصارى عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم، أى أنه حذر منه لأنه الطريق المؤدى حتما إلى التألية.

❖ ❖ ❖

وختاماً ف هذه الفاصلة التى انضوت على قصة الكلبى وبنت جحش وإن طالت بعض الشىء فإنها تضع فى حجر القارئ دليلاً على صحة ما جاء ب الشطر الأول من العنوان وهو أن «الفرقان/ القرآن» خصص نصوصاً لتحقيق رغائب محمد وكيف لا أليس هو «سيد الخلائق» على بكرة أبيها؟

---

(٤٣) (نساء النبى) د. بنت الشاطئ - د.ت- دار الهلال ب مصر.

{٧}

أطبقت كتب السيرة المحمدية «الشريفة» أن «صاحب النسب الموصول » نكح عائشة بنت أبى بكر التيمىّ وهى بنت ست أو سبع سنين وأنه بنى بها «دخل عليها» وهى إما فى الثامنة وإما التاسعة، وهو فى ذياك الوقت جاوز الخمسين ب ثلاثة أعوام من عمره الشريف وإنها «= التيمية عائشة » أخذتها والدتها أم رومان من على أرجوحة تلعب هى ولداتها عليها كيما تهيئها لماهى مقبلة عليه فى حين أنها لم تستوعب جلية الأمر.

ول صغر سنها وجمالها ولأنها البكر الوحيدة بين نسائه العديدات، فقد حظيت عنده وبلغت فى نفسه درجة لم تصل إليها إحدى زوجاته ب استثناء سيدة نسون قريش خديجة بنت خويلد، وفى إحدى المرات حاولت أن تنال من مكانة أم هند «= خديجة» لديه ف زجرها زجراً شديداً حتى قررت فيما بينها وبين نفسها ألا تعود ل مثلها وأيقنت أن المقام المحمود الذى بلغته سيدة قريش عنده لم ولن يلحقه رجل أو امرأة.(٤٤)

❖ ❖ ❖

وطفق «من تنام عيناه ولا ينام قلبه» يدلل الزوجة الصغيرة ويحملها على عاتقه (٤٥) وكثيرا ما ردد على مسامعها «حبك يا عائشة فى قلبى ك العروة الوثقى، وعندما سأله عمرو بن العاص، ذلك الذى فعل الأفاعيل فى مصر عندما غزاها غزوا استيطانياً، عن أحب الناس إليه أجاب على الفور : عائشة.(٤٦)

❖ ❖ ❖

أدركت التيمية مكانتها فى قلب «صاحب الخلق العطيم» ف أخذت هى من جانبها تتدلل عليه مما دفعها إلى أن تأتى ب تصرفات فيها جرأة لم تقدم عليها واحدة من نسونه حتى الحسناوات منهن مثل أم سلمة وزينب بنت جحش.

---

(٤٤) فضلا ارجع فى هذه الخصوصية إلى كتابنا (فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين) نشرته دار ميريت سنة ٢٠٠١، وظهرت له طبعتان فى أقل من ستة أشهر.

(٤٥) (نساء النبى) ل بنت الشاطىء ص ٧٤ السطر قبل الأخير - مرجع سابق.

(٤٦) صحيح البخارى نقلاً عن «نساء النبى» ل بنت الشاطىء ص ٩٢ مرجع سابق.

ففى مرة وهو يجلس مع نفر من صحبه فى حجرتها بعثت إليه صفية بنت حيى بن أخطب طبقا به طعام ، واذ إنها يهودية ومن بيت رفيع فَ قد عُرف عنها أنها تجيد الطهو فَ ما إن رأت التيمية الصفحة حتى ألقتها على الأرض فاندلق ما بها وانكسرت، كل ذلك أمام الحاضرين من تبعه، ف تبسم ولم يزد على قوله «لقد غارت أمكم» بيد أنه ألزمها أن تبعث لِ ضرتها صفية ب صفحة عوضاً عن تلك التى حولتها إلى فتات أو فتيت. وباستقراء سيرته الباذخة المنيفة نؤكد أنه ما من رجل مهما بلغ خلاطه به أو مَرَة زوجة أو غيرها يبلغ به أو بها الجُسُور (بضم الجيم والسين) أن يفكر مجرد تفكير فى الإقدام على مثل ذاك العمل.

وسبق أن رقمنا قولها له: « ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك أو مرضاتك» وتعقيبنا عليه ولقد ذكرت الدكتورة عائشة عبد الرحمن أن التيمية فاهت بهذه الصيحة عندما هلت (الآية الكريمة) ب نكاحه بنت جحش «الهاشمية الحسناء». (٤٧)

وإذ إن لكل جواد كبوة ول كل عالم هفوة فَ إن ابنة الشاطئ فى هذا الموضع غلطت مرتين :

الأولى: أن ابنة جحش ليست هاشمية ولا حتى قرشية ف أبوها جحش بن رئاب من بنى أسد بن خزيمة وأمها هى التى من بنى هاشم فهى أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم والعرب لا ينتسبون إلى الأم بل إلى الأب لأن مجتمعهم ذكورى بطريركى.

الأخرى: أن العبارة الفلوت التى جابهت بها التيمية بنت أبى قحافة «سيد الأولين والآخرين» ليست ب سبب إشراق آية من الذكر الحكيم ب نكاحه زينب وإنما قالتها ابنة ابى بكر عندما أقدم بعض النسون على هبة أنفسهن له فانبثقت آية «ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء»(٤٨).

ويبدو أن الدكتورة عائشة عبد الرحمن اعتمدت على الذاكرة وهى خؤون، وقد نصحنا البحاث ألا يفعلوا وأن يرجعوا فى الصغير والكبير إلى المصادر.

❖ ❖ ❖

بعد انكسار المسلمين فى غزاة أحد ظن الأعراب الجفاة أن نجمهم

---

(٤٧) (نساء النبى) ص ٧٩.
(٤٨) الآية ٥٢ من سورة الأحزاب.

دخل فى فلك الأفول- وقد خاب فألهم ول جهلهم وبداوتهم لم يقدروا « أبا القاسم» حق قدره وضاق أفقهم عن إدراك عبقريته وقصر فهمهم عن معرفة ملكاته، فَ طفقوا يتحرشون به ويناوئونه، وأول من بدأ ذلك جلف يقال له عامر بن الطفيل وتعاقد معه بطنان من سلم هما عصية ورعل ف عدوا على سبعين رجلاً شَبَبَة «شبان» من القراء أى حفظة القرآن الكريم وكلهم من اليثاربة بنى قيلة لا يوجد بينهم من النازحين «المهاجرين» أحد ف قتلوهم عن آخرهم عند ماء يقال له «بئر معونة» وأحزن ذلك «المصطفى» لأنه من رجا «= ناحية» تم غدراً وخيانة. ومن آخر الخسارة فى اولئك الشببة القراء الحفاظ ثقيلة، فَ أخذ يدعو عليهم ومن عاضدهم من الأفخاذ وأفناء القبائل فى صلاة الصبح.

وبحيلة دنيئة مشابهة تمكن بنو لحيان من عضل والقارة من استدراج سبعة من القراء الحفاظ أيضا ف ما إن فارقوا قرية بنى قيلة/ أثرب وعند ماء ل هذيل قريب من الهدة يقال له الرجيع قتلوا بعضهم وأسروا من استطاعوا أسره وأحدهم يسمى عاصم بن ثابت حدثت معجزة ب شأنه إذ بعد قتله لم يستطيعوا أن يصلوا إلى جسده اذا انتصبت حوله كتيبة من الدبر (٤٩) فكلما اقترب منه أحد الأعاريب الخونة لدغته ف أطلقت عليه كتب السيرة المحمدية المعطرة «حمى الدبر».

وب المثل حز هذا الغدر الذى راح ضحيته سبعة من خيرة القراء فى نفس «الأمين المأمون».

بيد أن انتصاره الساحق على بنى النضير وهم من أبناء يعقوب والقبيلة القوية الغنية والتى تنافس القبيلة الأخرى بنى قريظة فى المنعة والثروة وتمكنه من إجلائهم من أثرب واحتياز دورهم وأموالهم ارتفعت أسهمه إلى عنان السماء، فَ من ناحية ما انفكت القبائل البدوية الجافية، سواء حول بنى قيلة أو فى سائر أنحاء شبه جزيرة العرب، تعيد حساباتها وتعمل لِ «صاحب العلو والدرجة» ألف حساب، كما أن الغنائم التى غنمها من أولاد الأفاعى بنى النضير ساهمت فى مضاعفة قوته لأن المال كما هو عصب التجارة فهو مدماك الحرب.

---

(٤٩) العامة فى مصر تسميها الدبابير.

كذا فإن تبعه من المنازيح واليثاربة معاً بدأت الثقة تعود إلى نفوسهم سواء من الناحية القتالية أو العقائدية.

كيف؟

بعد انتصارهم الساحق فى غزاة بدر الكبرى قويت روحهم المعنوية بدرجة مذهلة إنّ فى الشق الحربى أو فى الجانب الإيمانى، أما عن الأول فقد هزموا صناديد قريش الذين بلغوا ثلاثة أضعافهم هزيمة نكراء، وعن الآخر فقد ترسخ فى عين يقينهم أن دينهم هو الحق ومن ثم فإن الله أعلى رايتهم ورفع لواءهم وجعل كلمتهم هى العليا وكلمة عدوهم فى أسفل سافلين كما عزز مكانتهم فى يثرب، وقمع مشاكسيهم من اليهود والمنافقين والذين اتخذوا موقف التربص وسلكوا درب التردد وأخذوا يقدمون رجلاً ويخنسون الأخرى، وأقنع الأعاريب الغلاظ حولها أنهم بخلاف ما حدّسوه قوة لا يستهان بها ومن العبط تجاهلها.

بيد أنه بعد الوجيعة التى نالتهم فى أحد طفق الخط البيانى للثقة فى النفس يتدحرج إنّ من الناحية العسكرية أو من الجانب الإيمانى. أما الأولى فهى ليست فى حوجة إلى كشف الغطاء عنها أما الآخر فيتمثل فيما راودهم من تساؤلات كيف يهزم جند الله مع أن البلاغ أكد أن جند الله هم الغالبون، وهم كذلك!!

إنما بعد سحق بنى النضير واستصفاء أموالهم ما فتئ الشعور الذى هيمن عليهم بعد غزاة بدر الكبرى يحتل مكانه الذى غادره ويعدن فى الموطن الذى فارقه ويتربع على الكرسى الذى هجره.

ويمكن أن نرقم أن جلاء بنى النضير شكّل علامة فارقة ورسم طريقاً جديداً وفتح جادة مغايرة.

فَ أرسل «المنصور ب الرعب قرابة شهر» نفراً من تبعه إلى أبى رافع اليهودى الذى دأب على إيذائه والتطاول عليه ف قتلوه فى عقر داره وفى خيبر المعقل اليهودى الحصين والتى تخبرنا مصنفات السيرة المحمدية البالغة ذروة المجد والسؤدد أن بها أربعة آلاف مقاتل ف هل توجد ثقة ب النفس أعمق؟



سمع «الإنسان الكامل» من عيونه الذين دأب على بثهم فى كافة الأرجاء

أن ثعلبة وأنماراً من القبائل البدوية التى تحتل قطاع نجد تحدثها نفسها ب الاحتكاك به وب المسلمين ف خرج فى جيش كثيف عدته ثمانمائة، وفى روايات أخرى أقل، يريدهم بيد أنه ركبهم الهلع وشملهم الخوف وسيطر عليهم الرعب. ومعروف عن هؤلاء البدو أنهم لا يستأسدون إلا على من يوقنون أنه أضعف منهم ناصراً وأهزل منهم عدداً وأنحف عُدّة شأن الجبناء وهم على رأسهم فَ أرقلوا إلى رؤوس الأجبل وتركوا نساءهم فى محالهم ف سباهم المسلمون وسميت هذه الواقعة «ذات الرقاع» ولم تحقق كسباً مادياً بل ظفرا معنويا إذ أيقنت القبائل المتبدية أن المسلمين أمسوا قوة غلابة لا قدرة لهم على الوقوف فى وجهها.

❖ ❖ ❖

ثم غزا «سيد الناس» دومة الجندل وهى طرف من أفواه الشام قاصداً أن يفزع قيصر الروم واستنفر من تبعه ألف مقاتل ولما تناهى الخبر إلى مسامع الجنادلة أخلوها فَ لما وطئها لم يلق بها أحداً ف شنوا الغارة على الماشية ورعائها ف احتازوها وأسروهم وكرة أخرى حقق الجيش المسلم نصراً معنوياً فحسب.

بيد أنه بخلاف من سبقه ول أول مرة فى تاريخ جزيرة العرب المبروكة يرى أو يسمع أعرابها الجفاة أن عربياً واتته الجرأة على إرهاب قيصر الروم والاقتراب من تخوم إمبراطوريته ومن منظورهم أنه ضرب من المغامرة غير المحسوبة.

❖ ❖ ❖

ثم نصل إلى المحطة النهائية ل هذه الرحلة التى تفوح من جنباتها رائحة الإطالة:

وهى غزوة بنى المصطلق أو المريسيع التى وقعت فى مختتمها حادثة الإفك وموجز مفاصل الوقعة أن الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق من خزاعة ومنازلهم «الفرع» جمع من قومه وممن قدر عليه من أوشاب الأعراب جيشاً لمهاجمة «المدثر» والمسلمين فى يثرب، ويبدو أنه من هذه النوعية من البشر التى ينعت الفرد منها ب «الأحمق المطّاع» إذ سرعان ما

طارت الأخبار إلى قرية اليثارية بنى قيلة ، فندب «الحبيب المصطفى» الناس ل لقائه ف ما إن سمعوا الهيعة حتى سارعوا طائعين ملبين، ومما له دلالة عميقة أن شطراً وسيعا من عصبة المنافقين الذين أدمنوا التخلف سارعوا هذه المرة إلى الخروج معه، ومرجعه فى نظرنا طابور من الدوافع نقتصر منها على ثلاثة نذهب إلى أنها جوهرية.

الأول : الرهبة من سلطان «من جعلت له الأرض طهوراً» الذى غدا قوياً، ويأسهم من معارضته أو مناوأته.

الثانى : الرغبة فى الحصول على نصيب من الغنائم، لأن السلب والنهب والغارة على العدو وهم نيام يقولون «صبّحناهم» وهذا من سمات الجبن والخسة والنذالة التى امتاز بها أولئك الأعاريب، والحصول على الأسلاب والغنائم وسبى النسون.. جماعها مكون رئيسى فى بنيتهم النفسية. فى حين أنه على النقيض يشكل الزرع والحصد والرى وجمع المحصول والبناء والتشييد والإعمار عناصر ومقومات شخصية المصرى القديم، ومن ثم ترك حضارة باذخة لا ضروب لها حتى الآن، فى حين خَلَّف أولئك الأعاريب الأجلاف قصصاً أليمة عن التصبيح وشن الغارات فى غفلة المهاجمين «بفتح الجيم» ونوازل فواجع عن القتل والاغتيال وروايات دامية عن أسر الرجال وسبى النسوة والفتيات إما لبيعهن فى أسواق الرقيق إماءً وجوارى وإما لاتخاذهن محظيات وسرارى.

الثالث : إذا ظهرت بوادر هزيمة أو تراجع أو تقهقر لدى المقاتلين اهتبل «المنافقون وقود الدرك الأسفل من النار» الفرصة وبدأوا ب فتح بوابة الفرار من العدو ل يلجها الباقون وأشاعوا البلبلة والتخذيل وأذاعوا أخباراً كواذب ل تثبيط عزم من يقاتل من المسلمين، وجماعه تنفيس عن الحقد الكامن فى نفوسهم والبغضاء المشتعلة فى صدورهم والشنآن الخبىء فى قلوبهم نحو «حامل لواء الحمد»، ومن رأينا أن النفاق ما هو إلا المعارضة السياسية، بدليل أنه لم يفرخ بيضه الفسيد إلا بين بعض بنى قيلة، أما فى قرية القداسة ف لم يوجد لأنها انضوت ف حسب على معارضة عقائدية أسها الخوف على المكانة الاجتماعية، وجرثومتها الحفاظ على المكاسب المالية وسندها العض ب النواجذ على المصالح

الاقتصادية ودليل الثبوت على أنها (المعارضة المكية) عقائدية قبلية تتمثل فى التمسك ب «دين الآباء» لا شبهة فيها ل الرجا السياسى هو أن الصناديد المكاكوة أو ملأ قرية القداسة عرضوا على «الأمين» الرئاسة بِ شرط أن يهجر الدين الجديد الذى جاءهم به وبداهة رفضه ب شدة.



كما آن البرهان على أن المنافين اليثاربة معارضون سياسيون فقط، هو آنهم لم يعلنوا تمسكهم بعقائدهم السابقة فضلاً عن أن يدعوا إليها أحداً، ولم تخبرنا مدونات السيرة المحمدية المعطاءة لكل خير وجمال أنهم فى اجتماعاتهم الخاصة بشّروا بِ ديانة مغايرة ل الإسلام أو حاولوا إقناع مسلم ب مفارقة ديانته والولوج فى دينهم، إذ ليس لهم دين خلاف الإسلام «عن طريق التظاهر» ولم يطعنوا فى العقيدة الإسلامية ولا فى العبادات، بل ب العكس عرف عنهم القيام بها ومن ثم حقنت دماؤهم وأعراضهم وأبشارهم وذراريهم ونسوانهم، فقط عِيب عليهم أنه كله صدر عنهم من قبيل المداهنة دون إخلاص، وهذه مسألة متروكة لله وحده، ومن هذا المنطلق عاملهم «الرحمة المهداة» معاملة تبعه المسلمين وأوكل حسابهم إلى ربه. وما حملته مصنفات السيرة المحمدية المعطرة هو غمزهم ولمزهم لذاته الشريفة مثل قول بعضهم فى غزاة الخندق: يعدنا ب كنوز قيصر وكسرى، فى حين أن أحدنا لا يأمن على نفسه وهو ذاهب ل قضاء حاجته، فَ هذا نقد خسيس ولكنه معارضة سياسية لم تمس عقيدة أو عبادة وقبلها رغبّ غزاة أحد وما حدث فيها. صرح رأس النفاق عبد الله بن أُبىّ : خالفنى «رأيه عدم الخروج من يثرب لقتال المكاكوة» وأطاع الصبيان «الشبية الذين اقترحوا العكس» ف هذا أيضا تقييم ل خطة عسكرية وليس طعناً فى الديانة. الخلاصة أن النفاق معارضة سياسية. ثم بعدها نستأنف السياق:

وسمع الأعراب الجبناء ب جيش المسلمين ف غدروا ب الأحمق المطاع الحارث بن أبى ضرار وخانوا عهدهم وميثاقهم معه وتخلوا عنه وتركوه هو وبنى المصطلق ينالون هزيمة ساحقة، وغنم المسلمون مغانم كثيرة وسبياً كثيفاً، ولو أن مائة واحد من الصحابة أعتقوا السبايا اللاتى وقعن فى

قسمهم إكراماً ل جويرية بنت الحارث التى تزوجها «ذوالفضل العظيم» والتى وصفتها التيمية عائشة ب أنها حلوة ملاحة لا يكاد يراها أحد إلا ذهبت ب نفسه، وعرفت أنه سيرى منها مثل الذى رأت، وصدق حدسها، إذ عرض عليها أن يؤدى عنها كتابتها «ثمن عتقها» ويتزوجها فوافقت وتم العتق والنكاح.



دأب «المعصوم» على اصطحاب زوجة أو أكثر بطريق الاقتراع عند الخروج إلى أى غزاة، وفيها اصطحب أم سلمة وعائشة وهما من أجمل زوجاته وتلحق بهما فى البهاء والحسن زينب بنت جحش.

فى طريق الرجوع وقرب أثرب بات «أبو القاسم» ومن معه ثم أدلج وأذن ب الرحيل، بيد أن التيمية بنت أبى بكر أبى قحافة شعرت بضرورة قضاء الحاجة فمشت مسافة حتى جاوزت المعسكر وعند عودتها تحسست عقداً من جزع ظفار ف لم تجده ف عادت تبحث عنه إنما عندما وصلت إلى المعسكر فوجئت بأن الموكلين ب جملها الذى عليها هودجها قد ظنوا أنها به فقادوه وارتحلوا مع الآخرين ومن ثم لم تجد أحداً، والحل الذى توصلت إليه بقاؤها فى مطرحها حتى يتبينوا خطأهم وعندئذ سوف يعودون ل أخذها.

وآن ذاك من عادة الجيش أن يعين أحد أفراده يسير خلفه لالتقاط ما قد ينساه البعض أو يسقط منهم، وتولى هذه المهمة فى تلك الغزوة صفوان بن المعطل السلمى أحد الصحب المخلصين ل «سيد ولد قصى»، فلما رآها استرجع «قال: إنا لله وإنا إليه راجعون» إذ عرفها وأناخ لها بعيره وأركبها عليه وسار حتى لحقا ب الباقين شدّ الضحا.

رأى المنافقون وعلى رأسهم كبيرهم عبد الله بن أُبىّ هذا المنظر فَ أطلقوا ألسنتهم القذرة ب حديث عفن فى حق عائشة وصفوان سمى فيما بعد «حديث الإفك» وللأسف ساهم نفر من المسلمين فى لوك هذه الحكاية الحقيرة، منهم حسان بن ثابت الذى طالما نافح عن «سيد الخلق» وهجا أعداءه وخصومه، ومسطح بن أثاثة، ومن العجيب أنه يمت بصلة قربى لأبى بكر التيمى، وحمنة أخت زينب بنت جحش ربما اعتقادا منها ب

أن ذلك يخدم أختها، فى حين أن هذه -وهى الضرة- جاء موقفها على النقيض وشهدت فى حق التيمية شهادة رائعة رغم أنها كانت تنافسها فى الجمال.

ومما عقّد المسألة أن عائشة فى ذياك الوقت لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها فقد ذكرت جاريتها بريرة أنها ل صغر سنها ترقد عن العجين حتى تأتى الشاة ف تأكله. وهى نفسها وصفت ذاتها أنها جارية حديثة السن لا تقرأ كثيرا من القرآن وغاب عن ذاكرتها اسم يعقوب فقالت والله ما أجد لى مثلا إلا أبا يوسف..

وصغر سن الفتاة مدعاة إلى الظن بها الطيش وعدم التعقل والاندفاع والبعد عن التروى ومخاصمة قراءة العواقب.. إلخ، أى أن هذا العنصر فى جانبها أعطى المنافقين الأوباش فرصة لِ مزيد من الاتهامات الباطلة والادعاءات السافلة والمزاعم الفسيدة.

❖ ❖ ❖

تولى كبر حديث الإفك والبطلان والافتراء عبد الله بن أُبىّ بن سلول رأس النفاق وزعيم المنافين وخبّ فيه ووضع وتوسع فيه ما شاء له خياله المريض ونفسيته الخبيثة وشعوره الدنس.

والنفاق حسبما ألمعنا: معارضة سياسية، أمسك ب زمامها ابن سلول لأنه قبيل أن ينزح «المعطى جوامع الكلم» إلى يثرب أطبق بنو قيلة أوسهم وخزرجهم على تنصيبه ملكا عليهم، بيد أن وصول «المعروض عليه مفاتيح خزائن الأرض»، خربق التدبير وأفسد الخطة وبعزق الرصيص، فَ خاب أمله وطاشت طِلبته وتبددت مُنيته، ف كيف لا يترسب الحقد فى فؤاده وتتغلغل الضغينة فى أضلاعه وتتعمق البغضاء فى حناياه نحو «أحمد»، والتف حوله نفر من الذين أصابهم الجزع على مصالحهم لِ عُدون النازحين معهم بين الحرتين وكذا من لهم علائق مع أولاد الأفاعى اليهود وأسسوا مانستطيع أن نطلق عليه حزباً معارضاً.

أخذ ابن سلول ومن سار فى دربه الوبىء يضايقون «إمام الأولين والآخرين» وتبعه ب الأقوال والأفعال، وما انفك بعض صالحى المسلمين

من رهط عبد الله بن أبى يعتذرون عن أفعاله الفواحش ويقولون ل «صفوة البشر» ارفق به إذ عند تشريفك قريتنا طفقنا ننظم الخرز له توطئة ل تتويجه.

وكلما ارتفع نجم «أحمد» وعلت مكانته وصعد فى الخافقين مقامه تميز رأس النفاق غيظاً وامتلأ كراهية وتأجج بغضاً.



وفى وقعة المريسيع أو بنى المصطلق أصيب ابن سلول ب الكمد وعلاه الغم وأحاط به الهم من اخمص قدميه حتى ذؤابة رأسه العفن ل فلج المسلمين الساحق على عدوهم، لأن كبير المنافقين اعتقد أن الأحمق المطاع الحارث زعيم بنى المصطلق، وقد جمع الألوف من الأعاريب - كما وصلت إليه الأخبار- سوف يكتب له الظفر ف لما حدث العكس تضاعفت مرارته ف انتهز فرصة نزاع بين سقاء النازحين ونديده الذى يعمل ل حساب بعض اليثاربة فأراد أن يوقع فتنة هوجاء بين الطائفتين وصدرت منه عبارات طائشة كشفت عن مكنون ذاته مثل «والله ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل = سمن كلبك يأكلك .. ولئن رجعنا إلى المدينة «أثرب» ل يخرجن الأعز منها الأذل.. إلخ.

وتركت هذه العبارات الفلوت أثراً غائراً فى نفوس المنازيح حتى إن العدوىّ عمر بن الخطاب اقترح على «رحمة الأمة» أن يأمر واحداً من رهط عبد الله بن أُبىّ ب قتله لكنه رفض هذا العرض النزق الذى لو أخذ به لاشتعلت حرب أهلية بين النازحين وبنى قيلة.

وب حكمته الرائعة وأفقه الوسيع وحلمه اللا محدود وخلقه الكريم استطاع «صاحب العلو» أن يخمد نيران الفتنة ويطفئ أوارها ويكتم لهبها.. غبها ازداد رئيس المنافقين تحفزاً وغدا أكثر تربصاً وأشد توقانا لأى نهزة وأعمق تشوقاً لأقل فرصة للانتقام من «صفوة البشر» الذى قطع تشريفه أثرب عليه طريق الملكية ولا أمل ولا رجاء فى ظعنه عنها كما أن سهمه فى ارتفاع مستمر ومن ثم أتت إليه حادثة الإفك من حيث لا يحتسب وظلت تتدحرج حتى قُرت قُرورا مكينا فى حِجره فكيف لا يوسع

فوهة فتنتها ولا يعرّض جوانب بلبالها ولا يعمق غور مرجها ولا يكشف طباق هرجها؟(٥٠)

❖ ❖ ❖

رغم ثقة من «أعطى الشفاعة» الكاملة فى طهارة وإخلاص زوجته الصبية الجارية «آنذاك» عائشة ويقينه الذى لا يتزعزع فى براءتها مما ألصقه «الإفكِيّون» بها ظلماً وعدواناً ونذالة وخسة وجبانة فإن النازلة قد أصابته بقدر غير قليل من الضيق والمعاناة والمكابدة حتى إنه أبدى جفاءً لها ف اضطرت إلى أن تطلب منه أن تنتقل إلى بيت أبيها لتتولى أمها تمريضها لأنها عليلة فأذن لها. (٥١)

ويبدو أن المنافقين أمعنوا فى السفول والوقاحة وضاعفوا من إطلاق ألسنتهم فى حق التيمية وصفوان فاضطر إلى صعود المنبر وخطب «أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى.. ويقولون ذلك لرجل «= صفوان بن المعطل» ما علمت منه إلا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا معى»(٥٢)

ولكن عقب هذه الخطبة أوشك الأوس والخزرج أن يتقاتلا، لأن أحد زعماء الأوس ألحن إلى قتل ابن سلول «الخزرجى» فتعصب له رهطه ولولا دبلوماسية «أكمل البشر» وحنكته ل دخل بنو قيلة فى عركة دامية وتمكن بعد لأى من فض الاشتباك بينهما.

إنما هذا الشروع من جانب اليثاربة فى العودة إلى حالتهم قبل نزوحه إليهم منذ ما يقرب من خمسة أعوام وكأنما ما بذله من جهود تفوق طاقة البشر لتأليف قلوبهم غدا على جرف سرعان ما ينهار وسببه حديث الإفك، جماعه ضاعف ألمه، خاصة أن هذه الأحداث توالت الواحدة إثر الأخرى وهو فى قمة انتصاراته.

ويضاف إليه أن هذا الاتهام الجائر العارى من أى أساس لم يلصق إلا بابنة أخلص أعوانه وصاحبه فى الغار إبان رحلة النزوح ومن قدم له من

---

(٥٠) اعتمدت فيما أوردته عن الغزوات على «كتاب المغازى» ل محمد بن عمر بن واقد المعروف ب الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧هـ تحقيق د/ مارسدن جونس د.ت.ن من منشورات مؤسسة الأعلمى/ بيروت لبنان – وهو من ثلاثة أجزاء ويقال : الناس عيال فى المغازى على الواقدى وهو شيخ محمد بن سعد صاحب «كتاب الطبقات الكبرى» وقد اشتهر ب «كاتب الواقدى».

(٥١) ...(السيرة النبوية) ل ابن إسحق – المجلد الثانى ص ١١٦ سابق.

(٥٢) «المصدر السابق ص ١١٧».

الأيادى والخدمات دون مَن وكثيرا ما صرح هو به .. فاستنفر ذلك مزيداً من الاضطراب والتمزق. وبيت التيمى أبى بكر ذاته دخل عليه ما لم يدخل على بيت من العرب كما أكدته عائشة وتصف لنا أنه قبيل أن يقرأ عليهم «من تنام عيناه ولا ينام قلبه» آيات براءتها أوشكت روحا أبويها أن تخرجا مما يشف عن سوء الأحوال النفسية الذى ضرب أبطال القصة.



من أجله كله أصبح من ألزم اللازم إشراق آية أو آيات تحقق رغبة «خيرة خلق الله» فى إظهار براءة عائشة التى لم يساوره ب شأنها أدنى ريب ول يسترد وزيره الأول -ونعنى به التيمى -كرامته وقدره ومكانته ولينقمع الخبيث الدنىء عبد الله بن أبىّ سلول ومُشايعوه ولِ يغلق هذا الملف المرعب كيما يتفرغ لمهامه الجسيمة وليواصل تثبيت أركان دولة قريش فى أثرب والتى بها حقق حلم جدوده قصى/هاشم/عبد المطلب، وهذا ما حدث.

❖ ❖ ❖

(قالت عائشة.. ثم تحولت واضطجعت على فراشى .. وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة وأن الله مبرئى ب براءتى ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وَحْىٌ يتلى ولَ شأنى أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله تعالى فى أمر يتلى، ولكنى كنت أحب أن يرى رسول الله -ص- رؤيا يبرئنى الله تعالى بها، قالت ف والله ما رام رسول الله -ص- منزله «يعنى مكانه» ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه -ص- وأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى، حتى إنه لِ يتحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى أنزل عليه، قالت : ف سرى عن رسول الله -ص- وهو يضحك، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشرى يا عائشة أما والله لقد برأك الله، ف قالت لى أمى قومى إليه، ف قلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله سبحانه وتعالى هو الذى برأنى، قالت ف أنزل الله سبحانه وتعالى: إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم -

ال عشر الآيات من سورة النور - رواه البخارى ومسلم).(٥٢)



ندر أن يجتمع ل حديث شريف مثل هذا التوثيق، ومن ثم فـَ إنه قُلّة درجات الصحة وهو ثَرِّب المعطيات، غنى ب المعانى، ملىء ب الدلالات متضلع ب المضامين. التيمية عائشة على لسانها جاء كرتين : «وحى يتلى» و«أمر يتلى» لا «يدون آو يكتب أو يرقم أو ينسخ» أى أن الأصل فى القرآن الكريم التلاوة والقراءة والحفظ فى الصدور.

وفى الحديث أن «الحبيب المصطفى» بعد أن هلّت آيات البراءة طفق يضحك ونقل اليها البشرى وحق له أن يفعل وأن يقول فقد حققت الآيات البينات أمنيته لا فى براءة زوجته الحبيبة فهو لم يساوره فى ذلك ريب وإنما لأنها «الآيات» إعلام ل الكافة بها ومن ثم فإن ما فاهت به بنت التيمىّ أبى بكر من تطلعها أن يرى «الأمين» رؤيا تبرئها فى غير محله لأن البراءة لو سيقت عن هذا الطريق لما كفت ولعقب المنافقون الحاقدون: إن الرؤى تخضع لتعبيرات مختلفة وتفسيرات شتى وتأويلات متباينة بعكس الآيات الحاسمة التى قطعت دابر أى شك وقضت على كل التباس وأنهت سائر ضروب الريب، هذا من أهم دوافع سرور«حامل لواء الحمد» وضحكه.

فقد قمعت هذه النصوص ابن سلول وتبعه ودحرتهم، وأكدت أن مقامه السامى لا تنال منه هذه المزاعم العفنة والافتراءات الحقيرة والادعاءات الباطلة. ومن رجا آخر وثقت طهارة بيت صاحبه ووزيره الأول التيمى بن أبى قحافة وردت إليه كرامته التى حاول المبطلون خدشها ورفعت رأسه وأعادت إليه مكانته. ولم تكتف الآيات به بل كَ نتيجة حتمية لها أهدى للمسلمين الذين خاضوا فى موحل الإفك عقابهم: حسان ومسطح وحمنة

---

(٥٢) (أسباب النزول) ل الواحدى - ص ٢١٧ - مصدر سابق.
(لباب النقول فى أسباب النزول) ل السيوطى- ص ١٢٣ وما بعدها- مصدر سابق.
وأثبت أنه أخرجه الشيخان أى البخارى ومسلم.
وأضاف: فى الباب عن ابن عباس وابن عمر عند الطبرانى - وأبى هريرة عند الطبرانى وأبى اليسر عند ابن مردويه.
و (المقبول في أسباب النزول) ل أبى عمر نادى بن محمود حسن الأزهرى ص ٤٨٢ وما بعدها مرجع سابق- وقال عنه أخرجه البخارى ومسلم وأحمد فى المسند وابن جرير في التفسير والبيهقى فى الدلائل والواحدى فى أسباب النزول.

بنت جحش إذ أقيم عليهم حد القذف. . وهكذا حققت الآيات التى ظهرت كل ما أمّله « المدثر» وزوجته وأبواها ورهطاهما بل وكافة المسلمين.

وهكذا بـ الأدلة الدوامغ يتوثق ما ذكرناه من تمكّن علاقة جدلية حميمة بين «الهدي = القرآن» وبين المخاطَبين به وعلى رأسهم القائد وهى علة تنجيمه أى انبثاقه مُنجّماً بـ خلاف التوراة / اللوحين، أو اللوحين/ التوراة التى هبطت دفعة واحدة من العلياء مرقومة «= بـ أصبع الرب » وجاهزة.



[٨]

تعاقدت نسون «أبى القاسم» على طلب زيادة فى النفقة وسألنه شيئاً من عرض الدنيا أو آذينه بـ غيرة بعضهن على بعض أو أنه تأذى ببعضهن، فـَ أقبلت الآيتان الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون من سورة الأحزاب « يا أيها النبى قل لـ أزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فـَ إن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً» «بالحل الناجع وبما أزاح عن كاهل «سيد ولد عدنان» هذه الأزمة العائلية التى أوشكت أن تعصف بـ البيت المحمدى الرفيع العماد والمثل الأعلى والقدوة الطيبة والأسوة الحسنة لكل المسلمين لا فى ذياك الزمان المدهش بل فى ما تلاه من أعصر. (٥٤)



من أدلة الثبوت على شدة وقعها على «خيرة أهل الأرض» أن التيمى أبا بكر قام إلى عائشة ابنته يجأ عنقها ومثله فعل العدوى ابن الخطاب مع ابنته حفصة.

إنما الحجة الدامغة هى أن «صاحب الخير» اعتزل نسونه شهراً أو

---

(٥٤) «تفسير القرطبى »- المجلد الثامن ص ٥٢٤٤ - مصدر سابق.
«أسباب النزول » لـ الواحدى ص ٢٤٠ مصدر سابق.
«المقبول من أسباب النزول» لـ أبى عمر نادى الأزهرى مرجع سابق.
وقال عنه : أورده مسلم فى صحيحه والنسائى فى سننه الكبرى، وأحمد فى المسند، ومحمد بن سعد فى طبقاته الكبرى. ومن هذا تثبت صحة هذا الحديث.

تسعة وعشرين يوما وهو لم يقدم عليه إلا لفداحة موقفهن لأنه صرح أكثر من مرة أن الذى حبب إليه من الدنيا أمران :

الطيب والنسوان كما قرأنا فى سيرته العطرة، إن من عاداته المستقرة أن يمر على بيوتهن جميعا كل ليلة، (أخرج ابن سعد عن سلمى مولاة رسول الله - ص- قالت طاف رسول الله -ص- على نسائه التسع ليلة).(٥٥)

وسلمى مولاته/ خادمته هى التى أرسلها لِ تبشر زينب بنت جحش بِ انبثاق آيات من الذكر الحكيم بِ نكاحه إياها وإذْ تحققت الخطة التى أحكمت تدبيرها الأسدية «بنت جحش» سيطر عليها الفرح وشملها السرور وعلتها الغبطة فَ نفحت سلمى المولاة/ الخادمة أوضاحها التى عليها وقت ذاك وسلمى هذه بحكم وجودها معه بين نسونه هى أعرف الناس بِ أحواله الشريفة مما يعلى من مكانة هذا الحديث الذى يقويه غيره من الأحاديث والأخبار فى هذه الخصوصية.

(وقال ابن سعد عن الواقدى عن موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال: قال رسول الله -ص- كنت من أقل الناس فى الجماع حتى أنزل الله على الكفيت فما أريده من ساعة إلا وجدته وهو قدر فيها لحم).(٥٦)

وبرهان آخر يضاف هو أن الاعتزال شمل جميعهن غير الجميلات مثل سودة وحفصة والوضيئات الحسناوات مثل عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش اللائى حملت إلينا مؤلفات سيرته السامية المنيفة أنه يديم التردد على حجراتهن.



فى هذه الأزمة النفسية التى ألمت بِ «صاحب الحُجّة» والتى تمنى زوالها جاء «أحسن الحديث» الذى يعايش ولا ينفصل عن الواقع الحياتى وتربطه وإياه آصرة قوية الأسر بِ الفرج فَ أشرقت آيتا التخيير اللتين أوردنا نصيهما فيما سبق. فَ خيّرهن وجميعهن رفضن التسريح وهذا هو

---

(٥٥) (الخصائص الكبرى) للسيوطى - الأول- باب الآية فى جماعة -ص- ١٦٧ .

(٥٦) ذات المصدر والصفحة- وفى هامشها:

حبب إلىّ النساء ورزقت الكفيت أى ما أكفت به معيشتى يعنى أضمها وأصحها وقيل أراد بالكفيت قوة الجماع ا.ه.

المتوقع إذ لا يعقل ألا تريد واحدة منهن الله والأجر العظيم والعشرة المثالية مع «متمم مكارم الأخلاق» وتفضل عرضاً من الدنيا قليلاً.

ومن البديهى أن يسر خاطره ويفرح:

«قالت عائشة - رض- ف فرح بذلك النبى -ص- وضحك». (٥٧)

وحق له أن يفعل فقد انفكت معضلة كادت تتسبب فى صدع حياته العائلية، وبذا- هلّت إشراقات من الذكر الحكيم آزرت «المصطفى» ووقفت ب جانبه فى شدته وأخذت بِ ناصره وأزاحت عنه ما غمّه وأقلقه، تماماً مثل ما حدث فى المرات السوابق.



عندما نزح إلى قرية الحرتين «صاحب البيان» وتبعته القلة التى آمنت ب دعوته واعتنقت الديانة التى بشر بها فى أم القرى ل مدة ثلاثة عشر عاماً ثم عَدَن بأثرب برهة درس فيها ب عناية مكثفة الأحوال إنْ فى داخلها أو فى ما حولها بعدها بدأ يرسل السرايا وحرص على ألا يؤمّر عليها أحداً من غير المنازيح وخاصة القرشيين ل أسباب يدركها اللوذعى وينقهها الفطن ويلمحها الذكى. وهناك نفر من المؤرخين الأثبات على رأسهم الواقدى يؤكد أنه لم يشرك أحداً من بنى قيلة فيها حتى غزاة بدر الكبرى وهو ما نرجّحه وعللناه فى كتاباتنا السوابق.



لم يمض عليه سوى سبعة أشهر حتى استهلها ب سرية وضع على رأسها عمه الحمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر الأحمر وبعدها ب شهر واحد عقد لواء آخر ل عبيدة بن الحارث إلى رابغ، ولم ينصرم شهر حتى استنفر ثالثة ألقى زمام قيادها إلى سعد بن أبى وقاص وجهه إلى خرار الجُحفة القريب من خُمّ. (٥٨)

ثم غزا ب نفسه الشريفة الأبواء على رأس أحد عشر شهراً وفى الثالث عشر بواط حَيال ضبّة من ناحية ذى خشب ثم أعقبها غزاة بدر الأولى أو

---

(٥٧) (التيسير خلاصة تفسير ابن كثير) المتوفى سنة ٧٧٤هـ - بقلم محمود محمد سالم- خريج الأزهر - ص ٩١٢.

(٥٨) يوجد فى خم غدير يؤكد إخوتنا الشيعة أن «المحمود فى الأرض والسماء» أعلن أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وعطر مرقده هو وصيه وهم يحتفلون بِ هذه المناسبة وأهل السنة والجماعة ينكرون مسألة الوصية مع ملاحظة أن حديث غدير خم ورد فى صحيح البخارى - انتهى.

الصغرى وما إن بزغ هلال السادس عشر حتى شهد غزوة ذى العشيرة. وبعدها ب أربعة أسابيع سرية نخلة وأميرها عبد الله بن جحش وس نقلّب أخبارها فيما يلحق. ثم سرايا وغزوات أخريات لا موجب ل ذكرها لِ أننا لسنا ب صدد استقصائها ف ليرجع اليها من أراد فى مصنفات السيرة المحمدية العاطرة الفاخرة.



لماذا أقدم «المصطفى» على إنفاذ السرايا ثم بعث الغزوات ولم يمر على مقامه ب ببلدة الأثارية سوى شهور قليلة؟

هناك بواعث عديدة لَبَكَ بعضها بالبعض واختلط أحدها بِ الآخر وأنشب أولها ب منتهاها والتبس المجلى «السابق » ب المصلى «اللاحق له» ومن ثم يتعذر ترتيبها، منها : النشأوى « من النشأة» والنفسى والسياسى والاقتصادى، ولذا فسوف ننسخ طرفاً منها بِ أيأته «هيأته» المتشابكة ونحاول على قدر الطاقة والوسع تصنيفها:

١- من استقراء المعالم التاريخية والأنساق الاجتماعية ندرك أنه لدى عربان شبه جزيرة العرب الميمونة فإن الغارات ومداهمة العدو وغزوه وتصبيحه أى كبسه «الهجوم عليه» وحياطته فى عماية الصبح وهو مستغرق فى نوم عميق، يشكّل شطراً وسيعاً من تكوينهم النفسى ومساحة عريضة من بنيتهم الوجدانية ومكاناً رحباً من سمتهم الشعورية، فضلاً عن أن ما تدره هذه الهجمات من عائد يتمثل فى الأسلاب والغنائم هو مصدر دخل على درجة من الأهمية والاستمرارية معاً حتى إنه من المتعذرأو المستحيل تصور وجود مجتمعهم اذا صفر من الغارات أو خلا من الغزوات أو تجرد من المنهوب أو خوى من المغصوب وهو مَعْلم متوافق تماماً مع أوديتهم غير ذات الزرع وجهالتهم التى تحول دونهم ومعرفة استخراج المعادن التى بدونها لا تقوم صناعة.

٢- إن الأخذ بِ الثأر عرف مستقر لديهم وعادة مركوزة فى نفوسهم وتقليد راسخ فى وجدانهم حتى إنهم عندما دعسوا أرض الكنانة بِ خيولهم المبروكة وغزوها واستوطنوها واستعمروها ونهبوها بقيادة عمرو بن العاص - ذلك الذى فعل الأفاعيل فى مصر المحروسة هو وجنوده

الأعاريب - جلبوا معهم هذه العادة الحضارية الرائعة وما زالت رغم ذهاب أكثر من أربعة عشر قرنا مُعشـشـة في الأقاليم التى استوطنوهـا بحد السيف بكثافة ثم عدنوا فيها مثل الصعيد ومحافظة الشرقية.



إذا تجاوزنا التنظير إلى التطبيق العملى أو بِ عبارة مقاربة إذا أنزلنا المبادئ على ما وقع فعلا نجد أن «المنصور بالرعب مسيرة شهر» علاوة على أنه ابن بجدتها فإنه أثبت- ودائماً - أنه سياسى محنك وقائد فذ وعسكرى طويل الباع واقتصادى خبير.

أطبق طواغيت مكة على أن ينزح منها تبعه مليطين لا يملك أحدهم شروى نقير حتى دورهم وضعوا أياديهم النجسة عليها فَ وصلوا إلى قرية اليثاربة وقد صفرت أيديهم حتى من الفلوس «العملات الصغيرة» وليس من بينهم من يعرف مهنة أو حرفة أو صناعة إلا النادر الذى لا يقاس عليه إذ من المعروف أن قريشاً قوم تجار والمال هو شريان البيع والشراء وب دونه يتحول التاجر إلى صعلوك. (٥٩)

ولولا أن بنى قيلة أظهروا كرماً ف آووا المنازيح ل تفاقمت أزمتهم ولَ غدوا فى وضع بئيس وانطلاقاً من نشأته الرائعة وعبقريته التى لا ضريب لها ألفى أن إرسال صحبه فى سرايا سوف يحقق له ولهم أهدافاً عديدة منها :

أولا : الموجهة ل اعتراض قوافل صناديد قريش:

أ- الراحة النفسية الكاملة التى س تشملهم بِ أن تشفى صدورهم وتريح قلوبهم وتدخل السرور على أفئدتهم من الذين أخرجوهم من بلدتهم الحبيبة وقلعوهم من دورهم واحتازوها واستولوا على نشبهم وتجاراتهم وجماعه تم ظلماً وعدواناً وجوراً واغتصاباً إذ كل جريرتهم فى نظرهم «=طَواغيت مكة» أنهم اعتنقوا الديانة التى أفشاها «سيد بنى هاشم».

ب- الخناق الاقتصادى الذى سيضرب أفراد الملأ القرشى الذين لا همّ لهم إلا جمع المال من أى طريق بغض النظر عن الوسيلة فهم يتعاملون بِ

(٥٩) فيما بعد وصف «سيد ولد آدم» أحد صحبه وفى ذات الوقت صهره ب أنه صعلوك ومن الغريب أنه بعد أقل من ربع قرن تولى هذا الصعلوك ولاية الشام لعشرين عاماً ثم خليفة عشرين أخرى!

الربا الفاحش.(٦٠)

واستحلال عرق العبيد بل وأفخاذ الإماء والجوارى، فقد نقلت إلينا مدونات السيرة المحمدية الفياضة ب النور أن بعضاً من أكابرهم تملك البغايا اللاتى عرفن ب «صواحب الرايات الحمر»، فقد سمحت أخلاق أولئك المرازبة الجحاجح أن يغدو الواحد منهم ديوثاً ولا يرى فيه مسبة أو عيبا أو نقيصة أو مما يخل ب الرجولة أو يخدش الكرامة أو يمس المروءة

ج - الغنائم والأسلاب التى يفوز بها الصحاب بعد كل هجمة وإثر كل غارة وعقب كل كبسة وغب كل هيعة ستعدل أحوالهم المالية وتجعلهم أقل اعتماداً على بنى قيلة مما يمنحهم استقلالا فى الرأى وحرية فى اتخاذ القرار وطلاقة فى التصرف.

د- تخلف فى قرية القداسة عدد من ضعفة المسلمين الذين منعتهم ظروفهم من النزوح إلى يثرب وعندما يتيقن طواغيت قريش أن «سيد البادى والحاضر» أمست شوكته قوية ويداه ذواتى طول وذراعه لها قدرة فَ لاشك أنهم سيكفون آذاهم وسيرفعون رذالاتهم وسيمنعون سفاهاتهم عنهم، لأن هؤلاء العرب الأجلاف يخبرنا تاريخهم المجيد بل يؤكد أن الجبن طبيعة فيهم والخسة غائرة فى حنايا نفوسهم والنذالة من مقومات تكوينهم ولا تردعهم إلا القوة ولا يعملون حسابا إلا لِ الغلبة فهم لا يستأسدون إلا على النحيف الأعجف المهزول. أما إذا لاحت لهم أى بارقة منعة فإنهم يولون الأدبار .

هـ - القبائل حول مكة وقرية الحرتين المتربصة المنتظرة عندما ترى آن «صاحب الزوجات الطاهرات» فثأ شدة المكاكوة وكسر حدتهم وفت فى عضدهم ووهّن جمعهم وأصابهم ب البوار وألحق بهم الخسار وأزال مهابتهم ومرّغ كرامتهم فى التراب وأوقَعهم فى المواحل فإنها «= القبائل الجافية المتبدية» ستعيد حساباتها، فَ إن وجد حلف يربطها بهم فسخته أو موالاة أنكرتها أو إيلاف ضربت به عُرض الحائط أو عقد نبذته.

وليس هذا بمستغرب على الأعاريب فهم كما وصفناهم. ثم يرقلون إلى التقرب إلى «سيد الناس جميعهم عرباً وعجماً» وإلى طلب وده والعمل على نوال رضاه.

---

(٦٠) من بين أكابر المرابين العباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد بن المغيرة قبل إسلامهما.

ثانياً : عن السرايا التى أرسلت إلى القبائل:

أ- يأتى فى البدئ الظفر ب الغنائم فـ هو قاسم مشترك مع الأول «التعرض ل قوافل أهل مكة» والعنصر المادى عامل فى غاية الخطورة ويتوجب أن يتوافر ل المنازيح فى أقرب آونة، لأن المليط من النشب الصفر اليدين من المال، الخالى الوفاض، المملق تراه زائغ البصر، مشوّش الفكر، نفسيته محمومة ووجدانه مضطرب، ومثله لا نفع منه فى شأن دينى ولا رجاء فى أمر دنيوى.. خاصة أنهم «= النزحة » جرثومتهم «أى أصلهم وأسّهم» من سخينة (٦١)

وقد وصف الذكر المعظم بنى سخينة أنهم «يأكلون التراث أكلاً لمّاً، ويحبون المال حباً جماً» (٦٢)

ب- نشر الديانة الإسلامية التى جاء بها «النذير»، ففى حديث محمدى لا مطعن عليه ورد فى صحيح مسلم أنه أمر أن يقاتل الناس حتى ينطقوا ب الشهادتين فـ إن فعلوا عصموا دماءهم وأموالهم، وكذا آية السيف وهى الواحدة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة التى هى باتفاق مدنية وهناك من رأى أنها أشرقت فى رحلة النزوح ما خلا بضع آيات.

ونحن ملزمون ب احترام اتفاق العلماء الأثبات على أنها مدنية إذن هى ب استنطاق وقائع السرايا والمغازى والبحوث.. قد هلّت قبل تحريكها أو تسييرها أو استنهادها، ومن ثم قرأنا فى أخبار بعضها لا كلها أن قائد أو أمير وأعضاء السرية ملزم ب دعوة المغزوين أو المصبّحين «بفتح الباء مع التشديد» أو المهاجَمين «بفتح الجيم» إلى الدخول فى دينهم- دين الإسلام. فـ إن فعلوا شملتهم عصمة الأبشار والأموال وإن استكبروا أعملوا فيهم السيف فـ قتلوا رجالهم عن بكرة أبيهم وأسروا من استأسر «رفع الراية البيضاء» واسترقوا ذراريهم وفتياتهم ونسوتهم فإما استبقوهن ل المتعة أو الخدمة وإما باعوهن فى أسواق النخاسة واستوفوا أثمانهن.

---

(٦١) سخينة هى قريش، هكذا وصفها كعب بن مالك فى إحدى هجائياته ل المكاكوة وقد أعجب الحبيب ب هذا الوصف وهذا الشعر وقال له : ما نسى ربك وما كان ربك نسياً شعراً قلته -ا.هـ. ومالك أحد شعرائه المدافعين عنه مثل حسان بن ثابت وكعب بن زهير- «دلائل إعجاز القرآن» ل عبد القاهر الجرجانى- قراءة وتعليق أبو فهر محمود محمد شاكر- ص ١٧ طبعة سنة ٢٠٠٠ مكتبة الأسرة- الأعمال الدينية- الهيئة المصرية العامة.

(٦٢) سورة الفجر / الآيتان التاسعة عشرة والعشرون.

وفى كلتا الحالتين هم الكاسبون ف إن لم يذعن المغزون فى عقر ديارهم وأبوا الإيمان بِ عقيدتهم غنموا الأموال والأسرى «الرجال» والنساء الفتيات والذرية أما إن أسلموا ف عليهم ب الظعن إلى أثرب لأن الإسلام لا يتم إلا به، فَ هذه قاعدة أصلها حديث محمدى شريف فى غاية الصحة، وهنا يغدو الرجال قوة تضاف إلىَ جيش المسلمين ويفرز اتساعاً لرقعة الإسلام كما يؤدى إلى موازنة تدريجية بين عدد المنازيح وعدد الأثاربة وفيه ترسيخ ل مركز «خيرة خلق الله» وهو يعمل ب همة قعساء على إنشاء دولة قريش- حلم أجداده قصىٌّ وهاشم وعبد المطلب.

ج- إشعار القبائل فى كافة أنحاء الجزيرة العربية المباركة بأن نجم بنى سخينة أو المكاكوة أو طواغيت قريش فى أفول ومنعتهم فى طريقها إلى الضمور وضوءهم فى ذبول ومكانتهم فى انحدار، ومن ثم ف على كل قبيلة تحكيم عقلها ف لا تختار الجانب الذى يتدحرج بِ سرعة نحو الهاوية.

د- فى صفحات السيرة المحمدية العظيمة بضعة أخبار عن عدد من زعماء القبائل ممن راودته نفسه الأمارة ب السوء ووزّه طموحه الأرعن ودفعه شيطانه المريد أن يسيطر على الجزيرة العربية ف يمسى هو عميدها وسيدها وملكها وينافس «ذروة سنام بنى إسماعيل».

بيد أن توالى السرايا والغزوات والبعوث والفرق «= مهمتها التصفية الجسدية للمناوئين» يقطع دابر أحلام أولئك الطائشين ويقنعهم ب أنها مجرد أضغاث أحلام أو هى رؤى يقظة لا صلة لها بِ الواقع وأن وشيجتها ب الحقيقة مهترئة وحبلها ب الأوضاع الرواهنَ ذائب.

هـ - هناك حصيلة مؤكدة من الغزوات والسرايا والبعوث وهى أسر نسون وفتيات الأعادى الذين لا يستسلمون ولا يسلمون بل يظلون على عنادهم ويتشبثون ب كفرهم ويتمسكون ب ضلالهم ومن بين هاتيك المأسورات : الحسناء والوضيئة والفائقة الجمال والبالغة القسامة ومثلهن لا كفىء لهن إلا «صاحب التاج والبراهين» وقد نسخنا فيما سلف أن جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق وصفتها التيمية بنت ابن أبى قحافة أنها حلوة ملاحة تأخذ بنفس من يقع بصره عليها وأن حدّسها «عائشة» لم ينزل الأرض فَ لما جاءت إليه تستعينه على أداء مكاتبتها « «ثمن عتقها» للصاحب الذى وقعت فى قرعته «حظه ونصيبه» عرض عليها

أن يعتقها وينكحها هو ف قبلت على الفور لأنه شرف لم يخطر لها فى يقظة ولم تره فى نومة.



وفى غزاة خيبر أسرت صفية بنت حيى بن أخطب أحد زعماء أولاد الأفاعى ومن أنشط العناصر التى دأبت على التأليب والتجييش والتحريض ضد «أبى القاسم» وقد قتل زوجها كنانة بن الربيع وهو مالك أمنع وأقوى حصن فى خيبر ومن ثم أصبحت «= صفية » خلاءً من موانع النكاح فَ لما دنا منها وشملها ب نظرة فاحصة ألقى عليها رداءه «وهى عادة عربية مستقرة تعنى العزم على الزواج» وأمر بها ف حِيزت خلفه ف علم تبعه أنه اصطفاها لِ نفسه.

وسلمها ل الماشطة «الكوافيرة» أم خادمه أنس بن مالك.(٦٣) كيما تقينها «= تزينها» ف وصفتها ب أنها لم تر بين النساء أضوأ منها.

وأقيمت وليمة عرس حافلة بِ طيبات خيبر ف أكل المدعوون حتى شبعوا ودخل عليها وهم فى طريقهم إلى قرية الحرتين وتطوع أحد كبار بنى قيلة بِ حراسة القبة التى شهدت الدخول وظل ساهراً طوال الليل متوشحاً سيفه حتى الصباح ففاز بدعوة طيبة «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى» وعلل اليثربى ما فعله ب « أن هذه المرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك» (٦٤)

وما جاء على لسان أبى أيوب من نعت صفية ب أنها كافرة غير صحيح ف هى يهودية وهو قد فاه بذلك ل يعلى من قدر الحراسة التى تطوع بها أ.هـ.

إنما من باب الأمامة العلمية علينا أن نرقم أن نكاح الأسيرات الفواتن شكل قصداً هامشياً وب أى حال من الأحوال لم تستهدفه الغزوات والسرايا فى المقام الأول ولم يدخل فى حساباتها الهامة، بيد أن التحليل الموضوعى الصحيح لا يشمل القصود الرئيسية فحسب بل يتعين حتى

---

(٦٣) (تحول بعد الغزو الاستيطانى النهبوى ل دول الجوار من كبار الأثرياء).

(٦٤) «نساء النبى» ل د/ بنت الشاطىء - الفصل العاشر : (صفية بنت حيى -عقيلة بنى النضير) ص ١٥٩ وما بعدها واستندت فى ذلك إلى : «السيرة النبوية» ل ابن هشام وتاريخ الطبرى» ل ابن جرير، و «الإصابة» لِ ابن حجر .. إلخ.

يغدو مكتملا وعريّاً عن النقصان أن يضم بين حناياه الأهداف الجانبية خاصة أن الفهوم تختلف والعقول تتباين والأنظار تفترق فى توصيف الغايات ف ما قد يراه البعض جذعاً ينتهى الآخر إلى أنه فرع وما قد يذهب إليه واحد أنه جوهر يعده الآخر عرضاً ويقدر نفر أنه خطير فى حين أن آخرين يؤكدون أن أهميته بين بين.



ثالثا: عن المقيمين فى قرية الحرتين:

أ- ب النسبة إلى اليهود الذين حققوا وجوداً كثيفاً فيها وربطتهم ب بنى قيلة وشائج متشابكة: الجوار - الحلف- الولاء- المناكحة (٦٥) والعلاقات التجارية والمالية والزراعية وتنشئة الأولاد لدى القبائل اليهودية ف الأثربية التى يموت أولادها فى طفولتهم عندما ترزق ب ولد تبعث به إلى القبيلة اليهودية التى يربطها بقبيلتها عقد ل يتربى بينهم ب اعتبار أنهم أهل كتاب وفيهم البركة، وقد حدث أن كثيراً منهم اعتنقوا ديانة أولاد الأفاعى ونفر منهم رفض بشدة تركها والدخول فى الإسلام وبعضهم فضل مصاحبة اليهود الذين أجلاهم «أبو القاسم» عنها على العدن فى يثرب بين أهله وعشيرته ا هـ.

ف قد ذكرنا فيما سلف أنه فى المبتدأ عمد إلى الملاطفة والملاينة، لكن التركيبة النفسية لأولاد يعقوب من التعقيد بحيث إنها لم تستجب ربما لأن بأيديهم الكتاب المقدس الأول أو لأن التجارب المريرة التى مروا بها والتى حكى رواياتها إسطيرهم العتيق وما وقع لهم بعد تدوينه. ويضاف إليه نظرتهم المتعالية ل العرب والعربان والأعراب والأعاريب وما ترسب فى وجدانهم أنهم أرقى منهم فى سلم الحضارة، جماعه قبض نفوسهم عن مبادلة مبادرات «الحبيب المصطفى» ب مثلها ولو اكتفوا ب هذا الموقف السلبى ل هان الخطب بيد أنهم عمدوا إلى الدس ومالوا إلى الوقيعة وجنحوا إلى الفرتكة وعملوا على النقض وسعوا إلى الإتلاف وعاضدهم تقدير بنى قيلة لهم ب اعتبار أنهم أصحاب إسطير مقدس وعندهم علم وفير ب «الكتاب» مما دفعهم إلى مزيد من التحريض والتحريش والإفساد.

---

(٦٥) (= كعب بن الأشرف الذى أرسل «المنصور ب الرعب مسيرة شهر» فرقة مما يمكن أن نسميه «سلاح المهمات الخاصة» صفته جسديا أبوه عربى من طيىء وأمه يهودية».

لقد غاظهم وأحرق قلوبهم وأضغن صدورهم أن ما توعدوا به بنى قيلة من ظهور نبى من سلالة إسحق بن يعقوب يستنصرون به عليهم لم يتم إنما الذى دفع الإحباط ل الهيمنة على نفوسهم ووز اليأس ل السيطرة على وجدناهم وحث الخيبة القوية ل التغلغل فى شعورهم هو نجاح «أكمل البشر» فى إعادة الوئام والصفاء بين فرعى بنى قيلة لأن هذا التأليف بين قلوبهم أصابهم فى مقتل ف هم يستثمرون الشقاق بين العشيرتين ويتكسبون من الفرقة بين الرهطين ويتربحون من دوام التناحر بين الفريقين. وفى محاولة يائسة ومخطط ساقط وبادرة خبيثة أرسل بنو قينقاع واحداً من شبانهم الرقعاء وفتيانهم المخنثين وأولادهم الخلعاء ف جلس بين اليثاربة وأخذ ينشد أشعاراً مما قاله الجانبان فى «يوم بعاث»(٦٦). فاشتعلت الحماسة واتقدت الحمية وارتفع لهيب العصبية وامتشقوا السلاح ل يحارب بعضهم بعضا ول يستكملوا ما بدأوه فى وقعة «بعاث» لولا شجاعة «سيد أهل الله» وحكمته وذلاقة لسانه ف أغمدوا السيوف وطفقوا يتعانقون وعيونهم تفيض ب الدمع السخين ندماً على السقطة التى ترددوا فيها والزلة التى ارتكبوها والخطيئة التى مارسوها والفحاشة التى أقدموا عليها، ومما زاد مرارتهم وضاعف ندمهم وعمق أساهم أنهم لم يلتفتوا إلى مكر أولاد الأفاعى ولم ينتبهوا إلى خبثهم ولم يفطنوا إلى مكيدتهم.

هنا أدرك «الصادق المصدوق» أنه لا فائدة فيهم أو معهم وأن النعوت التى وسمهم بها عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم صحيحة، ونقه أن الانتصارات التى يفوز بها فى المغازى والسرايا وترفع رايته إلى عنان السماء ستدفعهم إلى التزام جحورهم والقبوع فى وكورهم والخنوس إلى أكنستهم.

بيد أن هذا الهدف لم يفلح ولم ينجح كله ولم يظفر جميعه بل فاز جزئياً ف بعد بدء المغازى والسرايا لملم بنو إسرائيل أرجلهم المفرشحة إنما

---

(٦٦) عركة شهيرة بين الأوس والخزرج حدثت قبل الإسلام، سقط فيها قتلى من كلٍ وتوزع فيها أولاد الأفاعى فَ حالف بعضهم الأوس والآخر الخزرج . ا.هـ.

ظلت أياديهم الوسخة وأصابعهم القذرة وأناملهم الملطخة وراحاتهم الدرناء تعمل فى الخفاء ف تحيك الدسائس من وراء ستار وتدبر المكائد فى العتمة وتخطط للفتن فى الظلام ومن ثم عالجهم «السراج المنير» ب الدواء الناجع ل شرورهم وعاجلهم ب ما استأصل شأفة آثامهم وقضى على سمومهم ف قتل من قتل وغرب من غرب.

ب- وصفنا المنافقين ب المعارضين السياسيين الذين هم ب بمثابة الشوكة فى الحلق أو الطابور الخامس الذى يمالئ العدو ويعاون الخصم ويعاضد المحارب ويساعد المهاجم وأخطر ما فيهم إظهارهم المودة وإبطانهم العداوة وإبرازهم الصفاء وإخفاؤهم الضغينة وإعلانهم الإخلاص ودسهم الشحناء.

من ثمة طفق «سيد ولد آدم» يعدهم من ألد الأعداء وإن اضطر إلى ملاينتهم لأنهم ينطقون ب الشهادتين ويؤدون صلوات النهار بل ويحضرون بعض مجالسه الشريفة ب حسبان أنهم من الصحب الخلص والتبع الأوفياء.

وجاءت المغازى والسرايا ضربة على رؤوسهم، إذ انتصر «سيد البادى والحاضر» فى عامتها وفلج فى غالبيتها وظفر فى أكثريتها الأمر الذى أصابهم بالغم وملأهم ب النكد وشحنهم ب الكراهية حتى إنهم فى بعض الغزوات والسرايا اضطروا إلى الخروج وسبق أن أوضحنا دوافعهم.



بعض بنى قيلة آمن بدعوة «أشرف ولد عدنان» وهو فى المشاعر المقدسة قرب مكة وتحديداً فى منى واندفع جمهور غفير منهم إلى اعتناق الإسلام على يد مندوبه الذى بعث به إلى قريتهم مصعب بن عمير وهو أحد الصحبة الخلص المتجردين بينما الغالبية أسلمت عند نزوحه إليهم. إنما الذى لا مشاحة فيه أن شطراً لا بأس به من الأثارية ظل متردداً يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى، يظهر ثم يخنس، يبرز ثم يكنس، والدوافع كثيرة والبواعث متعددة والتحضيض أنواع منها:

الحماسة ل العقيدة السابقة أوالاقتناع ب آراء يهود أو لِ انتصاب العلاقات الملتبكة التى ذكرناها فيما سلف ربما أكثر من مرة.

فَ جاءت الغزوات والسرايا والبعوث تضع حداً لِ الذبذبة ولو أنه لم يتم دفعة واحدة ، فَ حين ينتصر المسلمون مثل ما حدث فى بدر الكبرى يتشجعون ولما ينكسرون كما فى غزاة أحد يتقهقرون إذ طفقت نفوسهم تخاطبهم: لو أنهم على حق لما تخلى عنهم ربهم، ولضيق أفقهم لم يدركوا أن الفلج والخيبة فى المعارك مرجعها إلى حُسن التخطيط أو سوئه ودقة الاستعداد أو خربقته وثقل التسليح أو هزاله وهكذا، ولا صلة لهما البتة بِ الماورائيات ولا وشيجة بينهما وبين الغيبيات ولا حبل يربطهما بِ العوالم الخفية ولا علاقة لهما بِ الكائنات غير المنظورة إلخ، إلخ.



لما شالت كفة الهزائم ورجحت كفة الانتصارات السواحق وارتفعت الرايات المحمدية إلى أعلى عليين، وإذا شئنا الدقة رقمنا أنه بدأت تلوح فى الأفق بشائر الظفر وتظهر علامات الغلبة وتحصحص آيات النجاح، خلف المترددون وراء ظهورهم التذبذب وتركوا الإحجام وفارقوا الارتجاج وطفقوا يعتنقون الديانة الإسلامية على ريث لا على عجل وعلى مهل لا على سرعة وبِ روية دون اندفاع. بيد أن مصنفات سيرة «المحمود فى الأرض والسماء» أخبرتنا أن إسلامهم لم تشبه شائبة ولم تخالطه عكارة ولم تفسده غبرة وغدا شطر وسيع منهم من خيرة الأصحاب وأبلى بعضهم فى سبيل الإسلام بلاءً حسناً.

❖ ❖ ❖

تلك إذن الأسباب أو الدوافع التى وزّت «صاحب الجهاد» على إصدار قراره الحاسم القيام بِ المغازى وبعث السرايا وإرسال البعوث وإنفاذ فرق المهمات الخاصة التى اقتصرت على تصفية الأعداء جسدياً واشتبكت البواعث بِ النتائج وبلغ فى عدد منها حداً يصيب بِ الربك ويدعو لِ الحيرة ويستنفر الدهش، إذ من الصعب التوصل إلى رأىٍ سديد: هل هذا حضيض أم محصّلة؟

إنما فى مغلاق الشأن تبقى حقيقة مؤكدة أنه أثبت ويثبت دائماً فى مختلف مقاطع سيرته المعطاءة أنه عبقرى لا يفرى فريه أحد وفاذ شديد الفذوذة لم تر له جزيرة العرب مثيلاً ولا حتى شبيهاً.

إذ إن القرار الذى نسخناه فى فاتحة هذه الفاصلة «= إرسال الغزوات والسرايا والبعوث» من أحكم القرارات التى اتخذها فى حياته المباركة والحصيلة التى نتجت عنه بكل المقاييس: العسكرية والاقتصادية والأمنية والاجتماعية والاعلامية والسياسية فاقت كل التصورات حتى إن عصبة ممن رقموا سيرته المجيدة بَهَرتهم المغازى فاحتلت رجاً مفرطحاً من مصنفاتهم ولو أننا نفاصلهم فيه لأن فى مذهبنا أن الحقبة المكية هى الأعظم والأشمخ ولو أن كل مراحل حياته الشريفة هى كذلك وخاصة فترة التأسيس (٦٧) فهى ذروة سنام التألق وقُلة «بضم القاف» الروعة وقمة السمو.



جماع ما سبق هو فرشة ل السرية التى هلّت عقبها آيات من (الموعظة = القرآن) تقف بِ جانب «المعصوم من الناس» تعاضده وتؤازره وترفع عنه الحرج وتنفى عنه الضيق وتغرّب عنه القلق وتخرس ألسنة الشانئين وتلقم الأعداء حجراً وتقطع حجة المناوئين.

تلك هى «سرية نخلة» أو «سرية عبد الله بن جحش» الذى أمرّه «من تنام عيناه ولا ينام قلبه» على نفر من قريش ودفع إليه كتاباً أى رسالة مكتوبة على صحيفة من جلد مطوية لا يفتحها إلا بعد مسيرة ليلتين وفى بقعة يطلق عليها «بطن نخلة» نشرها وقرأ ما فيها على مسلحته فإذا بها تخيير لهم: من يشاء أن يمضى معه ومن أراد أن يتخلف ويعود ل داره.

ومن البديهى أن يسمع جميعهم ويطيع لما يقطع به الرجوع من جبانة.

هذا من ناحية ومن أخرى دأبت الديانات السامية الإبراهيمية الثلاث على دمغ تبعها ببصمة «أكلشيه» الطاعة ووسمه بِ خاتم السمع ووشمه بِ علامة الانقياد وكيّه « غالبا ما يتم ذلك على جبهته» ب أثر يقطع بِ التسليم وليس مصادفة أن وردت «الطاعة» ب تصريفاتها المتنوعة عشرات المرات فى القرآن. ومن جانب ثالث إذا رفض النازح «القرشى أو غيره» الانخراط فى الغزوات والسرايا سيقال له إذن دبّر حالك وشمّر عن

---

(٦٧) خصصنا لها كتابنا السابق على هذا وقد ظهر ب عنوان (فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين) ٢٠٠١م دار ميريت.

ساعديك وقم على أمور معاشك.

ولَ نستأنف سياقة خطوات السرية:

أمره المكتوب أو الصحيفة أن يستدبر البطن «بطن نخلة» ويستقبلها هى «نخلة» وفيها فوجئوا بِ عير ل قريش وتشاور المنازيح فيما يفعلون واستقر قرارهم على مهاجمتهم ل يحتازوا ما معهم من بضائع ف حلقوا رأس أحدهم ل يطمئن القرشيون أصحاب العير أنهم عُمّار بيت الله الحرام ليأمنوا لهم ولِ يصبحوا لقمة سائغة.

وجازت الحيلة على المكاكوة وأمنوا فى أنفسهم وأخذوا يصطنعون طعاماً وبداهة ألقوا أسلحتهم وقيدوا ركابهم وسرحوها ....

هنا انتهز أصحاب السرية الفرصة وشدوا عليهم فاستأسر بعضهم وأعجزهم هرباً أحدهم وقتل آخر واستاقوا العير ومن بين البضائع خمر من زبيب الطائف وشرب الخندريس وقتها حلال زلال.

إلى هنا ومسلك المنازيح لا غبار عليه، حتى حلّق رأس أحدهم ليظن عدوهم أنهم ليسوا أهل حرب بل هم معتمرون قد يجد تبريره تحت شعار أن الحرب خدعة، بيد أن الذى عقّد المسألة أن القتال وقع فى آخر يوم من شهر رجب وهو من الأشهر الحرم وهى كما هو معلوم أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد وهو رجب ومن ثم يقال له رجب الفرد وهناك عُرف راسخ رسوخ الجبال فى جزيرة العرب المباركة أن القتال محرم فيها ولهذا العرف وازع اقتصادى، إذ إن هذه الأشهر جعلوا منها مواسم بيع وشراء وأسواقاً تجارية وتنتقل فيها القوافل فى دروب الصحراء وهى آمنة مطمئنة والذى وزّ النَزَحَة على تحطيم هذا العرف المتأصل عند جميع قاطنى الجزيرة أنهم لو تركوا العير لَ دخل الحرم ولَ أفلتت منهم الغنيمة التى يتحلب ريقهم عليها خاصة- وهذا معلم شديد الأهمية - أنها أول غنيمة يحتازها تبع «بشرى عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم».

ورجع السبعة الكرام بها وب الأسيرين اللذين استسلما إلى أثرب.(٦٨)

❖ ❖ ❖

---

(٦٨) ١- كتاب المغازى» ل الواقدى- الأول- ص ١٤ وما بعدها- مصدر سابق.

٢- «تاريخ الطبرى» ل ابن جرير - الثانى - ص ٤١٢ وما بعدها - سابق.

٣- «سيرة ابن هشام» تحقيق د/السرجانى- الجزء الثانى ص ١٧٥- طبعة ١٩٧٨ المكتبة التوفيقية / مصر.

٤- «إمتاع الأسماع» ل المقريزى - ٨٤٥ - تحقيق محمد عبد الحميد النميسى ومراجعة د/ محمد جميل غازى- الجزء الأول - ص ٦٩ - الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م الناشر: دار الأنصار ب القاهرة.

زلزلت الأرض من جراء هذا الحدث فقد اهتبل السفلة المناوئون ل «أبى القاسم» على تباين توجهاتهم النهزة وطفقوا يوجهون سهام النقد له ول تبعه: « فقال المشركون ل المسلمين: فعلتم كذا وكذا فى الشهر الحرام فأتوا النبى -ص- ف حدثوه الحديث»(٦٩)

إن عرامة الرغبة لدى ابن جحش وعسكره للاستحواذ على الغنيمة وشدة ميلهم ل تملكها وعمق تشوفهم ل وضع يدهم عليها دفعتهم إلى أن يدوسوا بِ أقدامهم على حرمة شهر رجب الفرد، ولقد وضعت فى حجورنا أسفار السيرة المحمدية الباذخة المنيفة. أن أكثر من واحد من أولئك الصحاب فى سبيل أن يستولى على السلب وهو أخفض نفاسة من الغنيمة لا يتورع أن يقتل الرجل حتى بعد أن ينطق ب الشهادتين كيما يؤكد له أنه مسلم مثله ولا يحق له قتله، الأمر الذى أحزن «الرحمة المهداة» ف مرة يسأل الصاحب القاتل أو القاتل الصاحب: هل شققت عن قلبه، أى ل تعرف هل نطق ب الشهادتين عن صدق وإخلاص أم خوفا من حرّ السيف وفراراً من القتل، ومرة يجابهه: كيف لك ب «لا إله إلا الله» ويظل يكررها من شدة بثه وعميق حزنه ودفين أساه حتى يعقب التابع الباطش الفاتك : ليته يسكت.

ثم مآبة إلى السياقة:

ذاك الصنيع النزق أصاب «صاحب النسب الموصول» وتبعه بِ الحرج فقد نبح سائر الكلاب الذين يتربصون بهم ويتمنون أن تدور بهم الدوائر وأن تنصب على رؤوسهم النوازل وأن تصك يوافيخهم المصائب:

قالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال. (٧٠)

وفى رواية ابن جرير الطبرى وهو عمدة مؤرخى الإسلام:

ف فخر عليه المشركون وقالوا : محمد يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا فى رجب. (٧١).

(٦٩) «تاريخ الطبرى» الثانى - ص ٤١٥ سابق.

(٧٠) «السيرة النبوية» ل ابن هشام - تحقيق محمد فهمى السرجانى - *الجزء الثانى* - ص ١٧٧ - مصدر سابق.

(٧١) «تاريخ الطبرى» الجزء الثانى ص ٤١٤ سابق

واضطرب المسلمون الباقون فى مكة وهيمن عليهم الريك وأصابتهم الحيرة وشملتهم اللخمة «الارتباك وثقل النفس» ومن غزارة ما اعتراهم لم يثبتوا على قول، ف مرة ادعوا أن الواقعة المشينة ارتكبت فى جمادى (٧٢) وكرة أخرى زعموا أنهم «= رجال السرية المغاوير» إنما أصابوه «يعنى القتيل» فى شهر شعبان. (٧٣)

ومعلوم أن التخبط دليل على التبلبل وبرهان على ضعف الحجة وشاهد على المرج.



ليس من المتصور أن يترك أولاد الأفاعى هذه الفرصة دون أن يخبوا فيها ويضعوا «وقالت يهود- تفاءل بذلك على رسول الله -ص- عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله، عمرو = عمرت الحرب- والحضرمى = حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله وقدت الحرب، ف جعل الله ذلك عليهم لا لهم» (٧٤)

إن اليهود لم يكتفوا ب الأقوال المرسلة بل تراهم يعمدون إلى تحريض قريش على الأخذ ب ثأر رجلهم المقتول فى الشهر الحرام = عمرو بن الحضرمى.

والذى شوّش على صناديد قرية التقديس وهم قوم تجار أنهم ذعروا من الاستهانة ب الأشهر الحرم من قبل المسلمين لأن دالته المباشرة هى إعلان موت حرمة الأشهر التى تغدو فيها وتروح قوافلهم آمنة مطمئنة بل إنهم «= المسلمين» كفنوها «=الحرمة» وصلوا عليها صلاة الجنازة. ولم يعد لها وجود ومن ثم فإن متاجرهم، وهى عماد حياتهم، أمست فى خطر داهم وشر مستطير وتهديد مستمر.

فإذا أضيف تمريغ كرامتهم فى التراب وشرفهم فى الوحل ومكانتهم فى الطين مع قتل واحد منهم وأسر أثنين أصبح ل تحضيض بنى إسرائيل إياهم على شنّ الحرب صدى عميق يلفى منهم آذاناً مصغية ونفوساً مستجيبة.

❖ ❖ ❖

.(٧٢) ذات المصدر والجزء والصفحة.

(٧٣) «السيرة النبوية» ل ابن هشام- الثانى ص ١٧٧- سابق.

(٧٤)«السيرة النبوية» ل ابن هشام- الجزء الثانى - ص ١٧٧- مصدر سابق.

ومن ثم بلغ الضيق ب «المنصور ب الرعب مسيرة شهر» مداه حتى إنه «قال لِ أصحابه : ما أمرتكم ب قتال فى الشهر الحرام». (٧٥)

ولم يكتف بِ هذا التعنيف بل إنه وقف العير وأبى أن يأخذ شيئاً.

وشعر ابن جحش وجنده بِ نكارة فعلتهم وفحاشة صنيعهم وسوء تدبيرهم « ف لما قال ذلك رسول الله -ص- سقط فى أيدى القوم وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا».(٧٦)

وتبكيت إخوانهم لهم مرده فى تقديرنا ل أمرين:

أولهما: أنهم رأوا فى فعلة ابن جحش وزمرته تحطيماً ل معلم هام وعرف مستقر وتقليد راسخ وهو الكف عن القتال فى الأشهر الحرم وعدم رضائهم عنها وعن الباعث اليتيم الذى كمن خلفها.

آخرهما: ما لمسوه بِ أيديهم وسمعوه ب آذانهم ونظروه ب باصراتهم ما أصاب سيدهم وسيد الخلق من غم وما علاه من هم واعتوره من قلق من جراء عدم تملك ابن جحش وعصبته لزمام أنفسهم وانسياقهم وراء غريزة الجشع والطمع.

❖ ❖ ❖

وإذ بلغت الأزمة ذروتها والمعضلة غايتها والمشكلة أقصى مداها ف من المستحيل أن يذر «الحق/ القرآن» «قطب الأقطاب» فى الحالة التى وصفناها، فَ أشرقت آية عظيمة تتهادى تلبى نداءه الكريم وتحقق طِلبته العزيزة وتوفر له مُنيته الملحة والتى وإن لم يصرح بها فقد كشفت عنها شواهد الحال.

«فوقف على ذلك النبى-ص- وقال: لم آمركم ب القتال فى الشهر الحرام، ف قالت قريش: استحل محمد الشهر الحرام فنزلت : «يسألونك عن الشهر الحرام» إلى قوله «والفتنة أكبر من القتل».(٧٧)

«ف قال المشركون ل المسلمين قتلتم فى الشهر الحرام ف أنزل الله تعالى: « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه- الآية»(٧٨)

---

(٧٥) «إمتاع الأسماع» ل المقريزى- الأول - ص ٧٠- سابق.

و «أسباب النزول» ل الواحدى- ص ٤٣- سابق.

(٧٦) «السيرة النبوية» ل ابن هشام - تحقيق السرجانى- الثانى - ص ١٧٧- مصدر سابق.

(٧٧) «أسباب النزول» ل الواحدى - ص ٤١ مصدر سابق.

(٧٨) (لباب النقول فى أسباب النزول) لِ السيوطى ص ٢٩ - سابق.

والآية هى السابعة عشرة بعد المائة من سورة البقرة ونصها:

«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه ويمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

أى «أن القتال فى الأشهر الحرم كبير وعظيم ولكن الأعمال التى ارتكبتموها مع المسلمين ومع النبى -ص- ولا تزالون ترتكبونها هى أكبر وأفظع وأشد خطرا على الإنسانية من القتال فى الأشهر الحرم».(٧٩)

وهنا استراحت نفس «المصطفى» الشريفة وهدأ باله واطمأن خاطره فقبل الغنيمة والأسيرين «ف لما نزل القرآن ب هذا الأمر وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق قبض رسول الله -ص- العير والأسيرين» (٨٠)

وأخذ «المدثر» خمس الغنيمة وهو أول خمس من أول غنيمة وفادى الأسيرين ب أربعين أوقية لكل منهما وهذا أول فداء ل أول أسير فى الإسلام»(٨١)

وهكذا أثبت الذكر الحكيم أنه يدور مع القائد المظفر حيثما دار ويحاثيه أينما ذهب ويواكبه أنى تحرك وما إن يتعرض ل ضائقة أو يوقعه تبعه فى ورطة أو تتآمر عليه نساؤه تشرق إحدى شموسه النيّرة «نعنى آياته» ف تجلو عنه الظلمة وتبدد من حوله العتمة وتعيد إلى أساريره الطاهرة: البسمة.

{١٠}

رداً على رسالة «أجود الناس» أرسل المقوقس هدية إليه فيها فتاتان إحداهما مارية القبطية «شابة مصرية حلوة جعدة الشعر جذابة الملامح جاءت من أرض النيل.. تحمل فى كيانها سحر مصر وفى أعطافها أريج

---

(٧٩) «سيرة المصطفى - نظرة جديدة » تأليف هاشم معروف الحسنى- ص ٣١٩ - الطبعة الأولى ١٤١٦هـ -١٩٩٦م - دار التعارف ل المطبوعات- بيروت.

(٨٠) «السيرة النبوية» ل ابن هشام- تحقيق السرجانى - الثانى ص ١٧٨ سابق.

(٨١) (إمتاع الأسماع) ل المقريزى- الأول- ص ٧٠.

الوادى العطر.. (٨٢)

وعنها قالت التيمية بنت ابن أبى قحافة « ما غرت على امرأة ما غرت على مارية وذلك أنها جميلة من النساء دعجة فأعجب بها رسول الله - ص- وكان أنزلها أول ما قدم بها فى بيت الحارثة بن النعمان وكانت جارتنا وكان رسول الله -ص- عامة النهار والليل عندها حتى فرغنا لها فجزعت فحولها إلى العالية وكانت يختلف إليها هناك وكان ذلك أشد علينا ثم رزقه الله منها الولد وحرمناه. (٨٣)

وذكر المحققان أن المؤلف إمام عالم بلغ منزلة رفيعة فريدة فى العلم وشهد له بها شيوخه وأساتذته وله عشرة مؤلفات فى شتى فروع العلوم الإسلامية خلا «السمط» مما يضفى على كتاباته سمة الصحة والصدق.

وتضيف الدكتورة عائشة عبد الرحمن أنه فى ذياك الوقت شارف الستين وتزوج بعد السيدة خديجة عشر زوجات منهن الشابة الفتية والمرأة الناضجة.(٨٤)



عن عائشة قالت:.. فلما كان يوم حفصة، استأذنته أن تأتى أباها فأذن لها فذهبت فأرسل إلى جاريته مارية فأدخلها بيت حفصة قالت حفصة: فرجعت فوجدت الباب مغلقاً، فخرج ووجه يقطر وحفصة تبكى فعاتبته فقال أشهدك أنها علىّ حرام انظرى ولا تخبرى بهذا امرأة وهى عندك أمانة»(٨٥)

أما الواحدى ف يطلعنا على الحوار الذى دار بين «متمم مكارم الأخلاق» وبين زوجته العدوية حفصة بنت عمر الذى مسّ مارية فى حجرتها وعلى فراشها «دخل رسول الله -ص- ب أم ولده مارية فى بيت حفصة فوجدته حفصة معها فقالت: لِم تدخلها بيتى ما صنعت بى هذا من بين نسائك إلا من هوانى عليه، فقال لها لا تذكرى هذا لعائشة هى علىّ حرام إن قربتها. قالت حفصة، وكيف تحرم عليك وهى جاريتك فَ

(٨٢) (نساء النبى) ل د/ بنت الشاطىء ص ١٩٠ وما بعدها- مرجع سابق.

(٨٣) (السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين) تأليف الامام محب الدين الطبرى- المتوفى سنة ٦٩٤هـ - تحقيق أ.د/ حمزة النشرتى والشيخ عبد الحفيظ فرغلى ص ص ٢٤٦/٢٤٧- الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ/ ١٩٩٦م - الناشر هو المحقق الأول.

(٨٤) (نساء النبى) - ص ١٩٢ - سابق.

(٨٥) (المقبول من أسباب النزول) د/ أبو عمر الأزهرى - ص ٦٨٣ مرجع سابق.

حلف لها ألا يقربها قال لها لا تذكريه لأحد»(٨٦)

وفى «المختصر» : «قيل أصاب رسول الله مملوكته مارية القبطية فى بيت زوجه حفصة بنت عمر وفى يومها فوجدته حفصة فى ذلك فغارت فقال: ألا ترين بأن أحرّمها فلا أقربها قالت: بلى فحرّمها على نفسه وقال : لا تذكرى ذلك لأحد»(٨٧)

حفصة من بين فريق الزوجات غير الجميلات نكحها «المعصوم من الناس» إرضاء ل العدوى ابن الخطاب الذى يعتبر ب مثابة وزيره الثانى وقد عرضها قبله على كل من التيمىّ أبى بكر والأموىّ عثمان فَ رفضاها رغم شبابها الغض إذ لم تصل إلى العشرين وكثيراً ما ردد أبوها على مسامعها أن «سيد الناس» لا يحبها ولولا هو لَ طلقها ومع عدم اتسامها بِ القسامة ورثت عن بنى عدىّ حدة المزاج ويبدو أنه لم يطق عشرتها وقد جمعت بين الأمرين فَ طلقها لكنه سرعان ما راجعها لأنه أدرك أن طلاقها سوف يغيّر قلب العدوىّ وهو من ركائز مجلس شوراه وله مناقبه.

وهى أيضاً من اللائى استبقاهن على ذمته لِ أسباب أخرى بخلاف الرغبة فيهن كزوجات وتنضم إليها سودة بنت زمعة وأم حبيبة بنت أبى سفيان بعكس اللاتى استبقاهن لِ ذواتهن بغض النظر عن اى اعتبار آخر وهنّ: عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش اللاتى تمتعن بِ حسن فائق ووضاءة بالغة وجمال فاتن وحلاوة آسرة وقسامة أخاذة.

وهذا يفسر قول العدوية: ما صنعت لى هذا من بين نسائك إلا لِ هوانى عليك. ومن المفسرين المحدثين اخترنا عبد الحميك كشك:

روى النسائى بسنده عن أنس أن رسول الله كانت له أمة يطؤها فَ لم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها فأنزل الله عزّ وجل « يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك إلى آخر الآية». (٨٨)

---

(٨٦) (أسباب النزول) ل الواحدى- ص ٢٩١- مصدر سابق.

(٨٧) «المختصر فى تفسير القرآن» مختصر من تفسير الإمام الطبرى ل ابن صمادح التجيبى وأمهات كتب التفسير- تنقيح وتحقيق د/ عدنان زرزور- فى تفسير سورة التحريم ص ٤٤٧- الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م - مؤسسة الرسالة- بيروت.

(٨٨) (فى رحاب التفسير) للشيخ عبد الحميد كشك- الجزء الثامن والعشرون - ٦ تفسير سورة التحريم - ص ٧٢٦٧- د. ت. ن المكتب المصرى الحديث - القاهرة .

ولعل القارئ لاحظ أن هذا المفسر الحديث اختصر الواقعة اختصارا مخلاً بيد أنه لم يستطع أن يشكك فيها وأورد سندها.

والمؤلفون المحدثون على بكرة أبيهم فى ضروب الإسلاميات ينهجون ذات التهج متوهمين أنهم على حق وأن سلفهم الصالح قد ذكروا الوقائع كما هى على ضلال وبداهة وهو منهاج فسيد فَ علاوة على مجافاته ل الموضوعية والأمانة العلمية فَ هم ليسوا بأكثر تقوى ولا أشد ورعاً ولا أعمق إيماناً من السلف.

❖ ❖ ❖

بعد أن حلف «ذروة بنى هاشم» لِ العدوية ألا يقرب أم ولده مارية القبطية وهى بِ الوصف الذى جاء على لسان التيمية عائشة وهو فى ذات الوقت شديد الإعجاب بها وعامة النهار والليل عندها وهى فِ نفس الحين أمته وسريته وملك يمينه ومن حقه أن يأتيها -أى يمسها -متى شاء فَ هذا حقه وحق أى مسلم. تسببت العدوية حفصة إذن بِ غيرتها الملتهبة ومزاجها الحاد فى أزمة لِ «سيد الأولين والآخرين» فَ إما ألا يأتى ناحية مارية وهى من هى وإما أن يحنث بِ حلفه وحاشاه أن يفعل وهو إمام المتقين وصاحب الخلق العظيم والشمائل الكاملة والمناقب الشريفة مما لا يتصور معه أن يفعل.

ولِ الإبانة عن وقع الضيق على نفس «الفدغم»(٨٩) نذكر أنه لم يحب من الدنيا سوى الطيب والنسوان «عن الزهرى عن النبى - ص- قال: رأيت كأنى أُتيت بقدر فَ أكلت منها حتى تضلعت فما أريد أن آتى النساء أى ساعة إلا فعلت منذ أكلتها».

وعن مجاهد قال «أعطى رسول الله - ص - قوة بضع وأربعين رجلاً كل رجل من أهل الجنة» أى فى الجماع.(٩٠)

بيد أن القرآن المجيد لا يفاصله طرفة عين يعاضده فى كل موقف ويقف بِ جانبه فى كل حين فتظهر الآيتان الأولى والثانية من سورة

---

(٨٩) الحسن الجميل والعظيم الجليل «سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد» ل الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى المتوفى سنة ٩٤٢ هـ وهو المعروف ب «السيرة الشامية» الجزء الأول - ص ٦١٢ تحقيق د.مصطفى عبد الواحد - الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢- لجنة إحياء التراث الإسلامى - المجلس الأعلى ل الشئون الإسلامية ب مصر.

(٩٠) «الخصائص الكبرى» ل السيوطى - الأول- ص ١٦٨.

ومعلوم أن أهل الجنة لا يعيهم نصب ولا لغوب ب « أى تعب أو إرهاق» أ.هـ.

التحريم « يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم».

إذن فَ ما عليه إلا أن يكفر عن يمينه التى حلفها «قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم» أى أوجب لكم الكفارة»°(٩١)

ويذكر الشيخ عبد الحميد كشك عند تفسيره ل سورة التحريم ما يلى :

«وقال ابن جرير « يعنى الطبرى شيخ المفسرين» إن ابن عباس - رضى- كان يقول فى الحرام يمين تكفرها- وقال ابن عباس «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة» يعنى أن رسول الله -ص- حرم جاريته فقال الله تعالى : « يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك» إلى قوله : «قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم» فكفر يمينه فصيّر الحرام يميناً ورواه البخارى ومسلم والدار قطنى.(٩٢)

وبِ هذا بلغ هذا الحديث قمة التوثيق وذروة التوكيد وقمة الصحة.



ومرة أخرى، وليست أخيرة يهدى الذكر الحكيم آيتين كريمتين إلى خيرة خلق الله تفرجان عنه الضائقة وتنتزعانه من الحرج وتنفحانه الحل السعيد فَ يعود إلى مملوكته المحبوبة المعُجبة مارية القبطية بعد أن كفرّ يمينه بل إنه يغدو حكماً لكل مسلم بعده يحلف على امرأته أنها حرام عليه.



نهى «أول من تنشق عنه الأرض» العدوية بنت ابن الخطاب نهياً قاطعاً أن تخبر أحداً بِ ما حدث وخاصة زوجاته وبِ الأخص عائشة التيمية وهذا حديث صحيح أورده الحافظ «= ابن حجر العسقلانى» فى الفتح

(٩١) (تفسير غريب القرآن) ل أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة- تحقيق السيد أحمد صقر - ص ٤٧٢- الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م -دار الكتب العلمية / بيروت/ لبنان.

-(أحكام القرآن) ل الإمام الفقيه عماد الدين محمد الطبرى المعروف ب الكياالهراسى - المجلد الثانى - الجزء الرابع- ص ٤٢٥- الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣- وفى الهامش «انظر محاسن التأويل - ج/١٦- دار الكتب العلمية - بيروت. ويؤكد ذلك الكيا الهراسى أنه « لا إيمان فى مجرد التحريم».

(٩٢) فى رحاب التفسير) لِ عبد الحميد كشك- الجزء الثامن والعشرون -٦- ص ٧٢٦٧ - مرجع سابق.

والطبرانى فى تفسيره وابن جرير «الطبرى» فى التفسير والضياء المقدسى فى المختار وابن كثير فى تفسيره والهيثم بن كليب فى مسنده والسيوطى فى أسباب النزول والحاكم فى المستدرك وصححه الذهبى. (٩٢)

وطاعة « أحمد » فرض واجب على كل مسلم ومسلمة بنص القرآن المجيد. بل إن هناك آيات تقرن طاعته بِ طاعة الله جل جلاله وهو شرف لم ينله من قبله أحد من الذين سبقوه، وحفصة تعلمه حق العلم وتعيه جيداً فضلاً عن أنها زوجته ومن المنظور الإسلامى طاعة الزوجة لزوجها أمر مفروغ منه، ويوجد حديث محمدى شريف يخبرنا أنه لو الأمر بيده لأمر الزوجة أن تسجد لِ زوجها.

إذن ما الذى وزّ العدوية على مخالفة ذياك النهى الصارم؟ فَ ما إن غادرها حتى أرقلت إلى ابنة عتيق: عائشة تخبرها بِ الواقعة «فَ لما خرج نزعت الجدار الذى بينها وبين عائشة فَ قالت : ألا أخبرك؟ إن رسول الله -ص- قد حرّم أمته» أى أنها لم تنتظر حتى تدخل على بنت التيمىّ من الباب بل نزعت الجدار الفاصل بينهما. هناك أكثر من سبب ودافع لِ هذا السلوك من قبل ابنة عمر:

يأتى فى مقدمها حدة أخلاقها وهذه تمنع صاحبها أو صاحبتها من السيطرة على نفسه ويندفع فيما يندّ عنه من أقوال أو أفعال - هذا من ناحية ومن رجا آخر فإنها اعتبرت غشيان «سيد ولد إسماعيل» لِ أمته على فرشها وفى حجرتها صدعاً لِ كرامتها وما درت أنه زوج غير عادى وأن هذا يعتبر من خصوصياته التى انفرد بها عن سائر المسلمين مثل استبقائه تسع زوجات على ذمته فى حين أن سائر تبعه لا يحق لهم أكثر من أربع بل لقد دخل الديانة التى بشّر بها نفر من العُريان لكل واحد منهم أكثر من أربع «بعضهم له عشر» فاضطر إلى مفاصلة الزوائد واقتصر على الأربع، ثم نؤوب إلى السياق.

أرادت العدوية من إخبار التيمية بالحادثة تحقيق غرضين:

أولهما : أن تتحبب إليها فهى تعرف منزلتها لدى «المزمّل» فتحمل إليها بشرى تحريم مارية عليه هذه التى ذكرت ابنة أبى بكر أنها ما غارت من واحدة من نسونه مثلما غارت من القبطية الحسينة.

---

(٩٢) «المقبول فى أسباب النزول) لِ الأزهرى - ص ٦٧٨ وما بعدها.

آخرهما: أن التيمية ب مالها من مقام محمود لديه تساعدها على رأب الشرخ الذى أصاب كرامتها، إذ ليس ل العدوية «حفصة» فى نفسه من الحظوة ما يمكنها من ذلك، بل لو أن لها أقل نصيب منها لما حدثت الواقعة من الأساس.

❖ ❖ ❖

هنا دخل (قطب الأقطاب) فى أزمة جديدة أعقبت الأولى وجاءت مُصلّية لها، فقد تحالفت التيمية مع العدوية إذ تخبرنا كتب السيرة المعطار والأحاديث المحمدية الشريفة أنه «كانت عائشة ابنة أبى بكر وحفصة تتظاهران على سائر نسونه» وترسّخت الأزمة على ركيزتين:

أ- أنهما ابنتا وزيريه ومستشاريه والمساس بهما كـ طلاق أو ظهار.. إلخ لن يمر ب سهولة بل سوف يخلّف وراءه ندوبا بل جروحاً غوائر فى شتى المناحى = السياسية والأمنية والعصبية خاصة أنه يمر ب مرحلة دقيقة وسبق أن ذكرنا أن العدوىّ أفلتت من فيه عبارة من جراء حِدة مزاجه وشت ب حقيقة مكانتها وهى قوله لها = لولاى لَ طلقك.

ب- أن عائشة أحب زوجاته إليه وأصغرهن سناً وهى فى حدود الخامسة عشرة إبّان ذاك ومن أجملهن وكيف لا تغدو كذلك فـَ أبوها أبو بكر له لقب يشى بالوسامة والقسامة وهو «عتيق» وقد درجت سيدة نسون قريش خديجة رضى الله عنها فى حياتها على مناداته به كما أن والدة عائشة (أم رومان) امتازت ب عينين حوراوين بل بالغتى الحَوَر «= شدة بياض العين مع شدة سوادهما والعرب تفضله فى المرّة» ، وهناك أثر يقول: من سره أن ينظر إلى حوار عينى حور الجنة فـَ لْ ينظر إلى عينىّ أم رومان.

إذن مفارقة هذه الزوجة الجارية الصبية ذات الوضاءة البالغة أمر فيه عَنَت لأى زوج فـَ ما بالكم بـ «الأمين» الذى كثيراً ما ردد أنه ما حبب إليه من دنيا الناس إلا الطيب والنساء و « أنه كان النبى «-ص-» يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة قلت لِ أنس «وهو راوى الحديث» أو كان يطيقه؟

قال : كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين».(٩٤)

---

(٩٤) أخرجه البخارى عن طريق أنس- وهو خادم «خير البرية» وأعرف الصحاب بِ أحواله.

كما أخرج ابن سعد، عن عبيد الله بن موسى عن أسامة بن زيد عن صفوان بن سليم: قال رسول الله -ص- : أتانى جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلاً فى الجماع.

كذلك أخرجه ابن سعد عن مجاهد وطاوس واقتصر على عُجُز الحديث «أعطى رسول الله قوة أربعين رجلاً فى الجماع»(٩٥)

وهكذا تتوالى الأزمات وتظل تزحف حتى تصل إلى عقر داره كأنما لا يكفيه الأعباء الثقال التى يحملها وهو يبشر ب ديانة جديدة ويؤسس ويعلى بنيان دولة أجداده وكل واحدة منهما تنوء بها كواهل العصبة من الرجال الأقوياء الأشداء.



ويتشوف «خليفة الله» إلى ما يفك هذه العقدة وإلى نهاية سعيدة تحفظ عليه سلام بيته ولا تبعد زوجته الحدثة الحبيبة «= التيمية» عنه ويظل وزيراه المخلصان على سابق العهد بهما.

ولا يبطئ الهدى المجيد كما عوده وكَ البدر فى منتصف الشهر تظهر الآيات الكريمات « وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير، إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير»(٩٦)

وقبل أن نمضى فى التحليل الموضوعى أو التنقير والتنقيب نضع فى بؤبؤ عين القارئ أن النص الحكيم خاطب اثنتين «جاء ب المثنى» .. تتوبا .. قلوبكما وتظاهرا. حقيقة أن كلمة قلوب جاءت ب الجمع إنما ضمير الخطاب أو المخاطب ورد ب التثنية.

وهما حصراً وتحديداً التيمية والعدوية «أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : قلت ل عمر بن الخطاب: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال : عائشة وحفصة». (٩٧)

---

(٩٥) هذه الأحاديث أوردها فى «الخصائص الكبرى» السيوطى – فى المجلد الأول- فى «باب الآية فى جماعه» ص ١٦٧- مصدر سابق لنا ذكره.

(٩٦) سورة التحريم – الآيتان الثالثة والرابعة.

(٩٧) (المقبول) ل الأزهرى ص ٦٨٤- سابق.

وهكذا قطعت جهيزة قول كل خطيب أى لم تعد هناك ذرة من ريب أن المتظاهرتين هما ابنة عتيق وبنت ابن الخطاب الذى نقل عنه حبر الأمة ابن عباس الخبر.



الآيتان السابقتان طلبتا منهما الكف عن التظاهر ضد «الخاتم» بفتح التاء وكسرها سيان (٩٨). بأن خيرتهما بين أمرين:

الأول: التوبة عنها «= التظاهرة» مما يمنح دلالة أنها خطأ أو غلطة لا يجوز الاقدام عليها وحتى الاقتراب منها بل مجرد الهَمّ بها، ولقد فسّر الشيخ محمد سيد طنطاوى رأس مؤسسة التقديس بمصر «صغت قلوبكما» أنها مالت عن الحق.(٩٩) وهو تعبير أوعر من الخطأ.

أما ابن صمادح التجيبى فى «المختصر» ف يدرج هذه العَمْلة تحت بند البَغْىّ بِ السوء لِ «سابق العرب» إذ نص على ما يأتى:

وليه وناصره عليهما وعلى كل من بغاه بِ سوء. (١٠٠)

الآخر: فى حالة الإصرار على التظاهر ضده فَ إنّ ربه ناصره ومؤيده وجبريل والملائكة وكل مؤمن صالح.

وهو جمع كريم وفى ذات الوقت قوى مكين لا طاقة لبشر مهما بلغ به الجبروت ووصل به العتّو وأعماه الطغيان أن يتحداه ويواجهه فَ ما بالك بِ امرأتين أولاهما لم تجاوز الرابعة عشرة إلا بِ قليل والأخرى ناهزت العشرين، وحققت الآيتان مراد «المتوكل» وكفّت الزوجتان عن التظاهر بل لم تفكرا فى العودة إليه أبداً.

«إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما» هذا خطاب لعائشة وحفصة وتوبتهما مما جرى منهما .. ومعنى صغت أى مالت عن الصواب وقرأ بن مسعود: زاغت. والمعنى إن تتوبا إلى الله فقد صدر منكما ما يوجب التوبة.. «وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه» والمعنى إن تعاونتما عليه - ص- بما يسوؤه من إفراط الغيرة وإفشاء سره ونحو ذلك فإن له من

---

(٩٨) معاجم اللغة تخبرنا عن معنى تظاهروا أى اجتمعوا معاً لإعلان الرضا أو السخط عن أمر يهمهم.

(٩٩) (مصحف الأزهر وبِ هامشه التفسير الميسر) عند تفسير لِ سورة التحريم.

(١٠٠) (المختصر فى تفسير القرآن) لِ بن صمادح التجيبى - فى تفسير سورة التحريم- مصدر سابق.

ينصره ومولاه...»(١٠١)

وأورد الزمخشرى الخبر الذى مفاده أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب : من هما؟ فقال : عجباً يا ابن عباس، كأنه كره ما سأله عنه ثم قال : هما حفصة وعائشة. ونضيف أنه هنا قدّم حفصة على عائشة.

ثم استطرد الزمخشرى مفسراً : «فقد صغت قلوبكما» فقد وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الواجب فى مخالصة رسول الله - ص- من حب ما يحبه وكراهة ما يكره، وقرأ ابن مسعود: فقد زاغت و «إن تظاهرا» وإن تعاونا «عليه» بِ ما يسوؤه من الإفراط فى الغيرة وإفشاء سره فَ لن يعدم هو من يظاهره وكيف يعدم المظاهر من الله مولاه: أى وليه وناصره.. فَ ما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه. (١٠٢)



ومن المتيقن أنه بعد أن تابت التيميّة والعدويّة وكفتا عن التظاهر ضده ثاب إليه هدوؤه وراحته النفسية. وأثبت القرآن المجيد أنه يكلؤه بِ عنايته ويحوطه بِ رعايته ويشمله بِ اهتمامه ويتولى تفريج ما يعرض له من هموم وما ينتابه من غموم وما يمسّه من كروب على كافة المستويات، هذا من رجا ومن آخر تتبدى حكمة نزوله منجماً أى مفرقاً بِ دخوله فى علاقة جدلية مع الواقع المعاش إنْ من جهته أو من ناحية تبعه أو من جانب الأشخاص الفاعلين فى المجتمع كما سوف نرى ونحن نتابع مسيرته المدهشة المُعجبة.



{١٢}

رقمنا فيما سبق مناوأة بنى إسرائيل لِ «الزاهد» منذ اللحظة الأولى التى وطئت قدماه الشريفتان قرية الأثاربة ذات الحرتين وما انفكت سوءاتهم الفعلية وبذاءاتهم الكلامية وسفالاتهم اللسانية تترى فى الخفاء

---

(١٠١) (كتاب التسهيل لِ علوم التنزيل) - لِ الإمام العلامة محمد بن أحمد بن جزئ الكلبّى - الجزء الرابع - ص ١٣١ عند تفسير سورة التحريم - الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ ١٩٧٣م دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان.

(١٠٢) «الكشاف» لِ الزمخشرى- المجلد الرابع- ص ١٣١ عن تفسيره لِ سورة التحريم - مصدر سابق ذكره.

والظهور وفى السر والعلن وفى النور والظلماء- رغم محاولاته العديدة التى قدمها فى سبيل الموادة أو حتى الحياد الإيجابى حتى انتهى به الأمر إلى إجلاء بعضهم وقتل البعض الآخر، ويقدر بعض الإخباريين أن عدد من تمت تصفيتهم جسديا من بنى قريظة ما بين الستمائة و التسعمائة من الرجال والصبيان الذين نبت شعر عانتهم.

والجالية اليهودية فى أثرب فى ذياك العهد قدرها أحد الباحثين بـ أكثر من أربعين ألف نسمة « .. ولذلك فإن اليهود بأسرهم المبنية على زواج الأقارب التى تتكون كل منها من ستة إلى سبعة أعضاء ملاعين كانوا يشكلون عدداً من السكان يتراوح بين ٣٦٠٠٠ و ٤٢٠٠٠ نسمة» (١٠٣)

وهو عدد ليس مهزولاً بـ الإضافة إلى أن ذراعهم الاقتصادية بلغت منتهى المُكنة، وينبئنا الإخباريون أنهم تملكوا وقت ذاك أربعمائة دكان صياغة «ذهب وفضة» وهيمنوا على أسواق بـ أكملها وبعضها حمل أساميهم مثل «سوق بنى قينقاع».

وكذا لهم باع طويل فى تجارة السلاح، ولا يفهم منه أنهم أُلافّه أو ممتشقوه، فقد أثبتت السيرة المحمدية الطيبة أنهم جبناء رعاديد خلا الشجاعة الخطابية والجرأة القولية والإقدام الشفاهى، أما عند اللقاء فهم أشد اضطرابا وأبلغ ارتعاشا وأفحش ارتعاداً من النعام.

يقول الباحث د. بركات أحمد « إن من الغريب أن اليهود يظهرون فى سيرة الرسول كـ تجار للسلاح والدروع بـ نفس الصورة التى كانوا يظهرون بها فى إنجلترا فى العصور الوسطى التى يصورها الروائى الاسكتلندى والترا سكوت والظاهر أنهم لم يكونوا يستعملون هذا السلاح بـ صفة فعلية. (١٠٤)



القبائل اليهودية الثلاث: قريظة والنضير وقينقاع ربطتهم وشائج متينة بعدد من بطون وأفخاذ بنى قَيْلة، منها ما هو عقد أو حلف أو ولاء بل

(١٠٣) (محمد واليهود - نظرة جديدة) تأليف د. بركات أحمد- ترجمة : محمود على مراد- ص ٨٨ الطبعة الأولى ١٩٩٨- «الأعمال الدينية» مكتبة الأسرة- مهرجان القراءة ل الجميع- الهيئة المصرية العامة ل الكتاب.
(١٠٤) (محمد واليهود) ص ١١٠ - مرجع سابق.

وأنساب وقرابة، وللأسف فإن كتاب السيرة المحمدية المجيدة يعتمون على هذا الرجا ولا يذكرونه، إذ فى نظرهم يشين الأنصار وهذا وهم، ذلك أن الأوضاع بِ مختلف أضلاعها هى التى حتمّت انتصاب تلك العلائق ولم يخترها اليثاربة العَرَبَة بمحض إرادتهم.

المهم أن تلك الروابط وردت آيات من البيان المحكم إما بِ مناسباتها وإما تعليقا عليها :

(أخرج بن جرير من طريق سفيان الثورى عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال:

كان أناس من الأنصار لهم أنساب وقرابة من قريظة والنضير. وكانوا يتّقون أن يتصدقوا عليهم ويريدونهم أن يسلموا فنزلت:

«ليس عليك هداهم» (١٠٥)

ولعل هذا الخبر يشكل محطة عبور من الشك إلى اليقين وجسر انتقال من الريب إلى التحقق وقناة توصيل من التردد إلى الثبات بِ صدد الواقعة التاريخية وهى لبّك بنى قيلة بِ أولاد الأفاعى.

(أخرج الواحدى عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال:

نزلت فى عبادة بن الصامت الأنصارى، وكان بدريا نقيبا، وكان له حلفاء من اليهود، فلما خرج النبى - ص- يوم الأحزاب ، قال عبادة: يا نبى الله، إن معى خمسمائة رجل من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدو. فأنزل الله تعالى:

«لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء»(١٠٦)

فَ هذا العُبادة الذى يحلّى صدره لقبان منيفان، نقيب «ممن حضر أو شهد العقبة»، وبدرى «أى قاتل فى غزوة بدر الكبرى» لا يتحرج من إخطار «الناطق بالحق» بِ قيام حلف بينه وبين أولاد يعقوب بل وإنه على استعداد أن يجيّش منهم خمسمائة يقاتلون تحت لوائه- فى حين نرى الكتبة المحدثين يغمضون أعينهم ويولون ظهورهم وينأون بِ جوانبهم عن هذه الحقيقة التاريخية الموثقة التى تمتلئ بها دواوين السيرة الطيبة ومؤلفات التاريخ وكتب علوم القرآن بِ شتى ضروبها.

---

(١٠٥) (المقبول) لِ الأزهرى -ص ١٤٨- مرجع سابق لنا ذكره.
(١٠٦) (الدخيل) لِ الأزهرى - ص ٦٧ - سابق.

لقد ارتفعت الوشيجة المتينة بين الطرفين إلى قُلّة قامتها:

أخرج أبو داود وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس - رضى الله عنهما قال:

(كانت المرأة تكون مقْلاتا- أى لا يعيش لها ولد- فتجعل على نفسها إن عاش لها لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل:

«لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» (١٠٧)

إن أبجديات سنن الاجتماع البشرى تبصّرنا أن فصم حبال التواصل بين الأثاربة الإسرائيليين واليثاربة الأعاريب من المستحيل أن يقع فجأة ومن المتعذر أن يتم فوراً ومن الصعب أن يحدث بغتة، وهى ظاهرة خطيرة من الحتم اللازم أن تقلق «الملبّى» وتثير فى نفسه نوازع الاضطراب وفى وجدانه بواعث التململ، لأن استمرار هذه العلاقات الحميمة والروابط العميقة والصلات المتينة يرسّخ خطراً داهما على المنازيح، باعتبار أن اليهود وبنى قيلة من أقرب الاحتمالات يشيآن على أرض الواقع قطبى الرحا التى هى فى أى وقت على استعداد لِ طحنهم.. هذا من شق ومن آخر لعله مترتب عليه أو مرتبط به ارتباط النتيجة بِ السبب - يقف حجرة عثرة أو عقبة كأداء أو حاجزا عضالا أو شوكة صلبة حادة فى حلق الدولة القرشية التى عقد «البدر البديع» عزمه على تأسيسها فى قرية الحرتين ليثبت لِ القاصى والدانى أنه «ابن عبد المطلب» ونذكّر القارئ بِ العرض الساذج الذى قدمه عبادة بن الصامت له، بأن فى مقدوره تجنيد خمسمائة يهودى للقتال معه وبقدر ما أثبت هذا اليثربى طيبة قلبه شأن بنى قيلة على بكرة أبيهم أو أمهم وهذا هو السر فى أن بنى سخينة «قريش» فى سقيفة بنى ساعدة التهموا الكعكة وحدهم ولم يتركوا لهم فتاتة. (١٠٨) مع أن البلد بلدهم والديار ديارهم ولا تعليل لِ هذا اللغز التاريخى إلا بِ العبط وخُموم القلب لديهم، ثم نعود فَ نرقم أنه بقدر ما أثبت ذلك ابن الصامت سلامة الطوية بقدر ما أثبت «المدثر» بعد نظر وحنكة وحصافة لا نديد لها فى رفضه لِ العرض، لأنه من المؤكد- لا من

---

(١٠٧) (المقبول) لـ الأزهرى - ص ١٤٠ مرجع سابق.

(١٠٨) العامة فى مصر المحروسة تقول «فتفوتة» وهى صيغة مبالغة ا.هـ.

المحتمل فَ حسب أن يغدو الخمسمائة يهودى وحلفاؤهم من رهط ذلك العبادة نواة لِ فيْلق معارضة مسلحة وهذه داهية دهياء وباقعة صماء وِفاقرة قاصمة للظهر لا يعلم إلا الله تعالى وحده مدى خطورتها على المنازيح ودولتهم الوليد.



وكما تعودنا أنه فى اللحظات الحرجة والأوقات العسرة والأزمان العصيبة وساعات المزنق لا يتخلى عنه الذكر الحكيم بل يظاهره بقوة ويناصره بِ إحكام ويعاضده بِ أزر فَ سرعان ما تسطع كالنجم فى كبد السماء فى الليل البالغ الحُلكة آيات كريمات منه تتوعد بنى قيلة بالجزاء الرادع إذا استمروا فى ولاء بنى يعقوب وجعلته نقيضاً للإيمان ومبايناً للإسلام ومفارقاً للانقياد ومضاداً للإذعان ومخالفاً لليقين.

(أخرج ابن جرير من طريق ابن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمه عن ابن عباس قال:

كان الحجاج بن عمرو حبيب كعب بن الأشرف، وابن أبى الحقيق وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم. فقال رفاعة بن أبى عمر وعبد الله بن جبير، وسعد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء النفر من اليهود واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم، فأبوا ، فأنزل الله فيهم:

«لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء» إلى قوله : «والله على كل شىء قدير» (١٠٩)

ونسب د. عبد الله شحاته الحديث إلى ابن عباس وذهب إلى (أن الموالاة تطلق لغة على الحب والصداقة والمباطنة بِ الأسرار وتطلق على النصرة وكلا المعنيين تصح إرادته ولِ هذا لا يحِلّ لِ المؤمنين أن يوالوا الكافرين بأى معنى من معانى الموالاة ومن يفعل ذلك فَ ليس من دين الله

---

(١٠٩) (المقبول) لِ الأزهرى ص ١٥٣و ص ١٥٤- سابق ووصفه المصنف بِ أنه حديث حسن وأضاف أن الطبرى أخرجه فى تفسيره وابن حاتم فى تفسيره ونعته محقق هذا التفسير بِ الحسن وأورده السيوطى فى الدر المنثور وهكذا غدا عريّاً عن المطاعن، بعيداً عن المعايب نائيا عن القوادح ا.هـ.

و (لباب النقول فى أسباب النزول) لِ السيوطى ص ٣٧و ٣٨ - مصدر سابق.

و (أسباب النزول) لِ الواحدى ص ٦٥- سابق.



فى شىء وقد ذكر ذلك صريحاً فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم) المائدة : ٥١ (١١٠) والذى لا مشاحة فيه أن اليثاربة العرب بعد أن تلا عليهم «السابق بِ الخيرات» هذه الآيات الحاسمة التى قرعت أسماعهم وصكت آذانهم وجاءت بعقاب أليم وهو التسوية بين اليثربى العربى واليثربى اليهودى إذا ما والاه وناصره وظاهره... نقول إن بنى قيلة قد انزجروا وكفوا عن ذلك كله، ولا أدل عليه من أن أولاد الأفاعى عندما اصطدموا بِ «صاحب البيان» وبلغت المواجهة ذروتها وحكم على بعضهم بِ التغريب وعلى الآخر بقطع الرقاب لم يجرؤ واحد من العرب الأثربيين أن يؤيدهم أو يقف فى صفهم، حقيقة أن نفراً منهم تشفّع لهم عنده إنما مناصرة أو معاضدة فـ لا.

وبذلك أثمرت الآيات التى حملها القرآن العظيم مفعولها الوثيق وأثبت أنه دائما مع «الأعز الأعظم» لا يغيب عنه طرفة عين ومن ثم انفرجت عن نفسه الأبية كربة عظيمة وانزاح عن صدره الشريف هم رَجَاح وغادر قلبه الكريم غم ثقيل من الجائز أن يعيق المسيرة ويخريق الخطة ويفسد الرسم الذى ما انفك يُحكم تصويره لِ تنهض الدولة القرشية وتقف على قدميها.



{١٣}

قبيلة بنى النضير إحدى القبائل اليهودية الثلاث فى أثرب وهى تسامى بنى قريظة فى القوة والمنعة ولم تتوقف عن مناوأة «صاحب التاج» والكيد له بِ سائر أنواع الكيد. منهم كعب بن الأشرف أبوه من طيىء ثم أحد بنى النبهان وأمه منهم .. وطبقاً للشريعة الموسوية فـ هو يعتبر يهودياً و «انتخب كبيراً لليهود بدلاً من مالك بن الصيف»(١١١)

وهزم صناديد بكة فى غزاة بدر الكبرى (فـَ لما تيقن عدو الله الخبر، خرج حتى قدم مكة فـَ نزل على عبد المطلب أبى وداعة ضبيرة السهمى وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس فـَ أنزلته

(١١٠) (تفسير القرآن الكريم) لِ عبد الله شحاته- عند تفسيره لِ سورة آل عمران- الجزء الثالث- ص ٥٥ - مرجع سبق لنا أن ذكرناه.

(١١١) (السيرة الحلبية) لِ على بن برهان الدين الحلبى الجزء الثانى ص ١١٦ نقلاً عن كتاب «محمد واليهود» لِ د. بركات أحمد- ص ١١٤، ١١٥- مرجع سابق.

وأكرمته وجعل يحرّض على رسول الله -ص- وينشد الأشعار ويبكى على أصحاب القليب الذين أصيبوا بـ بدر من قريش)(١١٢)

ومن نافلة القول أن ننسخ أن الشعر فى ذياك الوقت هو أخطر وسائل الإعلام، يحفظونه ويتناقلونه ويؤثر تأثيرا بالغاً.

ولم يكتف النضيرى ابن الأشرف بل أخذ يشبب بـ نِسون المسلمين فى أبيات فاضحة وممن مدّ لسانه القذر إليهن أم الفضل بنت الحارث قال فى حقها قصيدة منها:

يرتج ما بين كعبيها ومرفقها .. إذا تأتت قياما ثم لم تقم (١١٣)

وقد علق المؤلف على هذا البيت بـ الآتى (ويتضح المجون فى هذا البيت حتى يدرك المرء أنه يشير إلى حركة ردفى أم الفضل حين تتحنى)(١١٤)

وأم الفضل هذه هى زوجة العباس بن عبد المطلب عم «البرهان» وشقيقة ميمونة بنت الحارث إحدى زوجاته(١١٥)التى طلبت الاقتران به وعمرها آنذاك ستة وعشرون عاماً أبلغت رغبتها إلى أختها ثم نقلها عمه إليه فَ قبل وأصدقها أربعمائة درهم فَ أشرقت بـ شأنها الآية الكريمة (وامرأة مؤمنة وهبت نفسه للنبى)(١١٦)

حدث ذلك فى عمرة القضاء بـ مكة ولكن القرشيين رفضوا أن يتم النكاح فى بلدهم لأن الثلاثة أيام التى نَصّ عليها عهد الحديبية انقضت فَ قال لهم «ما عليكم لو تركتمونى فَ أعُرّس بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فَ حضرتموه»، «بيد أنهم لجّوا فى عنادهم وإبائهم فرحل عنهم وبنى بها «دخل بها» فى سَرَف قرب التنعيم- بعد قرية القداسة بـ مسافة

---

(١١٢) (تاريخ الطبرى- تاريخ الرسل والملوك) الجزء الثانى - ص ٤٨٨- مصدر سابق.

(١٠٣) المصدر نفسه وذات الصفحة وكذلك «محمد واليهود» مرجع سابق ص ١٠٦.

(١١٤) ص ١١٢ عند ذكر مرجعه.

(١١٥) «المحبّر» لـ أبى جعفر محمد بن حبيب الهاشمى - ص ١١٢ - مصدر سابق.

(١١٦) الآية الخمسون من سورة الأحزاب.

قصيرة ثم انصرف راجعاً إلى أثرب(١١٧)

وقد أورد المحب الطبرى «عن ابن عباس أن النبى -ص- تزوجها وهو مُحْرِم وقد أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب النكاح والبخارى فى صحيحه فى باب النكاح)(١١٨)

وذكر السيوطى فى «باب اختصاصه بِ جواز النكاح وهو مُحْرِم»:

(أخرج الشيخان «أى البخارى ومسلم» عن ابن عباس أن النبى - ص- نكح ميمونة وهو مُحْرِم).(١١٩) وذلك فى سنة سبع.

ولا مانع من نكاحه-ص- وهو مُحرم، فإن من خصائصه -ص- حَلّ عقد النكاح فى الإحرام). (١٢٠)



ثم نؤوب إلى سياقة التنقير:

خطيئتان مُهلكتان تردى فيهما كعب عليه اللعنة:

أولاهما: سياسة عسكرية وهى تحريشه سخينة على قتال «الأبرّ الأبلج» وتحريضهم على الهجوم عليه وتهييجهم على حربه.

وأخراهما: شخصية ذاتية تمس وتراً حساساً لدى أى عربى بل عند كل رجل يغير على عرضه وهى التشبيب بِ نساء تبعه عامة وبِ زوجة عمه.(١٢١)

تشبيباً خليعا وتغزل فيهن غزلاً فاضحاً ووصفهن وصفا داعراً ونعتهن نعتاً فاجراً فأصبح السكوت عن هذا النضيرى الخبيث العربيد آمرا مُحالاً وقد بلغ الضيق بِ «الفارق بين الحق والباطل مداه» فَ قال لِ تبعه : « من لى من ابن الأشرف». (١٢٢)

---

(١١٧) بِ اختصار من كتاب «نساء النبى» لِ بنت الشاطىء - ص ص ٢٠٤ . ٢٠٥ . ٢٠٦ وكذلك كتاب «السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين » لِ محب الدين الطبرى - الباب التاسع ص ١٩٢ وما بعدها - مصدر سابق.

(١١٨) (السمط الثمين) المحب الطبرى - ص ١٩٤- مصدر سابق.

(١١٩) (الخصائص الكبرى) لِ السيوطى - المجلد الثانى ص ٥٢٤ تحقيق أ.د حمزة النشرتى وآخرين - الطبعة الأولى ١٩٩٦ - والمحقق الأول هو الناشر.

(١٢٠) «إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون» الشهير بِ «السيرة الحلبية» الجزء الثاني - ص ٧٨٢- الطبعة الأولى - ١٣٨٤هـ / ١٩٨٤م - شركة مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده -ب مصر.

(١٢١) فى ذياك الوقت لم ينكح ميمونة بعد ا.هـ.

(١٢٢) (تاريخ الطبرى) ص ٤٨٨- سابق . ومن مطالعة سيرته التى هى المثل الأعلى ل كل مسلم يثبت أنه إذا قال عبارة «من لى من فلان أو ب فلان» فاعتبره منذ تلك اللحظة فى عداد الموتى ا.هـ.

فَ شمرت عن ساعديها المفتولين إحدى فرق المهمات الخاصة وهم غالبا من الشَبَبَة آميرها محمد بن مسلمة الأشهلي. (١٢٣)

واغتالته في عُقر داره فَ استراح « أول المسلمين» من آثامه الفواحش.

فَ لما عادوا «وجدوا رسول الله -ص- واقفا على باب المسجد فَ قال " آفلحت الوجوه فَ قالوا: ووجهك يا رسول الله ورموا بَ رأسه بين يديه فَ حمد الله على قتله»(١٢٤)

تلك الخبطة الصمّاء أرعبت أولاد الأفاعي وأخبرتنا كتب السيرة المحمدية ذات الرتبة المنيفة أنهم ما إن تيقنوا منها حتى سيطر عليهم الفزع وهيمن عليهم الخوف وركبهم الهلع وعمهم الذعر (فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بِ عدو الله فَ ليس بها يهودى إلا وهو يخاف على نفسه)(١٢٥)

وذكر الواقدي في مغازيه «فَ خافت اليهود فَ لم يطلع عظيم من عظمائهم ولم ينطقوا وخافوا أن يُبيتّوا كما بُيّت ابن الأشرف»(١٢٦)

وأثلج هذا الفلج صدر «الأخشى لله» فَ أعطى تبعه الضوء الأخضر لِ التخلص من رجال اليهود.(١٢٧)

واستئصال شأفتهم وإفنائهم على بكرة أبيهم يعقوب (١٢٨)

(.. فَ قال رسول الله -ص- من ظفرتم به من رجال يهود فَ اقتلوه)(١٢٩)

ولم يقصر الصحب في تنفيذ الأمر الحاسم الباتر كما السيف الحديد السنين وقد حمل إلينا الطبري في تاريخه مثالاً وهو أن أحد الصحابة اليثاربة وهو مَحيصة بن مسعود إثر سماعه الإذن الصريح وثب على تاجر يهودى اسمه بن سنينة ربطته بأخيه الأكبرعلاقة تجارية وثيقة فَ قتله فَ استفظع أخوه غير المسلم فعلته النكراء، بيد أنه سرعان ما أعلن إسلامه على الفور لا التراخي تحاشياً أن يلقى مصير شريكه الإسرائيلي(١٣٠)

---

(١٢٣) الفرقة بِ أسرها من بني الأشهل أي جميعهم من اليثاربة ليس من بينهم نازح فرد ا.هـ.

(١٢٤) (المغازي) لِ الواقدي - الجزء الأول - ص ١٩٠ - مصدر سابق.

(١٢٥) (تاريخ الطبري) ص ٤٩١ - مصدر سابق.

(١٢٦) (المغازي) لِ الواقدي - الأول - ص ١٩١ سابق.

(١٢٧) بداهة دون النساء والفتيان والأولاد الصغار والأطفال . ا.هـ

(١٢٨) أحد البطاركة الكُمّل.

(١٢٩) المصدر السابق ذات الصفحة- وايضا (المغازي) لِ الواقدي - الأول - ص ١٩١ - سابق.

(١٣٠) اقرأ تفاصيل هذه الأقصوصة في (تاريخ الطبري) الجزء الثاني ص ٤٩١. ا.هـ. وكذلك المغازي لِ الواقدي - الأول- ص ١٩١- ١٩٢.

ويضيف أن مَحيصة قال شعراً أوعد فيه أخاه حُويصة بِ القتل - ونحن نذهب إلى أنه من دوافع الأخير لاعتناق الإسلام . ا.هـ

وخلاصة الأمر أن اليهود (حذرت وخافت وذلت من يوم قتل ابن الأشرف)(١٣١)



بيد أن بنى النضير رغم فرقهم الشديد واستكانتهم الظاهرية وخضوعهم الشكلى فَ إنهم لم يعدلوا عن مسلكهم الدنىء ومنهجهم الخبيث وديدنهم الطفس (ذلك أن النبى- ص- حين قدم المدينة صالح بنو النضير رسول الله -ص- على ألا يكونوا عليه ولا له فَ لما ظهر يوم بدر قالوا هو النبى الذى نعته فى التوراة فَ لما هُزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا)(١٣٢)

أما الواقعة التى تؤكد غدر بنى النضير فهى شروعهم فى قتل «أجود الناس» غيلة ومبتدؤها أنه أفلت من نازلة بئر معونة عمرو بن أمية وفى طريقه إلى أثرب لقى رجلين من بنى عامر فنسبهما فانتسبا .. حتى إذا ما ناما قتلهما وأخذ سَلبَهما (كالعادة المتبعة) ولما ورد على «الكامل» نقل إليه خبرهما فقال له : بئس ما صنعت لوجود عهد بينه وبين رهطهما فَ ردّ عليه عمرو بِ عدم علمه وأمر «الأبرّ»، بِ عزل السلب وبعث به مع الدية التى طلبها عامر بنَ الطفيل ثم سار «المؤيد المنصور» إلى بنى النضير يستعين فى ديتهما لأنهم حلفاء لِ بنى عامر فوجد النضيريين فى ناديهم فَ كلمهم فقالوا نفعل ما أحببت.. اجلس حتى نطعمك فَ جلس إلى جنب جدار من بيوتهم ومعه نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلىّ فَ خلا أولاد الأفاعى بعضهم إلى بعص وقالوا إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحالة فَ من رجل يعلو هذا البيت فَ يلقى عليه صخرة فَ يريحنا منه؟ فقال أحد سادتهم وهو عمرو بن جحاش: أنا لذلك ونهاهم سلام بن مشكم لأن هذا نقض لِ العهد الذى بينه وبينهم ولكنهم أصروا لأنه إن قتل تفرق أصحابه ولحقوا ببلدهم «=بكة» وبقى بنو قيلة حلفاؤهم، وأضاف

(١٣١) (المغازى) لِ الواقدى - ص ١٩٢- مصدر سابق.
(١٣٢) (تفسير النسفى) لِ الإمام أبى البركات عبد الله النسفى - الجزء الرابع ص ٢٣٨- عند تفسيره لِ سورة الحشر - د-ت دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبى - بِ مصر.

سلام « والله ل أن فعلتم لَ يُخبرن بأنا غدرنا به.. يا قوم أطيعونى هذه المرة وخالفونى الدهر» بيد أن ابن جحاش هيأ الصخرة لِ يرسلها على «الإكليل» ويحدرها .. (فَ لما أشرف بها جاء رسول الله -ص- الخبر من السماء بِ ما هموا به فَ نهض رسول الله -ص- سريعا كأنه يريد حاجة وتوجه إلى المدينة وجلس أصحابه يتحدثون وهم يظنون أنه قام يقضى حاجة). (١٣٣)

وبقية خبر هذه المكيدة الخسيسة أن تبعه لما استبطأوه عادوا أدراجهم إلى يثرب فَ أنبأهم بها وأمرهم بِ التهيؤ لِ حربهم والمسير إليهم.



أدرك «الوسيم/ الوجيه» أن ذهابه فى نفر معدود من صحبه إلى معقل بنى النضير ثم جلوسه وإياهم إلى جنب أحد جدران بيوتهم فيه مخاطرة مؤكدة خاصة أنه منذ عام قتل أحد زعمائهم المبرزين الملعون كعب بن الأشرف، وربما لمحهم يتشاورون ويتهامسون، وهذا فرض احتمالى لا نعوّل عليه كثيرا إنما نستند إلى الحقائق الثوابت، وهى أن أولاد الأفاعى مركوز فى طباعهم الغدر ولن تواتيهم فرصة ذهبية مثلها ليثأروا لاغتيال سيدهم الذى وقع منذ سنة (١٣٤) وبذكائه اللماح وفطنته البالغة وبصيرته النفاذة توصل إلى أن أمثل الحلول لِ الخروج من هذه الورطة هو أن ينسل بِ هدوء كأنه يريد قضاء حاجة ثم يؤوب إلى قرية الحرتين، لأنه لو أشعر أصحابه بِ جلية الأمر لِ طوقهم النضيريون وهم عدد محدود واليهود داخل حصونهم ومعهم الحلقة والسلاح فَ لن يستطيعوا مقاومتهم وبِ منتهى اليسر يقضون عليهم إذ كما يقول المثل : « الكثرة تغلب الشجاعة» خاصة وأنه ليس من المعقول أن يسير إليهم «العابد» وصحبه وهم مدجّجُون بِ السلاح لأنهم لم يذهبوا لِ قتال بل لِ طلب سلمى وهو حَثّ بنى النضير على دفع دية القتيلين نفاذاً للعقد الذى يربط الطرفين.

❖ ❖ ❖

(١٣٣) (المغازى) لِ الواقدى - الأول -ص ص ٣٦٤/٣٦٥و (السيرة الحلبية) - الثانى - ص ٥٦٠ و (تاريخ الطبرى) ص ص ٥٥٠-٥٥١.

(١٣٤) كعب بن الأشرف الرقيع الماجن قُتل فى ربيع الأول من سنة ٣هـ ووقعة بنى النضير فى ربيع الأول من سنة ٤ هـ ا. هـ

ثم نستأنف السياقة:

أرسل إليهم محمد بن مسلمة وهو اختيار بارع لأنه أوسيّ وبنو النضير حلفاء الخزرج وطالما قاتلوا بجانبهم ضد الأوس وأقربها يوم بعاث إذن فهو (= محمد بن مسلمة) يعتبر فى حكم عدوهم ولذا «قالوا يا محمد ما كنا نرى أن تأتى بهذا الرجل من الأوس».(١٣٥) هذا من رجا ومن آخر فَ هو رأس العصبة التى اغتالت سيدهم ابن الأشرف - كيما يبلغهم أن يخرجوا من البلد وأنه أجلهم عشرا بيد أنهم لم يمتثلوا وأخذوا يتجهزون للمعركة خاصة وأن رأس النفاق وزعيم المعارضة السياسية أرسل إليهم يُمنيهم ويعدهم وعوداً خُلبا.. فَ سار المسلمون إليهم وحاصروهم واستمروا خمسة عشر يوما وهم يقاومون فَ لجأ (سيد الكونين) إلى سلاح يغيظ أولاد يعقوب ويوجعهم وهو سلاح الحرب الاقتصادية (فأمر رسول الله - ص- بِ قطع النخيل والتحريق فيها)(١٣٦)

(فَ قطعت وحرقت «واستعمل على قطعها رجلين من أصحابه : أبا ليلى المازنى وعبد الله بن سلام فَ كان أبو ليلى يقطع العجوة وكان عبد الله بن سلام يقطع اللون (وهو النخيل ما خلا العجوة والبرّنى واحدته لينة ا.هـ).... وكانت العجوة خير أموالهم)(١٣٧)

وجاء هذا الأمر بِ مثابة قاصمة الظهر لِ بنى إسرائيل بيد أنه أحدث دوياً صاخباً لدى كافة الفرقاء :

(وجاء رسول الله -ص- وأحاط بِ حصنهم وغدر بهم عبد الله بن أُبيّ فكان رسول الله -ص- إذا ظهر بِ مقدم بيوتهم حَصّنوا ما يليهم وخرّبوا ما يليه.. وقد كان رسول الله -ص- أمر بِ قطع نخلهم فَ جزعوا من ذلك وقالوا يا محمد إن الله لم يأمرك بِ الفساد إن كان لك هذا فَ خذه وإن كان لنا فلا تقطعه)(١٣٨)

ويورد لنا الواحدى النيسابورى أنهم جزعوا من قطع النخل وتحريقه (وقالوا زعمت يا محمد أنك تريد الإصلاح أفمن الصلاح عَقر الشجر

---

(١٣٥) (المغازى) لِ الواقدى - الأول - ص ٣٦٧.

(١٣٦) (السيرة النبوية) لِ ابن إسحق - المجلد الثانى - ص ٤٧ - سابق.

(١٣٧) (المغازى) لِ الواقدى - الأول - ص ٣٧٢.

(١٣٨) (تفسير سورة الحشر) لِ الشيخ حسن الفريد الكلبايكانى - ص ٢٦- الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ/ ق - طهران.

المثمر وقطع النخيل ؟ وهل وجدت فى ما زعمت أنه أنزل عليك الفساد فى الأرض ؟(١٣٩)

أما نِسوتهم فَ (لما قُطعت العجوة شقّ النساء الجيوب وضربن الخدود ودعون بِ الويل).(١٤٠) وصاح اليهود فى وجوه المسلمين (وقالوا لِ المؤمنين إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون).(١٤١)



فَ شقّ ذلك على النبى -ص-) (١٤٢) وربما ضاعف هذا الشعور فى نفسه موقف بعض تبعه إذ حاكَ فى صدورهم قطع اللون وتحريق العجوة (وحينئذ وقع فى نفوس بعض المسلمين من ذلك شىء) (١٤٣)

بل بدأ نفر منهم يتردد فى تنفيذ الأمر وهذا شأن خطير لأنه بِ مثابة عصيان لِ القائد (ف وجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فسادا فى ذلك « هكذا وربما صحتها فسادا فى الأرض ا.،هـ) قال بعضهم لا تقطعوا مما أفاء الله علينا وقال بعضهم بل اقطعوا).(١٤٤)

ونحن نرجّح أن أولئك النفر من اليثاربة عموماً ومن الخزارجة تحديداً إذ طالما طَعِموا من هذه العجوة والألوان «بِ لهجتهم وهو جمع لينة أ.هـ)

ومسألة ما دخل فى قلوب تبع «أحمد» من إحساس إزاء الإذن بِ القطع والتحريق أوردها اثنان من كتب الصحاح الستة (النسائى) و (الترمزى) بخلالف الطبرانى وأبى يَعْلى وابن كثير فى تفسيره.

(أخرج الترمزى والنسائى وأبو يعلى والطبرانى عن ابن عباس فى قول الله عز وجل (ما قطعتم من لينة أوتركتموها قائمة على أصولها).

---

(١٣٩) (أسباب النزول) لِ الواحدى النيسابورى – ص ٢٧٩ – سابق و(السيرة الحلبية ص ٥٦٤ – سابق.
(تفسير البيضاوى) ص ٧٢٥ سابق.
(السيرة النبوية) لِ ابن إسحق المجلد الثانى ص ٤٧ – مصدر سابق
و (تاريخ الطبرى) والثانى ص ٥٥٢.
(١٤٠) (السيرة الحلبية) – الثانى – ص ٥٦٤ – سابق.
(١٤١) (السيرة الحلبية – الثانى ص ٥٦٤ – سابق.
(١٤٢) (أسباب النزول) ل الواحدى–ص ٢٧٩ – سابق
(١٤٣) (السيرة الحلبية) الثانى ص ٥٦٤.
(١٤٤) (أسباب النزول) لِ الواحدى ص ٢٧٩.

قال اللينة النخلة : و(ليخزى المنافقين) قال: استنزلوهم من حصونهم قال وأمروا بقطع النخل فَ حَكّ فى صدورهم فَ قال المسلمون قد قطعنا بعضا وتركنا بعضا ولَ نسألن رسول الله -ص- هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فَ أنزل الله تعالى:

(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) «الآية الخامسة من سورة الحشر».(١٤٥)

وبذلك أصبحت هذه المسألة ثابتة والمحاجة فيها ضربا من المماحكة.



من جراء الدعوة لِ قطع وتحريق النخيل التى تنتج المحصول العماد الرئيس لاقتصاد قرية الأثاربة الذين يعرفون قيمته ونفاسته وأهميته لديهم جميعا يهوداً وعَرَبَة قبّت أزمة ذات شقين.

الأول: عقائدى أثاره أولاد الأفاعى وهو أنه يُشكّل إفسادا وفساداً والله لا يأمر به ولا يرضاه ولا توجد ديانة ذات إسطير أو مليطة من كتاب تُقرّه أو تأذن به أو تدعو إليه.

الآخر: عسكرى هو أن التبع وهم الجنود أثّر فى نفوسهم كلام يهود وأحزنهم منظر نسوانهم وهن يصحن ويولولن ويلطمن خدودهن أسفا على العجوة التى تُجذ والنخيل التى تلتهمها النيران، كما أن أولئك العسكر وفيهم نسبة واضحة من بنى قيلة يدركون أكثر من المكاكوة بِ ما لا يقاس مكانة النخيل وثمانة ما تنتجه كَ مصدر غذائى ومورد مالى بِ الإضافة إلى قيام أُلفة حميمة بين اليثربى والنخلة، بحيث إن إقدامه على جعلها وقودا للحريق بما عليها من بلح أو تمر واجب عسير على نفسه وصعيب على وجدانه، وحتى نقرب المسألة إلى ذهن القارئ نرقم: تصوّر كيف يغدو حال الفلاح المصرى فى جنوب الصعيد إذ أمرته بِ تحريق حقول قصب السكر وتدميرها أو الفلاح المصرى فى الدلتا إذا دعوته إلى إضرام النار فى مزارع القطن وإتلافها.

ومن ثم أطلعتنا المصادر العوالى من التراث أن صدور الجند الصحاب

---

(١٤٥) (المقبول من أسباب النزول) لِ الشيخ أبوعمر نادى الأزهرى - ص ٦٥٤ مرجع سابق- وفى هامش الصفحة رقم المصنف أنه حديث حسن وأن ابن كثير فى تفسيره عزاه لِ أبى يعلى.

بدأ يحيك فيها ما يمكن أن نسميه الشعور بِ الذنب، وهذا يتمثل فى قولهم لِ «أشجع الناس» (هل علينا من وزر) وطفق بعضهم يتردد فى التنفيذ «وقال بعضهم لا تقطعوا .. » من جماع ذياك شَقّ عليه الأمر.

بيد أن القرآن العظيم كما هو شأنه معه لا يتركه يعانى تلك الأزمة العقائدية العسكرية فتهادت كأنوار الفجر الصادق الآية الخامسة من سورة الحشر التى نسخنا نصها الكريم قبل سطور ومفادها أن تحريق النخل وقطع العجوة تمّ بإذن من الله كما أن ما لم تمتد إليه النار ولم تلحقه الأيادى بالإتلاف بقى أيضا بِ إذن الله.

واستراحت ضمائر الأجناد مادامت مشيئة ربهم هى التى أمرتهم بِ ما قاموا به وارتفع ما حاك فى صدورهم وغادرها إلى الأبد وتنفس «المحجّة» الصعداء وتبخرت المعضلة وصارت بدداً وتحولت إلى هباء منثور بل غدت كأنها كابوس ثقيل يراه النائم فيزعجه فما إن يستيقظ حتى يصبح ذكرى عابرة.

ويوثق (الأمر / المثانى/ القرآن) أنه مع «البارع» دائماً سواء فى حجرات نسائه أو فى ميادين القتال، وهذه هى العلاقة الجدلية التى تلحمه بِ رباط وثيق مع الواقع وهذا هو سر ظهوره منجماً.



{١٤}

نهى (المرتضى) أصحابه عن كثرة الأسئلة وبصرهم بِ مآل أتباع «الكُمّل» الذين سبقوه عندما مشوا فى ذات الدرب، شدّدوا فى المسألة فَ شدّد الله عليهم.

وضرب لهم مثلا بِ مسلك بنى إسرائيل فى قصة البقرة المُعجبة.

لكن أسئلة الصحبة توالت واستفساراتهم تواترت واستفهاماتهم تتابعت ولهم عذرهم فَ «الأزج/ الأزكى» دعا إلى ديانة جديدة مغايرة لِ ديانتهم شملت أرجاء عديدة: العقيدة / العبادة/ الأحوال الشخصية / الجَزاءات/ المعاملات.. إلخ، وهم مليطون من أى ثقافة دينية بِ استثناء نفر محدود وحتى هؤلاء فَ إنّ ما علموه مغاير لِ ما جاء به ، لأَن الدين الذى بشّر به هو الخاتم والمهيمن على ما سبقه (زمَانا لا رتبة).

والصحبة بهم تشوّف لِ المعرفة ولديهم شوق نحو التعلم وعندهم تطلع صوب التفهم وفى باطنهم نهم للإدراك.

هذا من شق.

ومن آخر: اعترضتهم فى حياتهم صعاب عبادية ومشكلات خاصة شخصية ونوازل تجارية أو مالية (= اقتصادية) وقفوا عندها وقد أحاطهم الرَّيْك وعلتهم «اللخمة = كلمة عربية فصيحة معناها : ثقل النفس ا هـ» وشملهم الاضطراب وعمتهم الحيرة وسيطر عليهم الإشكال.. لا يدرون كيف يتصرفون ولا أين يتوجهون وفى أى جادة «طريق» يسيرون.

ومن ثمة فَ ليس أمامهم إلا «القيّم الكامل» فأمّوه «= قصدوه» فهو الذى حمل إليهم الديانة الجديدة وهم موقنون أنهم سَيَلْقون عنده الجواب لكل سؤال والرد على أى استفهام والإيضاح لِ أى استفسار...

وكَ نتيجة حتمية تعددت وتنوعت وتباينت ولزام عليه أن يشفى غليلهم وينقع غُلّتهم ويروى عطشهم وهو موقف يتسم بِ العُسر ويمتلئ بِ المشقة ويتضلع من الرَهق خاصة إذا تموضع السؤال فى شأن حساس أو تعلق الاستفسار بأمر مريج أو اتصل الاستفهام بِ موضوع دقيق.

هنا لا يذر القرآن المجيد «الأبطحى» يواجه هذه القضايا منفرداً بل كَ المتبع يعاضده ويعاونه ويؤازره ويتشكل جماعه فى تقديم حل لِ كل معضلة ونفح فَكّ لكل أزمة وإهداء وتدبير لكلِ نازلة تختلف صورها وتتباين هيئاتها وتتنوع أشكالها وتتغاير رسومها إنما الذى لا مشاحة فيه ولا ينتطح على صحته عنزان أن المخاطبين بها تلقفوها مسرورين: صدورهم منشرحة وقلوبهم مطمئنة ونفوسهم راضية.

وإليك حفنة مما حباه الذكر الحكيم لِ «ال هَجُودَ» من نفحات شافية وإشراقات كافية وهبات وافية، فاز بها تبعه وألسنتهم تلهج بِ الشكر الجزيل والحمد الوفير والامتنان البالغ والثراء العاطر.



١- فى بدئ الشأن عند الصيام فى رمضان يظل الطعام والشراب ومعافسة الزوجة مباحاً بِ الليل مالم ينم الزوج أو زوجته فَ إذا نعس ثم استيقظ حرم عليه وبالمثل إذا نامت هى فَ لا يحل له إيقاظها لِ يباشرها.

وإذ إن مـلامسـة الحليلة لدى أولئك العُربان طقس يومى فشقّ عليـهم وخالفوه .

(أخرج الإمام أحمد والطبرى عن كعب بن مالك - رض - قال :

كـان النـاس فى رمـضـان إذا صـام الرجـل ف أمـسى ف نام حـرم عليـه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد، ف رجع عمـر بن الخطاب ذات ليلة من عند النبى -ص- وقد سمر عنده ف وجد امرأته قد نامت ف آرادها ف قالت: إنى قد نمت ف قال: ما نمت ثم وقع عليها.

وصنع كعب بن مالك مثل ذلك.

فَ غدا عمر بن الخطاب إلى النبى -ص- فأخبره الخبر.

فَ أنزل الله تعـالى «علم الله أنكم كنتم تختـانون أنفسكم فتـاب عليكم وعفا عنكم، (سورة البقرة الآية السابعة والثمانون بعد المائة). (١٤٦)

و (لباب النقول فى أسباب النزول) لِ السيوطى - ص ٢٣ مصدر سابق أورده من رواية عبد الله بن كعب بن مالكٍ وقال : أخرجه أحمد وابن جرير (= الطبرى) وابن أبى حاتم.

و (أسباب النزول) لِ الواحدى - ص ٢٠ - مصدر سابق.

وقد ذكر الواحدى النَيسابورى أن الصحابة «شكوا ذلك لِ رسول الله - ص- فَ أنزل الله هذه الآية) (١٤٧)

وينفحنا الواحدى بِ مُعطى هام هو أن الصحاب عمهم السرور عندما تلا عليهم «الهادى» هذه الآية، كيف لا ومقاربة الزوجات مَعْلم يومى بارز فى حياتهم المبرورة، وذكر أن مسألة الانبساط هذه أوردها البخارى فى صحيحه وهو أصح كتاب لدى أهل السنة والجماعة بعد (الصحف= القران) فَ فرحوا فرحاً شديداً - رواه البخارى».(١٤٨)

وهكذا أمرّ القرآن الحكيم «الحجة البالغة» بِ آية كريمة رفعت كربة شديدة عـاناها أصحـابه ولا شك أنه يفـرح لِ فـرحـهم فَ هم أجناده الأوفياء.

---

(١٤٦) (المقبول من أسباب النزول) لِ أبى عمر الأزهرى ص ٩٥ مرجع سابق، وأضاف المصنف أن إسناده صحيح وأن أبا داود « من أصحاب الصحاح» أخرجه بِ نحوه من رواية ابن عباس.

و (لباب النقول فى أسباب النزول) لِ السيوطى - ص ٢٣ مصدر سابق أورده من رواية عبد الله بن كعب بن مالك وقال: أخرجه أحمد وابن جرير (= الطبرى) وابن أبى حاتم .

(١٤٧) المصدر نفسه وذات الصفحة.

(١٤٨) ذات المصدر ص ٣١.

❖ ❖ ❖

هند بنت أبى أمية.. من بنى مخزوم اشتهرت ب «أم سلمة» وعرف أبوها أمية ب «زاد الركب» لِ أن من يسافر معه لا يحمل زادا.

تزوجت أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال من بنى مخزوم أيضا وهو فى ذات الوقت ابن عمة «الفاتح» بَرَّة بنت عبد المطلب بن هاشم وأخوه من الرضاعة أرضعتهما مولاة لأبى لهب تبت يداه - تسمى ثويبة.

وأسلم كلاهما ونزحا إلى الحبشة مع من نزح ثم عادا ونزحا مرة أخرى لِ قرية الحرتين واشترك أبو سلمة فى الغزوات والسرايا ثم مات فى السنة الرابعة وغدت هند أرملة.

وتميزت بِ جمال نادر ووضاءة باهرة وحسن فائق ونضارة ريّانة. قبل زواجها «كانت جموع شباب تتسارع لِ تخطب ودها ولِ تطلب يدها»(١٤٩)

إذن جمعت بنت زاد الركب المخزومى بين عراقة المحتد ونبالة الأب وارستقراطية البيت والوسامة والقسامة والملاحة.

فَ لما تأيّمت وانقضت عدتها وأمست صالحة للتزويج أرقل إليها عتيق عارضاً نفسه عليها ونسى أنه من فرع هزيل فى قريش «تَيْم» لا يصل إلى مستوى ركبة رهطها، ولِ أدبها الجم وأخلاقها العوالى «ردته فى رفق».(١٥٠)

فَ حَجَل إليها أبو حفص عمر وتلقى ذات الجواب (١٥١)

وهو أمر بديهى لا ندرى كيف لم يفطن إليه ابن الخطاب فَ هو من بطن خَمِيْص ضامر، فأين عدىّ من مخزوم.(١٥٢)

ثم تقدم لِ خطبتها «سعد الخلائق» بيد أنها اعتذرت بِ لطف ورقة بالغيْن وتعللت بأنها مُصْبِيَّة ولعدم وجود ولىّ من أهلها يزوجها.(١٥٣)

ونرجّح أن مرجعه لِ سببين:

أ- حزنها الشديد على زوجها أبى سلمة إذ كثيرا ما رددت (من خير من أبى سلمة)؟

---

(١٤٩) (أم سلمة أم المؤمنين) إعداد .أ. أمينة أمزيان الحسنى - الجزء الأول - ص ٥٠- الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨ - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / المملكة المغربية.

(١٥٠) (المصدر نفسه ص ١٠٧)

(١٥١) (المصدر والصفحة).

(١٥٢) نحن نرجح أن أهم دوافع التيمىّ والعدوىّ لخطبة أم سلمة هو أن يحولا دون نكاح « صاحب البيان» إياها لما تتمتع به من جمال باهر ووضاءة فائقة فَ تغدو منافسة خطيرة لِ ابنتيهما عائشة وحفصة وتزاحمهما فى مكانتيهما عنده ولِ ما يسببه لهما ذلك من غيرة وقلق وهو ما تحقق بِ حذافيره ا.هـ.

(١٥٣) (السمط الثمين) ل المحب الطبرى ص ١٥٠ سابق.

بِ الفارق فى العمر فَ «ذو البراهين» عند نزوجه بلغ الثالثة والخمسين ووفاة أبى سلمة فى السنة الرابعة أى سنه آنذاك سبع وخمسون سنة.

أما هند فقد حققت الباحثة المغربية وتوصلت إلى أنها توفيت سنة إحدى وستين وأن سنها أربع وثمانون سنة(١٥٤) أى أنها وقت نزوج (نعمة الله) بلغت الثالثة والعشرين من عمرها وعند وفاة زوجها ناهزت السابعة والعشرين (واستنادا إلى ذلك نستطيع أن نستنتج أن أم سلمة ولدت قبل الهجرة بِ ثلاث وعشرين سنة أى قبل بعثة الرسول بِ عشر سنوات (١٥٥)

وبِ حسبة بسيطة نصل إلى أن الفارق ينيف على ثلاثين عاما.

وقَدَ غضب العدوىّ أشد الغضب حين ردّت «صاحب التاج» ولم توافق على قبول خطبته وكلمها فى ذلك ولكنها أظهرت له أعذارها (١٥٦)

ونحن نذهب إلى أن غضب العدوىّ الشديد هو ما يسميه علم النفس «عملية إسقاط» فَ هذا تعبير عن مكنون صدره لأنها أولته ظهرها.

ولكن «صاحب المنبر» لم ييأس فَ غِبّ أن أخفقت سفارة حاطب بن أبى بلتعة (١٥٧) توجه إليها بِ نفسه يخطبها ويحاورها ويفند ما تعللت به.(١٥٨)

كما أن عمّار بن ياسَر أدى دوراً طيباً فى إقناعها لقبول نكاح «المُتَجد» إياها، فَ هو «= عمّار» أخوها من الرضاعة.(١٥٩)

وفى ذات الوقت مولى لِ بنى مخزوم رهطها.(١٦٠)

ومما فعله عمار فى هذا السبيل أنه انتزع من حِجْر أم هند طفلتها المولودة حديثاً ووصفها بِ «المشبُوحة» - زينب وذهب بها لمن ترضعها كيما تتفرغ أمها تفرغاً كاملاً. (١٦١)

---

(١٥٤) (أم سلمة) لِ أمينة الحسنى - ص ٥٧٤ - مرجع سابق،

(١٥٥) (أم سلمة) لِ أمينة الحسنى ص ٤٩ سابق.

(١٥٦) (السمط الثمين) لِ المحب الطبرى ص ١٥٠.

(١٥٧) ذات المصدر ص ١٤٩.

(١٥٨) أورده أحمد فى مسنده وعبد الرازق فى مصنفه وابن سعد فى طبقاته نقلاً عن «أم سلمة» لِ أمينة الحسنى - ص ١١٠ - مصدر سابق.

(١٥٩) (السمط الثمين) لِ المحب الطبرى - ص ١٥٢ سابق.

(١٦٠) فى إحدى المرات تَلاحى خالد بن الوليد المخزومى مع عمّار فى حضرة «الأحْشَم» فَ أغلظ (=عمار) لِ ابن الوليد الذى تعجب واندهش وتوجه للمانح متسائلا : أتدع هذا العبد يشتمنى؟ باعتبار ابن ياسر مولى لِ بنى مخزوم أى تابع لهم بيد أن «الشهم» زَجر خالداً زجراً عنيفاً. فإذا ثبت أن هذه الواقعة حدثت قبل مراودات الخطبة فان ما فعله عمّار بِ شأنها يعد رداً لِ جميل «صاحب العطاء» لِ أنه انتصر له من خالد سيده السابق وابن الوليد بن المغيرة زعيم قريش فى الأيام الخوالى. اهـ.

(١٦١) (السمط الثمين) ص ١٥٢ سابق و (نساء النبى) ل بنت الشاطىء ص ١٢٣، -ورد فى الفتح الربانى لترتيب مسند الامام احمد - لِ الساعاتى وأخرجه ايضا عبد الرازق فى مصنفه وابن سعد فى طبقاته والبيهقى فى سننه نقلا عن «أم سلمة» لَ أمينة الحسنى - الأول ص ٥٨.

تم الزواج وانضمت بنت أبى أمية إلى ركب زوجات «البارع» وصوّت ذلك عندهن دوياً صاخبا لما يعلمنه علم اليقين عن فتنتها وحسنها «عن هشام بن عروة عن أبيه أن النبى -ص- تزوج أم سلمة وكانت من أجمل النساء».(١٦٢)

وتصف بنت الشاطئ هند بِ أنها عزيزة ذات جمال وإباء وفطنة . وأحدث دخولها ضجة فى دور النبى وأشاع قلقاً وأى قلق فى الزوجتين الشابتين عائشة وحفصة» (١٦٣) ومن المحال ألا يقع وأكثر منه ولعل ما صرحت به التيمية بنت عتيق فى حقها يثبته(لما تزوج رسول الله -ص- أم سلمة حزنت حزناً شديداً لما ذُكر لنا من جمالها، قالت : فتلطفت لها حتى رأيتها فرأيتها والله أضعاف ما وُصف لى فى الحسن).(١٦٤)

فَ هى «= أم سلمة» ذات أصل عريق وحسب ونسب كما كانت على جانب كبير من النضارة وتتمتع بِ قسط وافر من الحُسن والجمال مما أحدث ضجّة فى بيت النبى -ص- عند زواجه منها وأشاع قلقا وغيرة واضحة فى نفس ضرتيها عائشة وحفصة»(١٦٥)

من نافلة القول أن نرقم أن أم سلمة حظيت عند «الذاكر» ومكث عندها ثلاثة أيام بعد أن اختلج عمار منها رضيعتها زينب وعرض عليها أن يمُدّ فترة اللُبث إلى أسبوع بيد أنها ردت ثلّث(١٦٦)

ويبدو أنها قنعت بِ الثلاثة أيام لانها افتقدت طفلتها الرضيعة زينب.

وتعددت مظاهر حظوتها لديه منها = تقبيله إياها وهو صائم.(١٦٧)

---

(١٦٢) (السمط الثمين) ذات الصفحة السابق.

(١٦٣) (نساء النبى) لِ بنت الشاطىء ص ١١٨ سابق.

(١٦٤) (الاصابة) ج/٨ ص ٢٤١ نقلاً عن (نساء النبى) لِ بنت الشاطىء ص ١١٧ و «أم سلمة » لِ أمينة الحسينى ص ١٢٠ وأضافت آخر بخلاف الاصابة وهو «الطبقات الكبرى » لِ ابن سعد الجزء /٨ ص ٩٤.

(١٦٥) (أم سلمة) لِ أمينة الحسينى ص ص ٤٩/٥٠ - مرجع سابق.

(١٦٦) (السمط الثمين) لِ المحب الطبرى - ص ١٥٣ سابق.

(١٦٧) (أخرجه الشيخان فى صحيحهما وهما البخارى ومسلم نقلا عن (السمط الثمين) لِ المحب الطبرى ص ١٥٥.

ابتداؤه بها عندما يدور على نسائه (١٦٨) نومها معه فى لحاف واحد وهى حائض (١٦٩) أغتسالها معها من الجنابة فى إناء واحد (١٧٠)

فى هدية النجاشى المردودة عندما قسّمها على نسونه فضلها عليهن (١٧١)

ونكتفي بِ هذه الأمثلة إذ فيها غُنية وهى حجّة وبرهان على علو قدرها عنده وتمكنها من قلبه الشريف.

تلك الزوجة الغضة النضرة الحسينة الأثيرة عند زوجها (البحر) عندما تؤمه بِ استفسارٍ من حقها عليه أن يبين لها.

فَ هى فضلاً عما أكسبتها حياة البادية من صفات الشجاعة والجرأة والمروءة والإباء والاعتزاز بِ النفس، وغير ذلك من الصفات التى ورثتها عن أبيها فَ نشأت فصيحة اللسان قوية البيان ذات ذكاء وفطنة (١٧٢)

ولقد أهمها موقف القرآن الكريم من النساء:

(أخرج الترمزى والحاكم وأبو يعلى وغيرهم أن أم سلمة - رض- أنها قالت يا رسول الله ، لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بِ شىء.. فَ أنزل الله عز وجل (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عاملَ منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض) الآية الخامسة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة . (١٧٣)

وهكذا تضافرت هذهٰ المصادر والمراجع على علو قدر هذا الحديث ونأيه عن المطاعن وبعده عن القوادح وخلوصه من المثالب.

والذى يشحن قلب ابنة أميّة بِ الهم ويملأ صدرها بِ الشَجَن ويعيئ فؤادها بِ القلق لابد وبطريق الحتمَ واللزوم أن يصيب «الحَفىّ / اللطيف»

---

(١٦٨) المصدر السابق ص ١٥٦.

(١٦٩) (صحيح البخارى) و (المسند) لِ أحمد حنبل - المصدر ذاته والصفحة كذلك.

(١٧٠) (صحيح مسلم)كتاب الطهارة - المصدر السابق ص ١٥٧.

(١٧١) (المسند) لِ احمد بن حنبل - ص ١٥٨.

(١٧٢) (أم سلمة) لَ أمينة الحسنى ص ٥٠ - مرجع سابق.

(١٧٣) (المقبول لِ أبو عمر نادى الأزهرى - ص ١٩٠ وأضاف بخلاف مصادره التى أوردها فى فاتحة الخبر أن الواحدى رواه فى أسباب النزول والحميدى فى مسنده والبخارى فى التاريخ الكبير والطبرى فى تفسيره وأن الذهبى أقره وصححه والمصنف قال عنه : إسناده صحيح.

و (لباب النقول فى أسباب النزول) لِ السيوطى وذكر أن عبد الرازق أخرجه فى مصنفه وسعيد بن منصور وابن أبى حاتم - بخلاف الترمذى والحاكم.- مصدر سابق.

و (أسباب النزول) ل الواحدى ص ٩٢ - مصدر سابق.

(أم سلمة) ل أمينة الحسنى - ص ٢٣٩ وأضافت أن راوى الحديث هو سلمة بن عبد الله بن عمر .. أحد حفدة هند/ أم سلمة وسبق أن وصفت مثل هذا الحديث أنه عائلى مما يوثق صحته.

بقدر وسيع منه لأنها بعلته الحبيبة وزوجته المفضلة وحليلته المقربة.

وقد رأينا أنه فى أمثال هذه المقامات يتكرم «المبين المُحكم» ويفتح طاقة تمرق منها مكونات الهم وعناصر الغم وأجزاء الإزعاج ف على الفور انبثقت منه آية ب المساواة بين الذكران والإناث فى الأجر وخاصة أجر النزوح ل أنها من بين من نزح مرتين الأولى إلى بلد أصْحَمَة (الحبشة) والأخرى إلى القرية ذات الحرتين «أثرب».

فَ لما تلا «خيرة الله» الآية على زوجته ذات المنزلة الحميمة تهلل وجهها وانفرجت أساريرها وظهرت بشاشتها ومن البديهى أن جميعه انعكس على «آية الله» طلاقة وبشراً وأنساً.

وتقدم لنا الباحثة المغربية أمينة الحسنى هدية بالغة الثمانة عالية القيمة شديدة النفاسة وهى أن استجابة «مأدبة الله » جاءت على الفور لا على التراخى، لم تتأخر أو تتمهل أو تتباطأ ومردّه إلى المنزلة السامية لابنة زاد الركب" (قال الشيخ منصور على ناصف صاحب التاج الجامع ل الأصول مُعلّقاً:

فَ فيه إشعار بعلو مكانة أم سلمة حيث أجابها الله ب سرعة)(١٧٤)

ونأمل أن يتفرس القارئ فى عبارة وردت فى الفقرة التى نسخناها عن الشيخ منصور وهى (أجابها الله ب سرعة) إذ تشّف عن أن البعض فَطِن إلى العلاقة الجدلية بين الذكر الحكيم والقائد وكذا إلى العلة فى انبثاق سوره وآياته نجوماً متفرقة ولماذا لم يشرق جميعه فجأة وكرّة يتيمة. ولو أن فطانة الشيخ منصور وأنداده إلى هذا الملمح المُمْعِن عُمق شأنه تتبع من منظور الدروشة وإقالة العقل وتغييب الوعى وتغريب الفكر وتهجيره.

وهو بالطبع بخلاف منهجنا الذى التزمناه ومازلنا وبداهة نحن لا نُكره غيرنا على اتباعه فَ كما يقول المثل (لِكل شيخ طريقة) بيد أنا على اقتناع أن جادتنا هى الأصح والأسد والأصوب إلى أنْ يأتى من يثبت لنا العكس لأننا لا ندعى لمنهجنا العصمة ولا لأفكارنا المطلقية.



(١٧٤) (التاج الجامع ل الأصول فى أحاديث الرسول) ل الشيخ منصور على ناصف الجزء الرابع – ص ٩٠ كتاب التفسير نقلاً عن (أم سلمة) ل أمينة الحسنى ص ٢٣٩ مرجع سابق.

بنو سخينة جرى المال فى أيديهم لأسباب يند ذكرها عن سياق بحثنا ومن سمة المترفين فى كل زمان أن يتلذذوا بكل ما تصل أيديهم إليه.

ورجالهم فى نطاق الاتصال ب نسْوتهم لا يكتفون ب قضاء الوطر وإشباع الغريزة والحصول على الخِلفة بل يتغنون فى أوضاع المعافسة، فَ مرّة مُقبلة وأخرى مُدبرة وثالثة باركة ورابعة مُجبيّة، وخامسة شَرْحا، ويفضل أن يجىء مُنكرا إمعاناً فى الحصول على أعلى قدر من المتعة.. وأمسى هذا المسلك من قبل القرشيين عرفاً مستقراً وأمراً ثابتاً وتقليداً راسخاً يقوم به رجالهم وترحب به نساؤهم أيما ترحيب.

فى حين أن الأثاربة الأعاريب على العكس لا يبغون من مجامعة النساء سوى أن يقَضْوا وَطَرهم وعلى الحرف مع أكبر قدر من الستر، ولعل مآبه علتان:

الأولى: آن بنى قيلة أوضاعهم المالية أخفض من مثيلاتها لدى بنى سخينة.

الأخرى : أنهم تأثروا بِ اليهود الذين ربطتهم بهم علاقات متعددة كما رقمنا، وهؤلاء -خاصة طائفة الفَرّيسين - ينظرون إلى العلاقة الجنسية نظرة ضيقة أى يتعين أن تؤدى تحت ضغط الغريزة وبِ أبسط صورة.

فلما نزح بنو سخينة إلى يثرب نقلوا معهم تلك العادة الرائعة وعند نكاح بعضهم لِ نِسْوَن بنى قيلة أراد ممارستها معهن فَ استهولتها الأثربيات واستنكرنها واستقبحنها ورفضنها بِ الكلية لأنه حسب علمهن أنها تُرتكب مع الجوارى والإماء والسرارى والمحظيات وملك اليمين أما مع الزوجة الحرة فَ لا.

عندئذ طقّت تساؤلات من قبل الأثربيات توجهن بها إما مباشرة وإما بِ الواسطة إلى (صاحب السلطان) الذى وجد نفسه فى منتصف المسافة فإذا وافق (الأثاربة) ضاق المنازيح بنو سخينة ذرعاً وهم أجناده الأوفياء وإذا أرضاهم تململ بنو قيلة وهم الذين آووا ونصروا.

إذن ما المخرج؟

أن تشرق آية أو أكثر من القرآن المجيد تضع الأمر فى نصابه الصحيح ولا يستطيع واحد من الفريقين أن ينبس بعدها بِ بنت شفة.

❖ ❖ ❖

(قـال ابن عـبـاس إن هـذا الحى من قـريش كـانوا يتـزوجـون النسـاء ويتلذذون بهن مُقبلات ومُدبرات فـَ لما قدموا المدينة تزوجوا من الأنصار، فذهبوا ليفعلوا بهن كما كانوا يفعلون بـ مكة فـَ أنكرن ذلك وقلن هذا شئ لم نكن نُؤتى عليه. فـَ انتشر الحديث حتى انتهى إلى رسول الله - ص- فـ أنزل الله تعالى فى ذلك (نساؤكم حرث لكم فـَ أتوا حرثكم أنى شئتم) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة قال: إن شئت مُقبلة وإن شئت بَاركة وإنما يعنى بذلك موضع الولد) (١٧٥)

وهناك خبر عن رجل من حِمْيَرَ أتى (أبا القاسم) فـَ قال له:

(إنى أحب النساء وأحب أن آتى امرأتى مُجْبية أى مُنْكَبّة على وجهها فـَ كيف ترى- فـَ أنزل الله تعالى (الآية). (١٧٦)

ولنلتفت فى هذا إلى ملحظين:

١- قول الحمْيرى إنى أحب النساء مما يقطع أنه مكون أساسى فى نفوس أولئك العَرَبة وهذا مآبه كما رقمنا فى كتابات لنا سوابق أن حيواتهم تَصْفُر من أى نشاط اجتماعى أو ثقافى أو فنى أو رياضى ومن ثم فليس ثمة أمامهم إلا هذا النزوع.

٢- أنه استِبْيَان مباشر توجّه به صاحبه إلى (الفخر) ولا يتصور أن يذر الاعرابى دون إجابة شافية خاصة أنه لابد أن لمح من لهجته وانفعاله وكيفية نطقه أنه يعتبرها بـ النسبة إليه مسألة حياة أو موت.

تدخلت هند أم سلمة فى خبر ثالث وأدت دور الوسيطة بين أثربية وبين (الظُفُور) واستوضحته نيابة عنها لأن المرأة هابته واستحيّت أن تتقدم إليه مباشرة خاصة أن فى السؤال حساسية : (أخرج الترمذى وأحمد عن أم سلمة قالت: لما قدم المهاجرون المدينة على الأنصار تزوجوا من نسائهم وكان المهاجرون يُجَبُّون وكانت الأنصار لا تُجَبى، فـَ أراد رجل من المهاجرين امرأته على ذلك فـَ أبت عليه حتى تسأل رسول الله -ص- قالت فـَ استحْيت أن تسأله، فـَ سألته أم سلمة فـَ نزلت الآية). (١٧٧)

---

(١٧٥) (أسباب النزول) لـ الواحدى - ص ٤٧ مصدر سابق. وقال: رواه الحاكم.

و (لباب النقول فى أسباب النزول) لـ السيوطى ص ٣١ مصدر سابق - وأضاف إلى الحاكم أبا داود (وهو واحد من الصحاح الستة).

و (المقبول) لـ أبى عمر نادى الأزهرى - ص ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨- مرجع سابق.

وأورد حديثاً مشابهاً قال عنه : أخرجه النسائى عن نافع مولى ابن عمر.

(١٧٦) المرجع السابق ص ١٢٩.

(١٧٧) (المقبول) ص ١٣٠ سابق ونلفت النظر إلى أن من أخرجه الترمذى (أحد الصحاح الستة) وأحمد فى (المسند) ووصف المصنف أن إسناده حسن.

و (أم سلمة) لـ أمينة الحسنى ص ص ٢٢١/٢٢٢.

قدّر (أحسن القصص) موقف (المصطفى) فى هذه المسألة التى امتازت بقدر من الدقة لأن بنى سخينة يحتل موضوع (معافسة الإناث) مساحة طويلة عريضة من نفوسهم ووجدانهم وغرائزهم.

فى حين أن بنات قيلة علقنها على الكرامة والمكانة والاعتبار الشخصى لأنها ببساطة شديدة تحولهن من حرائر إلى إماء، وإجابة أى طرف لِ مبتغاه سوف تثير لدى الآخر قدراً من الغضب المكتوم والحنق المدسوس والغيظ الخبىء، من هذا المنطلق أسعفه بِ آية لابد أن يتقبلها الجميع بِ الرضا ويتلقفها بِ التسليم ويتناولها بِ الإذعان، ومما لا مشاحة فيه أن (ذا المقام المحمود) شكر الذكر الحكيم على وقوفه دائما معه يحل له الأزمات.



٤- النزوع إلى مفاخذة النِسْون- واذ إنه مكون رئيسى فى بنية أولئك العُربان- فإنه لم يفاصلهم حتى فى ميادين القتال التى لا يشغل فيها المحارب سوى العراك والفرّ والكرّ ومنازلة العدو وعلى الأخص لو أنه خرج لِ إعلاء كلمة ربه ونشر الديانة التى آمن بها ولرفع رايتها إلى أعلى.

ومن هنا ما انفكت استفهاماتهم واستيضاحاتهم تدور فى هذا المضمار.

وشكّلت أسئلتهم لِ (الأمين) فى هذا المجال نسبة متميزة، ونحن لاتخالجنا ذرة من ريب فى أنها سببّت له حُروجة عميقة وتأففاً كثيراً وضجراً شديداً ولكنه وهو ذو الخلق العظيم بِ شهادة (الحبل/القرآن) لابد أن يكتم جميعه فى نفسه ولا يبديه لهم لأنهم عسكره الذين بِ سيوفهم الباترة ورماحهم النافذة وخناجرهم القاطمة يحقق طِلبتين عزيزتين عليه، أثيرتين لِ نفسه، حبيبتين إلى فؤاده:

(أ) نشر الديانة التى بشرّ بها (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله الا الله . محمد رسول الله.(١٧٨)

(ب) إقامة الدولة التى مهد لها أجداده: قصىّ، هاشم، عبد المطلب.

لقى المسلمون فى حنين فى أول المعركة هزيمة نكراء كما حدث فى أحد لولا شجاعة (الشديد) ونفر قليل معه وثباتهم البطولى وعدم فرارهم

---

(١٧٨) رواه مسلم فى صحيحه.

كما فعل كثير من الصحاب فَ (لما انهزمت هوازن عسكروا بِ أوطاس عسكراً عظيماً)(١٧٩)

وغنموا مغانم جزيلة حتى إن عدداً من المؤرخين والإخباريين ومصنفى كتب السيرة المحمدية المعطاءة لِ كل خير يذهب إلى أنهم لم يحظوا بِ مثلها فى أى غزوة أو سرية ومن بينها سبايا كثيرات من نسوان وفتيان وصبايا قبيلة هوازن وإذ إن (المكىّ المكيّن) أدرى بِ نفسيات تبعه فقد وزّع عليهم أنصبتهم على الفور وفى ذات الموقع وكأنما يحدّث نفسه (لم خرجوا معى إذن؟) وعلى الرغم من أنهم فى بدئ المعركة انكشفوا انكشافاً مريعاً وولوا الأدبار ومنحوا عدوهم أكتافهم وظهورهم وأمعنوا فى الهروب حتى إن أبا سفيان بن حرب قال متهكماً عليهم (لا تنتهى هزيمتهم دون البحر).(١٨٠)

وفاز عدد وفير من الصحبة كل منهم بِ واحدة أو اثنتين من السبايا الوضيئات فَ تلمّظت شفاهم ولم ينتظروا حتى يصلوا بهن إلى يثرب مع أن المسافة قصيرة وعزموا النية وعقدوا الخناصر وأجمعوا الأمر على مفاخذتهن غِبّ تسلمهن بيد أن أولئك السبايا أبديّن قدراً من المكر وشطراً من المخادعة ونصيباً من المخالتة، فَ كلما اقترب صاحب من واحدة منهن أخبرته أنها ذات بعل فَ عكّرن عليهم مزاجهم وأذهبن بهجتهم وأطفأن شعلة فرحهم لأن معناه الانتظار حتى تحيض ولو حَيْضة واحدة وهى (حيْضة الاستبراء) أى خلو الرحم من أى شىء علق به حتى يغدو الولد ابن الصاحب حقيقة لا فرضاً.

إزاء ذلك وقع الأتباع فى حَاص بَاص فَ إما أن يعتلوهن وفى هذا مخاطرة لِ نسبة الولد إليهم وإما أن يتريثوا حتى تحيض المملوكة وهم لا طاقة بهم على الانتظار ولا استعداد لديهم لِ اللبْث ولا صبر عندهم على المُكْث.

فَ ماذا يفعلون إزاء هذه المشكلة التى أهمتهم وأرقتهم وأقضت مضاجعهم؟



(١٧٩) (المغازى) لِ الواقدى- الثالث - ص ٩١٥-

(١٨٠) ذات المصدر ص ٩١٠.

ليس أمامهم إلا باب (العالِم) كيما يلوذوا بِ جنابه ويقفوا على أعتابه ويطرقوا أبوابه:

(روى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال: أصبنا سبايا من سَبىِّ أوطاس لهن أزواج فَ كرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج فَ سألنا النبى -ص- (١٨١)

الحديث ورد فى أربعة من كتب الصحاح الستة وفى مقدمتها صحيح مسلم المُصلّى (التالى) لِ صحيح البخارى.

كما أن راوى الحديث أبو سعيد الخدرى ذكر أن السبايا ذوات بعول حقيقة لا مجرد ادعاء منهن.

وجاء به الواحدى فى (الأسباب) بِ رواية الخُدرى أيضاً (١٨٢)

وذكره الأزهرى فى (المقبول) بذات رواية السيوطى التى نسخناها قبل سطور وأضاف الآتى:

(إسناده صحيح ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه وأحمد فى المسند وأبو يعلى فى مسنده والبيهقى فى السنن والطبرى فى التفسير والسيوطى فى الدر المنثور ونسبه أيضا (= السيوطى لا الأزهرى) لِ الفريانى وعبد الرازق والطيالسى وعبيد بن حميد.(١٨٣)

لكن المصنف الأزهرى رقم معلومة على درجة عميقة من الأهمية وهى أن مُسلماً فى الصحيح أورده فى كتاب الرضاع باب = جواز وطء السَبيَّة بعد الاستبراء. (١٨٤) أى أن استبراء رحم الجارية أو المملوكة أو الأمة شرط لامتطائها.

ومن المفسرين القدامى أو السلف القاضى البيضاوى

لِ قول أبى سعيد أصبنا يوم أوطاس سبياً ولهن أزواج فَ كرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبى -ص (١٨٥)

ومن المحدثين = عبد الحميد كشك إذ أورد الخبر ذاته بحروفه.(١٨٦)

---

(١٨١) (لباب النقول) لِ السيوطى - ص ٥٠ مصدر سابق.

(١٨٢) (أسباب النزول) ص ٩٨ مصدر سابق.

(١٨٣) (المقبول) للأزهرى ص ٢٠٦.

(١٨٤) ذات المرجع والصفحة.

(١٨٥) (تفسير البيضاوى) ص ١٠٨ مصدر سابق.

(١٨٦) (فى رحاب التفسير) لِ عبد الحميد كشك- الخامس ص ٨٧٨ مرجع سابق.

ونذكر القارئ بما سبق أن أسلفناه فى المقدام أن المحدثين يتعكزون على السلف ويأخذون بِ مقولاتهم دون إضافة أو تعليق أو تفنيد.

ثم نختم بِ عمدة مؤرخى الغزوات:

وأصاب المسلمون يومئذ سبايا فَ كانوا يكرهون أن يقعوا عليهن ولهن أزواج فَ سألوا النبى -ص- (١٨٧)

❖ ❖ ❖

بعد أن أمّ التبع مُلاّك السبى (أكرم خلق الله) يسألونه حلاً لِ هذه المعضلة التى أهمتهم وأكربتهم وأزمّتهم وهو ينقه موقعها فى نفوسهم أمسى الموقف دقيقاً، فَ من ناحية هناك (حيضة الاستبراء) التى يتعين عليهم أن ينتظروها ومن رجا آخر هو يعلم مدى لهفتهم على مسّ السبايا أو الصبايا الوضيئات، فَ إذا أباح لهم الوطء جاء ذلك مخالفاً لِ قاعدة مستقرة هم يعرفونها والواجب عليهم أن يُذعنوا لها وألا يطلبوا مَخرجاً من هذه الزنقة. وإذا أمرهم بِ التريص أصابهم أمره بِ النكد إذ حال بينهم وبين المتعة التى يلهثون وراءها وهو من عُمق الحصافة وسعة الأفق ونفاذ البصيرة بحيث يدرك أن إدخال الغم على صدورهم لا يعد من حسن السياسة.

وهنا يقتحم (البصائر/ القرآن) دائرة الأزمة ويحاصرها ويطوّقها ويقضى عليها :

فَ أنزل الله (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت إيمانكم) الآية الرابعة والعشرون من سورة النساء. (١٨٨)

وفى تفسير البيضاوى (فاستحللناهن وإياه عَنَى الفرزدق بقوله : وذات حليل أنكحتها رماحنا: حلال لمن يبنى بها لم تطلّق)(١٨٩)

وفى (المقبول): (يعنى السبية من المشركين: تصاب لا بأس بذلك)(١٩٠)

وأيضا (فَ استحللناهن)(١٩١)

---

(١٨٧) (المغازى) لِ الواقدى/ الثالث/ ص ٩١٩ مصدر سبق لنا اثباته.

(١٨٨) (المغازى) لِ الواقدى/ الثالث/ ص ٩١٩ .

(١٨٩) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوى) ص ١٨٠ ، مصدر سابق – وكذلك فى أسباب النزول) للواحدى – ص ٩٨ – مصدر سابق.

(١٩٠) المقبول في أسباب النزول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى ص ٢٠٧.

(١٩١) (فى رحاب التفسير) لِ عبد الحميد كشك – ص ٨٧٨.

ويبدو أن البعض منهم تحرّج وربما دفعه لذلك خشيته أن السبيّة قد علقت من زوجها فَ أخذ يعزل أى يهريق ماءه خارج الرحم فَ سألوا النبى -ص- يومئذ عن العزل فَ قال: ليس من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله أن يخلق شيئاً لم يمنعه شىء(١٩٢)

وبِ هذه الآية الكريمة حُلّت المشكلة وبداهة أن أصحاب السبايا الجميلات عمهم الفرح والسرور.

وبها يزيدنا (العلى/ القرآن) حجة أنه دائماً مع (الصبور) لا يدعه طرفة عين وأنه معه فى ترحالّه.



إن من يطالع بِ إمعان السيرة المحمدية التى هى المثل الأعلى لِ كل مسلم ويقرؤها بِ روية ويدرسها بِ عناية يزداد إعجاباً بِ صاحبها لأن صبره فاق صبر أيوب على رذالات عدد من تابعيه وسخافاتهم وجهالاتهم، ومرده إلى أن مجتمعهم بدائى وبيئتهم متخلفة ووسطهم أميّ فَ الحضارة لديهم منعدمة، والمدنية غائبة والثقافة مفتقدة.

وأظهر ما انتصبت فيه بداوتهم وتمثلت فيه حُوشيتهم وبرزت فيه جفاوتهم أسئلتهم السمجة واستفساراتهم السقيمة واستيضاحاتهم المستهجنة واستبياناتهم المرذولة.. إلخ.

(عن ابن عباس كان قوم يسألون رسول الله -ص- استهزاءً فَ يقول الرجل من أبى؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتى؟..)(١٩٣)

وهكذا ثبتت ركاكة وتفاهة عصبة من صحبه من واقع حديث رواه البخارى فى صحيحه ونقلته لنا عنه مصادر من ذوات الرتب العوالى.



---

(١٩٢) (المغازى) لِ الواقدى ص ٩١٩ - مصدر سابق.

(١٩٣) (لباب النقول) لِ السيوطى- ص ٧٨ مصدر سابق، وقال إنه فى صحيح البخارى.

و(أسبا ب النزول) لِ الواحدى النيسابورى-ص١٤١- مرجع سابق وذكر أيضاً أن محمد بن إسماعيل البخارى قد رواه.

و (المقبول) لِ الأزهرى - ص ٣١٠ مرجع سابق.

وأكد أنه فى صحيح البخارى وأضاف أن إسناده صحيح وأن الطبرانى رواه فى الكبير والطبرى فى التفسير والسيوطى فى الدر وأنه (السيوطى لا الأزهرى) زاد نسبته لِ ابن مردويه وابن أبى حاتم(١٩٥)

و (التسهيل لِ علوم التنزيل) لِ ابن جزىّ الكلبى - ص ١٨٩- مصدر سابق.

وعدد هؤلاء ليس ضئيلاً أو قميئاً أو قزماً أو نحيفاً بل هو مُفرطح ومُفرشح ومبسوط ووسيع.

مما حَثّ (المُتبتّل) على أن يعتلى المنبر وهو غاضب للغاية ويخطب بِ شأن هذه السخافات لدرجة أن العدوىّ ابن الخطاب اعتبرها فتنة واستعاذ من شرها:

(روى أنس أنهم سألوا النبى -ص- فَ أكثروا المسألة فَ قام على المنبر فَ قال: لا تسألونى عن شىء ما دمت فى مقامى هذا إلا حدثتكم به، فقام عبد الله بن حُذافة السهمى -وكان يُطعن فى نسبه- فَ قال يا نبى الله من أبى؟ فَ قال أبوك حذافة بن قيس. وقال سراقة بن مالك، ويروى عكاشة بن محصن يا رسول الله: الحج علينا فى كل عام؟ فَ أعرض عنه رسول الله -ص- حتى أعاد مرتين أو ثلاثا فَ قال -ص- ويحك وما يؤمّنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لتركتم ولوتركتم لكفرتم، فاتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شىء فَ اجتنبوه. وقام آخر فقال يا رسول الله أين أبى؟ فقال: فى النار، ولما اشتد غضب الرسول -ص- قام عمر وقال: رضينا بالله ربا وبِ الإسلام دينا وبِ محمد نبياً..)(١٩٤)

(الذكر المُحكم) هل يترك (الحنيف) يعانى هذا المسلك الجانح والفعل المنفلت والتصرف الخارج عن كل حدود الذوق واللياقة والأدب من أولئك الصحابة الذين بلغت شدة خشالتهم وكثافة تنطعهم وغزارة زعارتهم مبلغا دفعه إلى ذروة الغضب وهو مضرب المثل فى الحِلم والقدوة فى الصبر والأسوة فى الاحتمال؟

لاشك أن الإجابة سَ تجئ بِ السلب استقراءً من مواقف القرآن العظيم معه فَ أهداه آية كريمة (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم).(١٩٥)

---

(١٩٤) (مفاتيح الغيب) أو (التفسير الكبير) للإمام فخر الدين الرازى- المجلد السادس - عند تفسيره لِ سورة المائدة ١٦٤ مصدر سابق.

و (المقبول) لِ الأزهرى - ص ٢١١ وقال عنه إنه صحيح الإسناد أورده ابن جرير الطبرى رواه فى تفسيره وكذا ابن كثير فى تفسيره والسيوطى في الدُرّ وأضاف لما رقمه الرازى على لسان العدوى: .. ونعوذ بِ الله من سوء الفتن.

(١٩٥) الآية الواحدة بعد المائة من سورة المائدة.

وفيها إعلام لهؤلاء النفر السمجاء ولغيرهم بـ الكفّ عن ولوج هذا الدرب. وإذ إنه نَهْى جاء به (الفرقان) فَـ لا مجال إذن للنقاش فيه أو مخالفته، وبذا استراح (السابق بِـ الخيرات) من هذه المشكلة التى بعثت الغيظ إلى ذاته الشريفة وهكذا يتم تدخل (البصائر/ القرآن) فى الوقت المناسب لأنه يعاين عن كثب كافة شئونه وأوضاعه.

❖ ❖ ❖

(٦) هاجس الحصول على الغنائم والأنفال والأسلاب هو الذى هيمن على أتباع (الصادق المصدوق) وهم يخرجون بـ معيته الشريفة فى الغزوات أو منفردين فى السرايا، وهذا ميراث متأصل فى نفوسهم من النشأة الباكرة والتربية المتقدمة، ويستحيل عقلاً وواقعاً أن يفارقوه أو يفارقهم فى البضع سنوات التى حظوا فيها بـ صحبة (المصطفى) فَـ إن سنن الاجتماع ترفضه وتخبرنا عن أن إلف العادة التى ترجع إلى الصبا من أعسر الأمور التخلى عنه (= الإلف).

ومصداقه أن واحداً من أسبق الذين تابعوه على ديانته التى بشّر بها حزن حزناً دفيناً يعادل حزنه على مقتل أخيه لأن (المطاع) رفض أن يعطيه سيف أحد قتلى الأعداء فى غزاة بدر الكبرى.

(عن محمد بن عبد الله الثقفى عن سعد بن أبى وقاص قال: لما كان يوم بدر قُتل أخى عمير وقُتل سعيد بن العاص وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة فَـ أتيت به النبى -ص- قال: فَـ اذهب فَـ اْطرحه فى القبض قال: فَـ رجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى...)(١٩٦)

هكذا وَجدَ هذا الصحابى على فقد سلبه أو حرمانه منه مثل ما وَجدَ على قتل أخيه، وهذا ينفحنا مؤشراً على أن نفوس هؤلاء أُشربت حَب الغنائم والأسلاب، وتعليله أنها مصدر رئيسى لديهم فَـ هم لا يعرفون الصناعة بل ويحتقرون من يزاولها ويسمونه قيْناً أى عبداً، وهناك قبيلة مضاربها قرب أثرب تسمى بنى سليم احترفوا صناعة الأسلحة وبِـ الأخص السيوف فتهكم عليهم هؤلاء العَرَبة وسموهم بِـ القيُون أى العُبدان.

---

(١٩٦) (أسباب النزول) لِـ الواحدى النيسابورى - ص ١٥٥ مصدر سابق.
و (لباب النقول) لِـ السيوطى ص ٨٥ وذكر أن أحمد بن حنبل رواه فى مسنده.
و (المقبول) الأزهرى ص ٥٣٣ - مرجع سابق.

وبذات القدر سخروا من الزراعة والزراع وعندما امتهن بنو حنيفة الزراعة تهزّأ هؤلاء الأعاريب بهم وقالوا عنهم:

سيوفهم مساحيهم.

ولما غزوا العراق والشام ومصر وداسوا بخيولهم المباركة أراضيها واستعمروها واستوطنوها ونزحوا خيراتها تَعالَوا على أهلها ووسموهم بـ (العُلوج) لأن عملهم الأصيل الزراعة ولم يستحوا أن الأموال الطائلة بـ كافة صنوفها التى كسحوها من هذه البلاد ونقلوها إلى واديهم القفر الـ غير ذى زرع هى نتاج جهود وعرق الفلاحين أو (العلوج).



ثم عود إلى السياق:

لِ خلّو أيدى تبع (الموقر) من أى حرفة أو مهنة ولأن بنى سخينة جردوهم من أموالهم التى درجوا علي توظيفها فى التجارة. هذا من ناحية المنازيح أما بـ النسبة لِ بنى قيلة فـ شأنهم كـ سائر العرب فى اعتبار حب الغنائم وتوابعها بمثابة الغريزة، لِ جماعه كله حدثت خناقة (=كلمة عربية صحيحة) بين كبار الصحاب وصغارهم وشِيّبهم وشَبَبَتهم عليها وفى أول غزاة يخرجون فيها.

(روى أن يوم بدر: الشبان قتلوا وأسروا والأشياخ وقفوا مع رسول الله فى المصاف - فَ قال الشبان:

الغنائم لنا لأننا قتلنا وهزمنا وقال الأشياخ:

كنا ردءاً لكم ولو انهزمتم لَ انحزتم إلينا فَ لا تذهبوا بِ الغنائم دوننا فوقعت المخاصمة لِ هذا السبب).(١٩٧)

أما القرطبى فَ يضع بين أيدينا رواية مشابهة أهميتها أن من أدلى بها هو واحد من المقدمين بين تبع (العُدة / الذخيرة).

(روى عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله -ص- إلى بدر فَ لقوا العدو فَ لما هزمهم الله اتبعتهم طائفة من المسلمين:

وأحدقت طائفة بـ رسول الله -ص- واستولت طائفة على العسكر والنهب، فَ لما نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم قالوا : لنا النفل، نحن الذين طلبنا العدو وبنا نفاهم الله وهزمهم، وقال الذين أحدقوا بـ رسول

---

(١٩٧) (مفاتيح الغيب) لِ الرازى المجلد السابع - ص ٤٣١ — مصدر سبق ذكره.

الله -ص- ما أنتم أحق به منا نحن أحدقنا بِ رسول الله -ص- لئلا ينال العدو منه، وقال الذين استولوا على العسكر والنهب ما أنتم بِ أحق منا هو لنا نحن حويناه واستولينا عليه. (١٩٨) هكذا حولت الأنفال والغنائم والأسلاب الإخوة المتحابين الرحماء بينهم إلى خصوم ألداء يوشكون أن ينقلبوا إلى أعداء، ونلفت نظر القارئ إلى أن كلمة (نهب) وردت فى الخبر مرتين والنهب فى معاجم اللغة هو الاستيلاء على الشيء قهرا واغتصابا وغلبة.



وعن السيوطى :

(روى أبو داود والنسائى وابن حبّان والحاكم عن ابن عباس قال : قال النبى -ص- من قتل قتيلا فله كذا وكذا ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا فأما المشيخة فَ ثبتوا تحت الرايات وأما الشبان فَ سارعوا إلى القتل والغنائم فَ قالت المشيخة لِ الشبان أشركونا معكم فإننا كنا لكم ردْءا ولو كان منكم شيء لَ لجأتم إلينا فَ اختصموا إلى النبى -ص- ..)(١٩٩)

هذا الحديث رواه أبو داود والنسائى وهما من أصحاب الصحاح الستة وكذا الحاكم فى (المستدرك) وهو من دواوين السنة المحمدية المعتبرة وقد جاء به ذكر الاختصام صراحة.

كما أورده أبو عمر الأزهرى فى (المقبول) وأضاف فى أسانيد الحديث المذكور بِ خلاف ما رقمه السيوطى:

صَحّحه الحاكم وأقره الذهبى وأورده البيهقى فى الدلائل وابن أبى شيبة فى المصنف والطبرى فى تفسيره (قال الشيخ شاكر فى عمدة التفسير:

---

(١٩٨) (الجامع لأحكام القران أو تفسير القرطبى) لِ القرطبى المجلد الرابع ص ٢٧٩٦- مصدر سابق.
و (مرويات غزوة بدر) جمع ودراسة وتحقيق أحمد محمد العليمى باوزير - ص ص ٢٧٨-٢٧٩- الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م - مكتبة طيبة - المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.
وهو رسالة نال بها المحقق درجة الماجستير من شعبة السُنّة بِ الدراسات العليا بِ الجامعة الإسلامية بِ المدينة المنورة - هذا الحديث فى مسند الإمام أحمد وفى هامش ص ٢٧٩:
قال البناء فى تعليقه على الحديث فى الفتح الربانى ١٤/٧٣، قال الترمذى هذا حديث صحيح ثم قال وأورده الهيثمى وقال رجال أحمد ثقات ثم قال: أورده الحاكم فى المستدرك وصححه وأقره الذهبى- وبذلك يغدو هذا الحديث صحيحاً بعيدا عن المطاعن.

(١٩٩) (الباب النقول) لِ السيوطى - ص ٨٥ مصدر سابق.

رواه الطبرى بِ ثلاثة أسانيد صحاح إلى ابن عباس، وكذا زاد ابن كثير نسبته فى تفسيره لِ ابن مردويه).

وذكر الأزهرى أن إسناده صحيح.(٢٠٠)



هكذا أمسى اختصام بل عراك الصحابة على الغنائم حقيقة تاريخية موثقة لا يمارى فيها إلا لجوج ولا يجادل بِ شأنها إلا خصيم ولا يحاج فيها إلا شكِس.

بعد هذا أصبح (اللبيب) بغير شك ضيق الصدر من تخاصمهم الذى أوضحته لنا هذه الأخبار الصحيحة بيد أن القرآن المجيد لا يذره يعانى هذه الحُروجة فـَ تقبل آية كريمة هى الأولى من سورة الأنفال:

(يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين).

وهكذا فُضّ الاشتباك بين تابعيه وارتفع عن صدره الكريم الضيّق وقسمها عن بَوَاءٍ أى عن مساواة ورضى المتنازعون، وكيف لا يفعلون والتقسيم جاءت به آية صريحة أمرتهم بالتقوى وإصلاح ذات البين وبِ طاعة (المشير) وعلقتها على الإيمان وقرنتها بِ طاعة الله جل جلاله.

(فـَ بِ مجرد أنَ نزل الوحى بِ إرجاع ذلك إلى الله ورسوله سلّموا الأمر وانقادوا للحق وأطاعوا الله ورسوله -ص-).(٢٠١)

وبذا على الدوام يثبت القرآن العظيم أنه مع (المُخبت) لا يغفل عنه طرفة عين ويؤكد لنا فى كل حين الحكمة من إشراقه منجّما.



(٧) ترك اليهود أثرا «غائرا» فى بنى قيلة بِ اعتبار أنهم أصحاب إسطير مقدس هو أقدمها جميعا (أخرج أبو داود والحاكم عن ابن عباس أنما كان أهل هذا الحى من الأنصار (وهم أهل وثن) مع هذا الحى من يهود (وهم أهل كتاب) كانوا يرون فضلا عليهم فى العلم فـَ كانوا يقتدون

---

(٢٠٠) (المقبول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى هامش ص ٣٣٦- مرجع سابق.

(٢٠١) (مرويات غزوة بدر) أحمد باوزير ص ٢٧٣- مرجع سابق.

ب كثير من فعلهم).(٢٠٢)

وقد رقمنا من قبل ما نقشه منهم الأثاربة رجالهم ونِسْوَنهم فى مسألة طريقة الجماع.

ولما وصل المنازيح إلى قرية الحرتين صار من الطبيعى أو البديهى أن تَزْرب إليهم عدوى التأثر بِ أولاد الأفاعى مباشرة أو عن طريق إخوانهم أعراب قرية ما بين الحرتين.

من بين ما اشتهر عن أولاد يعقوب موقفهم من المَرَة الحائض، فَ هم لا يؤاكلونها بل ولا يجمعها بهم بيت، واحد ولا شك أن الأوس والخزرج فعلوه ووصل خبره إلى المنازيح وجلهم من بنى سخينة (قريش) فَ حاك فى صدورهم لأنهم حتى ذياك الحين نظرتهم إلى بنى إسرائيل لم تتغير خاصة من ناحية احتيازهم لِ كتاب مقدس وفيهم علماء دين وعليه نص الذكر الحكيم (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل).(٢٠٣)

ونشد الانتباه إلى ملحظ وفير الأهمية هو أنه لم يصف رجال دين بِ (علماء) إلا هم بل لم يذكر هذا اللفظ فيه كرة أخرى.

والذى خَرَبش نفسية النَزَحَة ليس هو عدم المؤاكلة فَ هذا مألوف لديهم حتى وهى طاهرة.(٢٠٤) إنما عزل المَرة فى مكان منفصل. لماذا؟

لأنهم خاصة بنى سخينة لابد أن يعافسوا زوجاتهم حتى وهن حُيَّض بِ أن تُحكِم إزارها على منبع الدم ويباشر ما دونه: ما فوقه وما تحته وربما يرى بعضهم أنه لا بأس من المفاخذة التامة.

إذن هذا الخطر أزعجهم وهذا القيد أربكهم وهذا النهى ضيّق عليهم، كيف لا وهو سوف يحرمهم من القيام بـ الطقس الذى يؤدونه ولو جزئيا، ويمارسونه ولو ناقصا ويقومون به ولو مُخَدَّجا.



---

(٢٠٢) (لباب النقول) لِ السيوطى ص ٢١ - مصدر سابق.

(٢٠٢)(الآية السابعة والتسعون بعد المائة من سورة الشعراء).

(٢٠٤) العربة عندما غزوا مصر واستعمروها واستوطنوها واستنزفوا خيراتها أتوا معهم بِ هذه العادة الحضارية الرائعة حتى إنها ما زالت مهيمنة فى المناطق التى احتلوها مثل الصعيد رغم مضى أربعة عشر قرنا مع أن المصرى القديم لم يعرفها طوال تاريخه الطويل، ربما لأنه (= المصرى القديم) أخفض منهم درجة فى سلم المدنية اهـ !!

إذن ما المخرج؟

ليس أمامهم إلا أن يهرعوا إلى (المستجيب) يسألونه حلا.. وبذا قبّت مشكلة: إذا خالف يهودا، ربما تأولوه أنه مناكفة لخطة الموادة والملاينة التى شرع ينفذها كما سبق أن أوضحنا، وإن وافقهم حرم تبعه من عادة شبوا عليها، ويجدون فيها متعة بل هى الوحيدة التى لهم إذ ليس لديهم أنشطة ثقافية أو فنية أو أدبية.

وهنا يأتى (المهيمن/القرآن) بِ الحل:

(أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة وغيرهم عن أنس -رض- أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيوت. فَ سُئل رسول الله عن ذلك..

فأنزل الله الآية (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فَاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن): وهى الثانية والعشرون بعد المائتين من سورة البقرة.

فَ قال رسول الله - ص- : (جامعوهن فى البيوت واصنعوا كل شىء إلا النكاح) (٢٠٥) والحديث أورده أربعة من أصحاب الصحاح الستة، بالإضافة إلى أحمد بن حنبل مما يقطع بِ صحته.

وأتى به عبد الله شحاته فى تفسيره بِ رواية أنس بن مالك أيضا نقلا عن مسلم وأحمد أبى داود وأضاف : (وغيرهم).(٢٠٦)

ومما يثبت وجهة نظرنا أن سؤال التبع انصب على مقطع محدد وهو معرفة الاقتراب من المَرَة ولاتهم المؤاكلة والمشاربة أنّ الآية الكريمة خلت مما يخص غيره (= الاقتراب) وما بينّه (الهادى) من إباحة كل شىء إلا الجماع ولعل مما يوثقها (= وجهة نظرنا) ما حمله (تفسير الألوسى) عند تناوله لِ آية (فَ اعتزلوا النساء فى المحيض):

وان اختاره الإمام وقال: ان المعنى اعتزلوا مواضع الحيض (٢٠٧)



(٢٠٥) (روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى) المعروف بِ (تفسير الألوسى) لِ أبى الفضل شهاب الدين محمود الألوسى ، تحقيق محمود الشرقاوى الجزء الثانى- ص ١٨١- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م- كتاب الشعب الدينى - دار الشعب بِ مصر.

(٢٠٦) (تفسير القرآن الكريم) لِ عبد الله شحاته الجزء الثانى ص ٣٥٢- - مرجع سابق.

(٢٠٧) (المصدر ذاته - ص ١٨٣.

فى (التفسير الوسيط):

جاء أن سبب النزول هو ما ورد بِ الحديث الذى نسخه الألوسى وبِ ذات الإسناد: مسلم وأحمد أبو داود.

بهن (المقصود بِ اعتزالهن فى المحيض هو تجنب الاتصال الجنسى.(٢٠٨)

ونضع تحت باصرة القارئ اللوذعى الفطن عبارة (واللمس ونحو ذلك) وهى حجة تنضم إلى ما سبقها على صحة ما ارتأيناه.

وإن المرء يتولاه العجب من أولئك العريان الذين لا يتوقفون عن إشباع غريزتهم حتى ولو أن الزوجة غريقة فى طوفان دماء الحيض لا يعتقونها.(٢٠٩)



ساعتئذ حَلّت هذه الآية الكريمة التى نفحها (الحق / المحكم) ل (فضل الله) -المشكلة التى أصابت الصحبة بِ السُهد وضربتهم بِ الأَرَق وأَلزمتهم السهر، ولا شك أنهم بعد سماعهم إياها منه تنفسوا الصعداء وعادوا إلى زوجاتهم البائسات يصنعون معهن كل شىء إلا النكاح وما أكرم (المعصوم) كيف صبر على كل هذه الخُشالات التى لا يكاد يمضى يوم إلا ويصدمونه بها سواء فى حلِّهم أو ترحالهم. ولا شك أنه لم يكف عن حمد الله على أن الذكر الحكيم يلازمه كَ ظله فى عَدّنه وظعنه وأنه انبثق نجوما لِ يواكب تعاريج واقعه.

٨- أوضحنا فيما سلف الظروف البيئية والاجتماعية التى دفعت أولئك العريان ل احتراف التجارة وب المثل الكراء (= الأجرة سواء للدور أو الدواب) ولَم ينقطعوا عن ممارستها حتى فى المواسم الدينية التى جعلت أساسا ل الذكر والعبادة، فَ لما جاء الإسلام أسقط فى أياديهم المتريحة ولم يدروا ماذا يفعلون وكَ العادة ليس أمامهم إلا (الموقن) فَ أَرْقَلوا إليه مستفسرين:

---

(٢٠٨) (التفسير الوسيط ل القرآن الكريم) تأليف لجنة من العلماء/ إشراف مجمع البحوث الإسلامية الحزب الرابع- ص- ٣٦٣ وما بعدها - الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م من إصدارات مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر/ مصر.

(٢٠٩) الواحدى فى (أسباب النزول) -ص-٤٦. السيوطى فى (لباب النقول) -ص- ٣٠.

أبى عمر نادى الأزهرى (المقبول) ص-ص- ١٢٥/ ١٢٦. طالعنا الحديث ذاته عند كل من

روى البخارى عن ابن عباس قال : كانت عكاظ ومجَنّة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية فتأثموا أن يتجّروا فى الموسم فَ سألوا رسول الله -ص- عن ذلك فَ نزلت (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فى مواسم الحج، وهى الآية الثامنة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة.(٢١٠)

وعكاظ وذوالمجاز ومَجَنّة أسواق دأبوا على إقامتها على هامش موسم الحج وبِ مناسبته.

ويقول ابن جزىّ الكلبىّ (فضلا من ربكم) (التجارة فى أيام الحج أباحها الله تعالى) ويضيف معلومة فى غاية الأهمية (وقرأ ابن عباس: (فضلا من ربكم فى مواسم الحج).(٢١١)

فَ قراءة حَبْر الأمة عبد الله بن عباس تؤكد إباحة الاتجار فى الحج. ويذكر أبو الحسن الواحدى أن الآية الكريمة إنما أشرقت لِ: دفع الحرج عنهم إذ يتجرون فى موسم الحج.

عن ابن عباس قال : كان ذو المجاز وعكاظ متجر ناس فى الجاهلية فَ لما جاء الإسلام كرهوا ذلك حتى نزلت : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم - فى موسم الحج.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال : كانوا يتقون البيوع والتجار ة فى الحج يقولون أيام ذكر لله فَ أنزل الله تعالى الآية فَ اتَجَرُوا)(٢١٢)

أى حَاك فى صدورهم قلق بِ شأن بيوعهم ومتاجرهم فى مواسم الحج فإما أن ينقطعوا أى يكفوا عنها وفيه خسارة لهم ومفارقة لِ إلفهم وإما أن ينصرفوا لِ ذكر الله فى الموسم الدينى الكبير كما يحضهم عليه الإسلام فَ لجأوا إلى (الكريم) عَلّهم يجدون لديه الحل.

والعدوىّ ابن الخطاب يوثق أن البيع والشراء هما العمود الفِقَرى لِ خَوَلِهم عن أبى صالح مولى عمر، قال: قلت يا أمير المؤمنين كنتم تتجرون فى الحج قال : وهل كانت معايشهم إلا فى الحج.(٢١٣)

ونلفى توثيق حديث ابن عباس عند صاحب (المقبول) فيذكر:

---

(٢١٠) (لباب النقول) لِ السيوطى -٢٧.

(٢١١) (كتاب التسهيل لِ علوم التنزيل) لِ ابن جزىّ الكلبىّ ص ٧٥- من الجزء الأول- مصدر سابق.

(٢١٢) (أسباب النزول) لِ الواحدى / ص ٣٨.

(٢١٣) (التيسير خلاصة تفسير ابن كثير) بقلم محمود محمد سالم ص ٩٠، سابق.

(أخرجه البخارى (فى صحيحه) فى كتابىّ الحج والتفسير وأخرجه الحاكم بِ نحوه وصححه وأقره الذهبى وأورده ابن جرير فى تفسيره، أما المصنف ذاته فَ وصفه بِ أنه صحيح(٢١٤)

ويذكر عبد الله شحاته فى تفسيره أن الحديث رواه البخارى عن ابن عباس وعبد الرازق (= فى مصنفه) وسعيد بن منصور وأن هناك حديثا مماثلا فى ذات الموضوع رواه أبو داود وغيره عن ابن عباس.(٢١٥)

· وهكذا بلغ هذا الحديث درجة من الصحة بحيث يمتنع على المُقسط العادل الذى يبتغى وجه الحق أن يمارى فيه.



أولئك العَرَبة يجرى فى دمائهم التعيش من الدخول الريعية التى تأتى دون بذل أى مجهود وقد رأينا فيما سلف كيف أنهم ارتكزوا فى معايشهم على عرق العُبْدان بل وعلى ما تدره أفخاذ جواريهم دون أن يشعروا فيه بِ أى معرّة أو مَنْقصة أو إخلال بِ الرجولة أو خدش لِ الفحالة أو مساس بِ الكرامة.

ومن بين الموارد الريعية كِراء (=تأجير) دورهم ودوابهم للحجاج.

أخرج أبو داوود والإمام أحمد والحاكم وغيرهم عن أبى أمامة التيمى قال:

كنت رجلا أكرى من هذا الوجه وكان أناس يقولون لى إنه ليس لك حج فَ لقيت ابن عمر، فَ قلت : يا أبا عبد الرحمن أكرى فى هذا الوجه وإن ناسا يقولون لى ليس لك حج.

فَ قال: ألست تحرم وتلبِّى وتطوف وتُفيض من عرفات وترمى الجمار؟

قال : قلت : بلى، قال فَ إن لك حجا.

رجل أتى رسول الله -ص- فسأله عن مثل ما سألتنى عنه، فَ سكت عنه رسول الله -ص- فَ لم يجبه حتى نزلت هذه الآية..

فأرسل إليه رسول الله -ص- وقرأ هذه الآية وقال : لك حج.(٢١٦)

---

(٢١٤) (المقبول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى - ص ١٠٨/ مرجع سابق.
ونضيف أن ابن كثير أورده فى تفسيره. (التيسير) ص ٩٠ سابق.

(٢١٥) (تفسير القرآن الكريم) تأليف عبد الله شحاتة - ص- ٣٠٢ الجزء الثالث - مرجع سابق.

(٢١٦) (ا لمقبول) لِ الشيخ أبى عمرنادى الأزهرى ص-ص ١١٠/١١١. سابق

ويهمنا أن يتيقظ القارئ لِ العبارة التى ضمّها الحديث (فَ سكت عنه رسول الله -ص- فَ لم يجبه حتى نزلت الآية).

وممن ذكر الكِراء فى الحج ابن عطية الغرناطى فى تفسيره (قال ابن عمر فيمن أكرى لِ يحج: حج تام ولا حرج عليه فى ابتغاء الكِراء).(٢١٧)

وينفحنا الغرناطى بِ مُعطى شديد الخطر وقرأ ابن عباس وابن مسعود وابن الزبير «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم» فى مواسم الحج)..(٢١٨)

وأورد الزمخشرى فى كشافه (وقرأ ابن عباس - رض- فضلا من ربكم فى مواسم الحج (٢١٩)

وقد نسخنا فيما تقدم ما رقمه مفسرون آخرون خلاف الزمخشرى وابن عطية- عن قراءة ابن عباس للآية بِ إضافة (فى مواسم الحج) ومع ذلك جاء المصحف العثمانى خُلُوا منها.

عسى حَبْر الأمة ابن عباس اعتمد فى تلاوتها أو قراءتها على القرآن العظيم الذى كَنّه فى صدره.

ربما طرحناه فى هذه الفاصلة يثبت أن الكِراء أيضا يتضام مع البيع والشراء كَ نشاط اقتصادى لم يتوقف غالبيتهم عن مزاولته ومن بينهم عدد من كبار الصحبة ومتقدميهم ومتنفذيهم كما اعترف بذلك العدوّ دون مواربة أو لف أو دوران: (عن عمر- رض - أنه قيل له: هل كنتم تكرهون التجارة فى الحج فَ قال: وهل كانت معايشنا إلا من التجارة فى الحج).(٢٢٠)

ولنلاحظ أن ابن الخطاب جاءت إجاباته بِ الجمع (معايشنا) مما يشى بِ هيمنة ذياك المنزع على جُلّهم، يضاف إليه مُا عرف عن بنى سخينة حبهم لِ التجارة.



---

(٢١٧) (المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) لِ أبى محمد عبد الحق بن عطية الغرناطى -٤٨١هـ/ ٥٤١هـ تحقيق وتعليق أحمد صادق الملاح- الجزء الأول ص ٥٥- الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م - لجنة القرآن والسنة / بِ المجلس الأعلى لِ الشئون الإسلامية / مصر.

(٢١٨) (المصدر ذاته والصفحة نفسها)

(٢١٩) (الكشاف) لِ الزمخشرى- المجلد الأول ص - مصدر سبق لنا أن ذكرناه.

(٢٢٠) المصدر ذاته والصفحة نفسها.

من جماع ما سبق نقول تحدد الموقف فى هذه المشكلة كَ الآتى:

الصحاب ومن بينهم مرازبة جحاجح صناديد يتكسبون مكاسب جزيلة من التجار والكِراء فى مواسم الحج وهذا ما ألفوه قبل أن يدخلوا الإسلام. والحج شرع للعبادة وذكر الله والتبتل والقيام بِ المناسك وهذا ما نص عليه (التذكرة/ المُحكم) صراحة.

ومن ثم فَ عندما سألوا (اللبيب) أطبقت الأحاديث على أنه توقّف ولم يجبهم على الفور، لأنه لو نهاهم لَ أحزنهم ذلك لِ حرمانهم مما يدخل جيوبهم الوسيعة من مال شبّوا منذ نعومة أظافرهم على احتيازه. وبوده ألا يدخل على قلوبهم غما ولا يملأ صدورهم هما ولا يشحن نفوسهم بِ الأسى فهم جنوده الأوفياء وأعوانه الخلص وتبعه المناصرون له وعدته فى نشر الديانة التى يشيعها والدولة التى يُعلى بنياتها.

ومن رجا آخر فَ إن الحج وتوابعه مواسم دينية سُداها الذكر والدعاء والتضرع .. إلخ ولُحمتها التجرد من مشاغل الدنيا.

بيد أن الذكر الحكيم لم يترك (أذن خير) يتوقف طويلا فَ سرعان ما بزغت الآية التى نسخناها قبل وهى الثامنة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة أخبرت الصحابة التجار أو التجار الصحابة وسائر المسلمين من بعدهم ألا إثم عليكم فى البيع والشراء والكِراء فى مواسم الحج فانفرجت أساريرهم وطابت نفوسهم وقرّت عيونهم فَ باعوا واشتروا وربحوا وزاطوا.

وفى كل مرة يقدّم لنا البرهان تلو الآخر على أنه (= الذكر الحكيم) يأخذ بِ حجُزته ولا يدعه نهبا للحيرة وأن قدومه (القرآن المجيد) نجوما مثّل غاية الحكمة التى خفيت على اليهود الذين اعتبروها منقصة لأن توراتهم أقبلت دفعة واحدة كاملة تامة، وكذلك خفيت على كفار مكة الذين اعتقدوا - لِ جهلهم - أن البطاركة الكوامل لابد أن يأتوا بِ كتبهم لِ أقوامهم وهى مستوفاه وجاهزة وعلى سنجة عشرة (٢٢١) وإنه (= البلاغ / المطهر) أقام علاقة جدلية مع الواقع المعاش.

---

(٢٢١) سنجة عشرة: سبق لنا شرحها.

❖ ❖ ❖

وبِ هذه الواقعة نكتفى بِ ضرب أو تقديم الأمثلة التى توثّق بِ أن هناك شطرا وسيعا من الآيات الكريمة من القرآن الحكيم طلعت مشرقة كَ أجمل ما يهلّ الإشراق، متلألئة كَ أحسن ما يبرق التلألؤ وأقبلت وضيئة كَ أبهى ما تتحقق الوضاءة تلبية لِ رغبة (المصطفى) إما عن تشوّف وإما عن توقع وإما عن تربص.. وسرعان ما تناصره وتؤازره أو تنافح عنه وفى ذات الوقت تضع فى حجر الفَطِن النَقِه اللوذعى الحُجّة الساطعة والبرهان القاطع والدليل الدامغ على أنها (= الآيات) وشيجة الصلة بِ الواقع المعاش لا تفاصله وبِ الحياة اليومية لا تفارقها وبِ أنشطة الدائبيْن (الليل والنهار) لا تباينها وهو سر انبثاقها نجوما متفرقة.

الفصل الثانى

آيات ظهرت تلبية لرجاوات تبعه

{١}

اتسمت نظرة أولئك العربان لِ المرة بِ الدونية تمثلت فى أمور عديدة منها حرمانها من الميراث لأنها لا تشارك فى غزوات النهب والسلب ولا طاقة لها بِ الدفاع عن حِمى القبيلة (ولو أن هذه المسألة تحتاج إلى دراسة أعمق ا هـ.) وكذلك فى سهولة فصم عروة الزوجية التى من المفروض أن لها قدرا من القدسية.

ومن بين صور مفارقة الزوجة عندهم (الظهار) وهو أن يقول الواحد منهم لِ حليلته آنت عَلَىّ كَ ظهر أمى فَ تَعدّ طالقا لأنه كما لا يحل له أن يعتلى أمه كذلك بِ تلك الجملة الفلوت غدت زوجته محرمة عليه ولا يحق له أن يمتطيها.

أوس بن الصامت وهو أثريى وأخو عبادة بن الصامت من مشاهيرهم بعد أن استمرت الزوجية بينه وبين مبعولته خولة بنت ثعلبة وتفانت فى خدمته وخلفت له أولادا وبدأت التجاعيد تظهر فى وجهها والشَمَط (اختلاط البياض والسواد ا هـ) يعلو شعرها والوهن يدب فى مفاصلها قرر أن يتخلص منها كيما ينكح جارية (صبية) نضرة يمتع بها مذاكيره فَ بِ منتهى الاستهتار نادى على خولة التى أسرعت تلبى فقال لها: أنت علىّ كَ ظهر أمى. صُدمت الزوجة البائسة فَ لم تتوقع أن يجازيها هذا الصامت جزاء سنمّار ويطلقها دون جريرة إلا الإخلاص له والتفانى فى خدمته وولده.. وفكرت فى هذه النازلة التى حطت على يافوخها دون توقع فَ لم تجد إلا أن تفزع إلى (المرحمة) وقصّت عليه عبث زوجها واستهانته بِ أقدس علاقة تقوم بين اثنين ومن عمق أساها وغزارة بثها وشدة حزنها

نطقت بكلام بليغ أوضح دفين ألمها وشفّ عن مكنون نفسها ورفع السترعن خبيء إحساسها: (يا رسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى حتى إذا كبرت سنى وانقطع له ولدى ظاهر منى).(١)

ويتحفنا الفخر الرازى بـ رواية أخرى:

فَ ظاهر منها فـ أتت رسول الله -ص- وقال إن أوسا تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ، لما خلت سنى وكثر ولدى جعلنى كَ ظهر أمه وإن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلىّ جاعوا.(٢)

فى هذا الحديث أوضحت الزوجة المغلوبة على أمرها العلة فى الظهار وهى أنها وقت شبابها والرغبة فيها استبقاها حتى شاب رأسها وكبرت سنها وغدت ذات أولاد ومن ثم لم تعد لديها الإمكانات التى بها تعطيه المتعة ففارقها بـ عبارة من أربع كلمات لكى ينكح فتاة بَزْهَرَة تمنحه ما يرغب.



وهكذا يُثبت هؤلاء العَرَبة أن هاجس المعافسة أو الملامسة هو الذى يملأ أدمغتهم العريّة من العلم، المليطة من الفكر، الخالية من الثقافة.

بعض المفسرين القدامى من جوقة المداحين والطبالين الذين يريدون أن يرفعوا الصحب فوق مستوى البشرية وأعلى من مقام الإنسانية وأنهم فى درجة أقرب إلى الملائكة وأن الغرائز والعواطف والنوازع.. إلخ يستحيل عليها أن تقترب منهم، نقول البعض من أولئك نفى عن هذا الأوس الباعث الحثيث الذى دفعه للظهار من بعلته ووصفه بأن عنده لَمَمَا أى مسّا خفيفا من الجنون أو عدم اتزان وتقدير للأمور على وجهها الصحيح، بيد

---

(١) (أسباب النزول) لِ الواحدى -ص- مصدر سابق

و (لباب النقول) لِ السيوطى ص ١٦٤- مصدر سابق.

و (المقبول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى ص- ٦٣٩.

ووصفه المصنف بِ أن إسناده صحيح وذكر أنه ورد فى مسند أحمد وفى المستدرك لِ الحاكم النيسابورى وصححه وأقره الذهبى، والبيهقى فى سننه.

وقال الحافظ (ابن حجر العسقلانى) فى الفتح (فتح البارى بشرح صحيح البخارى).

هذا أصح ما ورد فى قصة المجادلة وتسميتها اهـ)

وهكذا حاز الحديث رتبة منيفة فى الصحة.

(٢) (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير) لِ الإمام فخر الدين الرازى - الجزء الثلاثون - المجلد الخامس عشر - ص ٤١٩.

آن الإمام فخر الدين الرازى أوضح أن اللَمَم الذى هيمن عليه ودفعه لأن يظاهر من زوجته العجوز بأنه (الإلمام بِ النساء وشدة الحرص والتوقان اليهن).(٣)

ونأمل أن يتفرّس القارئ فى العبارات التى أوردها الفخر فى وصف ذاك الصامت فى ناحية ولعه بالنِسْوَن لأنه يُعتبر نموذجا لِ أولئك الأعاريب فى هذا المجال، وتكملة القصة أن خولة اشتكت زوجها وَ (أنه -ص- قال لها ماعندى فى أمرك شىء).(٤)

لكن (مأدبة الله) يستجيب لِ شكاية خولة على الفور لا على التراخى:

(قالت عائشة فَ ما برحت «خولة» حتى نزل جبريل -س- بِ الآيات)(٥)

وهكذا جاءت الآيات الكريمة بِ الحل فَ بعد عَدّ الظهار لديهم من أشد صور الطلاق (قبل الإسلام) لأنه فى التحريم أوكد ما يمكن، أصبح بعد انبلاج هذه الآيات من اليسير رفعه أو دفعه بِ الكفارات.

هذا هو المثل الأول الذى نسوقه فى هذا الفصل:

فَ فضلا عن أن الآيات الأربع أقبلت بناء على شكوى خولة وإنقاذا لها من الورطة التى أوقعها فيه طيش زوجها ونزقه فإنه (= العروة الوثقى) أثبت آن عينه الساهرة تلحظ المجتمع وتتفاعل معه وترتبط به بِ علاقة جدلية حميمة.

(٢)

- انصياعا لِ إكراهات المجتمع الذى شبّوا فيه وانسياقا لِ موجبات البيئة التى تربواً فيها ونزولا على أنساق الوسط الذى نشأوا فَيه تمكن شرب العقار (= الخمر) من نفوس الصحاب وعدد من مقدميهم.

(روى أن الآية (= آية تحريم الخمر) نزلت فى ملاحاة جرت بين سعد بن أبى وقاص ورجل من الأنصار وهما على شَراب لهما وقد انتشيا فَ تفاخرت الأنصار وقريش فَ أخذ الأنصارى لِحَيَى جمل فضرب به أنف سعد فَ فزره يعنى شقه.. وروى أن ذلك الأنصِارى كان عتبان بن مالك - روى ذلك الطبرى والترمذى وغيرهما).(٦)

---

(٣) المصدر والصفحة نفسها.

(٤) المصدر نفسه وذات الصفحة.

(٥) (المقبول) ذات الصفحة السابقة و (أسباب النزول) ذات الصفحة السابقة. و (لباب النقول) ذات الصفحة السابقة.

(٦) (أحكام القرآن) لِ أبى بكر محمد عبد الله المعروف بِ ابن العربى - ٤٦٨/٥٤٢هـ- تحقيق على محمد البجاوى - المجلد الثانى / ص ٦٥٦- الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م - دار المعرفة ودار الجيل - بيروت/ لبنان.

ومثال آخر:

(روى حميد الطويل عن أنس قال : كنت أسقى أبا عبيدة وأُبىّ بن كعب وسهيل بن بيضاء فى نفر فى بيت أبى طلحة فَ مَرّ بنا رجل فَ قال : إن الخمر قد حُرّمت).(٧)

ومثال ثالث:

دعا أثربى جماعة من كبار الصحب المنازيح والمقيمين على طعام وشراب فلما حضرت صلاة المغرب فَ تقدم عبد الرحمن بن عوف ليؤمهم فقرأ (قل يا أيها الكافرون) ولكنه خلط فيها - رواه الحاكم فى المستدرك عن طريق الثورى عن عطاء، وقال عنه حديث صحيح ولم يخرجاه (= الشيخان البخارى ومسلم) (٨).

وفي رواية أخرى أن الذى أمهم وهم نشاوى آخر غير ابن عوف إنما يُعد من متقدميهم.

المثال الرابع والأخير:

آية تحريم الخمر: (نزلت فى قبيلتين من الأنصار شربوا الخمر وانتشوا فعبث بعضهم ببعض فَ لما صَحَوا رأى بعضهم فى وجه بعض آثار ما فعلوا وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن فَ جعل الرجل يقول (لو كان أخى بى رحيما مافعل هذا بى).

فَ حدثت بينهم الضغائن فَ أنزل الله تعالى : «إنما يريد الشيطان ..» إلى آخر الآية).(٩)

نكتفى بهذا لندلل على أن الأسفنط (= الخمر) تغلغل حبها فى أعماق قلوبهم وأنهم لم يكفوا عن تعاطيها إلا بعد شروق آية التحريم (أمر رسول الله -ص- مناديه أن ينادى فى سكك المدينة : ألا إن الخمر قد حُرّمت فَ كُسرت الدنان وأريقت الخمر حتى جرت فى سكك المدينة).(١٠)

وهذا نص بالغ الثمانة لأنه حمل بين دفتيه معطى عميق الدلالة وهو أن شرب الصريفية (= الخمر).(١١) منتشر بينهم بِ كثافة.

---

(٧) (أحكام القرآن) لِ الكياالمراسى - المجلد الثالث - ص ٩٩- مصدر سابق.

(٨) (المقبول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى - هامش ص ٢١١- مرجع سابق. و (أحكام القرآن) لِ ابن العربى - الثانى - ص ٦٥٧ كمصدر سابق.

(٩) (أحكام القرآن) لِ ابن العربى- المجلد الثانى ص ٦٥٧ مصدر سابق. (لباب النقول) لِ السيوطى ص ٧٧ - مصدر سابق.

(المقبول) لِ أبى عمرنادى الأزهرى ص ٣٠٦ - مرجع سابق.

(١٠) (أحكام القرآن) لِ ابن العربى- الثانى ص ٦٥٧.

(١١) رجعت فى أسماء الخمر إلى كتاب (نظام الغريب فى اللغة) تأليف عيسى الربعى الوحاظى الحميرى تحقيق محمد بن على الأكوع -ص-ص ٩٤-٩٥- الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م - دار المأمون للتراث/ دمشق/ بيروت .

كما منع السكارى منهم من حضور الصلاة خلف (المرشد/ الهادى) فى مسجده.



تفشى معاقرة القرقف (= الخمر) من قبل جمهور الصحاب بل وصناديدهم أقلق (البشير/ الحازم) ومجلس شوراه لأن هؤلاء (= الصحبة) هم أجناده فى نشر الدين وعسكره فى إقامة الدولة (الحلم) وقد نسخنا فيما تقدم فى المفتتح كيف تدرّج (البيان/ الصدق) فى معالجة هذا الأمر بيد أن آية التحريم لم تجئ إلا مُصلّية وعلى ريث، وفى هذا الإبان أخذ العَدَوىّ عمر بن الخطاب يتململ ويستعجل الأمر بِ الكف والنهى عن التعاطى:

(عن أبى ميسرة قال: قال عمر اللهم بيّن لنا فى الخمر فَ نزلت (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فَ قال اللهم بيّن لنا فى الخمر فَ نزلت (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) فقال: اللهم بيّن لنا فى الخمر فَ نزلت (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) إلى قوله (فَ هل أنتم منتهون) فقال عمر :

انتهينا إنها تذهب المال وتذهب العقل). (١٢)

مع ملاحظة أن العبارة التى وردت على لسان العَدوىّ عمر تدل على أنه من بين من دأبوا على احتساء الكُلَفاء (= الخمر) ويؤكده ابن العربى بِ قوله (فقال عمر: انتهينا حين علم أن هذا وعيد شديد)(١٣) ومما له دلالة بالغة هذا الخبر:

(فَدُعى عمر فقرئت عليه آية (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) ٤٣/٢ فكان منادى رسول الله -ص- إذا أقام الصلاة: أن لا يقربنّ الصلاة سكران، فدُعى عمر فَ قرئت عليه فقال اللهم بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا فَ نزلت الآية التى فى المائدة فدعى عمر فَ قرئت عليه فَ لما بلغ (فهل أنتم منتهون) قال عمر : انتهينا).(١٤)

---

(١٢) (أحكام القرآن) لِ الجصاص- المجلد الأول - ص ٣٢٣ سابق.
(١٣) (أحكام القرآن) لِ ابن العربى - الثانى ص ٦٥٧- مصدر سابق.
و (أسباب النزول) لِ الواحدى ص ١٣٩ - مصدر سابق.
(١٤) (المقبول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى -ص- ٢٠٧ - سابق.

إن قارئ هذا الخبر لابد أن يتساءل : لماذا العدوىّ بِ الذات الذى طُلب وقرئت عليه الآية:

ربما لِ اهتمامه الشديد بِ هذا الأمر وهو عضو بارز فى مجلس الشورى وربما لِ سبب آخر لا يخفى على فطانة القارئ الذكى وإن ذكرناه آنفا.

وعلى كل فَ إن الزَرَّجون (= الخمر) حتى ذياك الوقت لم تُحرَّم أى أنه لا غضاضة على متعاطيها.

وعموما فَ هذه نقطة هامشية.

أما الجوهرى فى الأمر فَ هو أن القرآن العظيم تفضّل بِ آية كريمة حرّمت الصَرْخَدِيَّة (الخمر) على معتنقى الديانة الإسلامية منذ بزوغها حتى الآن وإلى ما شاء الله، ولا شك أن قلق عمر ومطالبته بِ ورود بيان فى شأنها وإلحاحه فى الرجاء جماعه يُحسب له ويضيف زَبْرة (قطعة ضخمة) لِ رصيد مناقبه ، فضلاً عن أن (الذكر الحكيم) كما يتضح لنا يلاحق أحوال ذلك المجتمع ويتصل به بِ حبل متين.



{٣}

قلنا منذ عشرين عاما إن الدين ثورة على الأوضاع الفاسدة لِ المجتمع الذى ينبثق فى حناياه ويتولد بين جنباته وينمو بين أضلعه وأن الذين يبشرون به هم ثوار بِ معنى الكلمة هدفهم تقويض قواعده المنهارة وتهديم قوائمه المتهالكة وتحطيم أسسه المتهاوية كيما يبنى المبشّر بِ الديانة الجديدة مجتمعا جديدا فى كل المناحى.

العقيدة- العبادة- العلاقات الاجتماعية - الروابط الاسرية - الأسس الاقتصادية - التوجهات السياسية.. تجمعها أيديولوچية ذات خصائص معينة وتنتظمها كما يضم السلك حبات العقد سواء جاءت من جوهر نفيس أو معدن ثمين.

ما إن يعلن الثائر المبارك صوته المبرور مُعْلِمًا (بِ الميم) بِ ثورته حتى يَغُذّ إليه المطحونون ويَجْذِمَ إليه المظلومون ويُوضِع إليه المُعوَزُون ويَخَبّ إليه المحتاجون ويرْقَل إليه المعدمون ويهرول إليه المنكسرة قلوبهم حسبما درج على مناداة تبعه ثائر مبرور وأحد البطاركة المرموقين هو عبد الله وابن

أمته عيسى ابن أمته الصديقة مريم.

وجماع هؤلاء أطلق عليهم (العَلَم العظيم) (الأراذل) يؤمنون بِ ثورته ويقفون تحت رايته ويصطفون خلف لوائه ويدافعون عنها (= الثورة) بِ كل ما لديهم وإذ إنهم مَلِيْطون من كل شىء فإن (ما لديهم) يعنى أبشارهم وجسومهم وأرواحهم يقدمونها فَداء لها وشهادة فى سبيلها وثمنا لِ فَلَحِها.

ولكن ما هو التحَضيْض الذى يُوزّهم إليها ؟

الإجابة يسيرة، هم يرون فيها : سفينة النجاة مما هم فيه من ظلم وبرّ الأمان مما يعانونه من حرمان والدواء الشافى لكافة الأمراض التى تضربهم والأسقام التى تركبهم والأدْواء التى تنخر فيهم واليد التى سوف تنتشلهم من الوَهْدة التى يترددون فيها .. إلخ.

وفى مقابلهم يقف الأغنياء والمرابون وتجار الرقيق والطواغيت والمرازبة والجحاجح والبغاة والظلمة والمستكبرون وهم (الملأ).

كما أطلق عليهم القرآن المجيد- ويفسره الراغب بـ: الذين يملأون العيون رواءً ومنظرا والنفوس بهاء وجلالا(١٥) يناوئون الثائر ويعارضونه بل ويحاربونه ويسخرون من تابعيه ويستهزئون من مناصريه ويعبثون بِ مؤيديه دفاعا عن أوضاعهم الطبقية وحماية لمصالحهم المادية وتمسكا بِ مكاسبهم المالية لأنهم ينقّهَون أن دعوته سوف تفقدهم جمعية ذلك.



ومن بين الفئات المغلوبة على أمرها النساء (١٦) فى الجزيرة العربية عندما دعا (المصلح) بِ الديانة الجديدة.

وأوضحنا فيما سلف نتفا من مظاهر القهر الذى وقع عليهن ومن أبرزها حرمانهن من الميراث وهو الأمر الذى دفع أم سلمة (سبق نسخنا قطاعا من حياتها ا.هـ). إلى أن ترفع صوتها محتجة باعتبارها من زعيمات النسْوَن حتى بعد أن زَبَدَهنّ القرآن الحكيم نصف الميراث(١٧)

(أخرج الترمذى والإمام أحمد والطبرانى قال: قالت أم سلمة : يا

---

(١٥) (المفردات فى غريب القرآن) لِ الراغب الأصفهانى ت ٥٠٢ هـ/ تحقيق محمد سيد كيلانى- طبعة ١٣٨١هـ/ ١٩٨١م - مكتبة البابى الحلبى - ب مصر.

(١٦) يقول العامة فى مصر عنهم : صنف الحريم.

(٢٧) زَبَدَه يزبده = أعطاه ومنه الحديث المروى:

(إنا لا نقبل زبد المشركين) - (تصحيح الفصيح وشرحه) لِ ابن درستويه- تحقيق د/ محمد بدوى المختون- مراجعة د. رمضان عبد التواب ص ٢٣٠- الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م - المجلس الأعلى لِ الشئون الإسلامية / مصر.



رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو فَ أنزل الله تعالى : «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض». ثم نزلت «أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى» الآية. (١٨)

أما الباحثة المغربية أمينة أمزيان الحسنى فقد أوردت رواية أخرى :

(أخرج الترمذى من حديث ابن أبى عمر عن مجاهد عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا تغزو النساء زاد الحاكم: ولا تقاتل فتستشهد وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تبارك وتعالى : «ولا تتمنوا ما فضل الله ». الآية) (١٩)

يبين أن الحديث بلغ درجة عالية من الصحة فقد أخرجه الترمذى وأحمد والطبرانى والحاكم النيسابورى ووصفه بأنه حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين.

كما ذكرالسيوطى أن الحاكم خَرّجه فى المستدرك. (٢٠)

ولولا أن اختصاص النساء بنصف الميراث حاك فى صدر أم سلمة لما فَلْقَطَت (= أسرعت) ب تلك المقولة الاحتجاجية، كما أنها (= بنت زاد الركب) فى ما نرجح ظلت على موقفها فَ أشرقت آية أخرى (أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى) فَ رضيت أو سلمت أمرها لله تعالى.

❖ ❖ ❖

بعد هذا الاستطراد الذى دفعنا الى زَبْره (٢١) موقف هند= أم سلمة من ميراث المرَة، نعود إلى سياقة البحث.

قبل الإسلام أطبق أولئك العربان على نفى النسوان من الإرث بِ الكلية وهذا موقف لم يُرض (نعمة الله) لِ أمرين:

الأول: فيه إجحاف بالغ بهن ومعلوم عُمق كراهيته له بعد أن ذاق منه الكثير فى طفولته وصباه وشبابه.

الآخر: أنهن من أوائل من تَبِعَه وآمن بدعوته، بل إن أول من استشهد فى سبيلها امرأة هى سُمية أم عمار بن ياسر، واشترك فى بيعة العقبة الأخيرة مرَتان من بنات قيلة هما أم عمارة نسيبة بنت كعب وأسماء بنت

(١٨) (المقبول) لِ الشيخ أبى عمر نادى الأزهرى - ص ١٩١- مرجع سابق- ووصف إسناده بأنه حسن.
(١٩) (أم سلمة - أم المؤمنين) الأول - ص ١٣٢- سابق.
(٢٠) (لباب النقول) ص ٥١ - مصدر سابق.
(٢١) زَبَرَ الكتاب زَبْرا : نسخه- المعجم الوسيط .

عمـر ، وهذه البـيـعـة على الأحـمـر والأسـود وشكلّت نقطة الانطلاق بِ النسبـة لِ الإسلام. كما أن مواقف النسوة البطولية فى المعارك خاصة فى غـزاة أحد تقطع بعـمق إيمانهن بِ الديانة التى بشّـر بهـا وبإخـلاصـهن وتفانيهن.

فَ أخذ يتربص النُهـزة لعلّ «العروة الوثقى/القـرآن» يُهديه نصا يرفع هذا الظلم عن المرّة ولو جزئيا، إذ إن إزالة العنت جميعه عنهن أمر عسير بل مسـتحيل لأن مـجـتـمع العَـرَبَة ذكورى بطريركى والمساواة بين الرجل والمرأة فى التراث سوف تثير حفيظتهم وتشعل غضبهم.

وهنا جاءت الفرصة:

(أخرج الإمام أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم وغيرهم عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع فَ قالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما معك يوم أحد شهيدا وإن عمهما أخذ مالهما فلم يَدَعْ لهما مالا . فَ قال : يقضى الله فى ذلك فَ نزلت آية المواريث، أرسل رسـول الله -ص- إلى عـمـهـمـا فَ قـال : أعط ابنتى سـعـد الثلثين وأمـهـمـا الثمن وما بقى فَ هو لك) (٢٢)

وأورد السيوطى الحديث ذاته وأضاف : ولا تنكحان إلا ولهما مال. ثم ذكر عبارة : يقضى الله فى ذلك ، فنزلت آية الميراث. (٢٣)

وجاء بِ رواية أخرى:

(وقد ورد فى قصة سعد بن الربيع وجه آخر: أخرج القاضى إسماعيل فى أحكام القـرآن من طريق عـبـد الملك بن حـزم أن عَمْـرة بن حـزام كانت تحت سـعـد بن الربيع فَ قُتل عنها فى أحد وكان له منها ابنة فَ أتت النبى- ص- تطلب ميراث ابنتها فَ فيها نزلت (يستفتونك فى النساء/ الآية) (٢٤)

بيد أن الرواية الأولى أصح وأشد توثيقا وألْيق بِ المناسبة.



(٢٢) (المقبول) لِ الأزهرى – ص -ص ٢٠٠، ٢٠١– سابق ، ووصفه بأن إسناده صحيح.
(٢٣) (لباب النقول) لِ السيوطى – ص ٤٩ – مصدر سابق.
(٢٤) (ذات المصدر ونفس الصفحة).

أما الواحدى النيسابورى فـَ يَزيدنا بـ رواية شبيهة بواقعة بنتى سعد بن الربيع (قوله تعالى «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون» الآية ، قال المفسرون: إن أوس بن ثابت الأنصارى توفى وترك امرأة يقال لها أم كَجّة وثلاث بنات له منها فقام رجلان هما ابنا عم الميت وَوَصيّاه يقال لهما سويد وعَرْفَجَة فـَ أخذا ماله ولم يعطيا امرأته شيئا ولا بناته وكانوا فى الجاهلية لا يُورّثون النساء والرجال الكبار وكانوا يقولون لانعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة، فـَ جاءت أم كَجّة إلى رسول الله -ص- فـَ قالت يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك علىّ بنات وأنا امرأة ليس عندى ما أنفق عليهن، وقد ترك أبوهن مالا حسنا وهو عند سويد وعرفجة لم يعطيانى ولا بناته من المال شيئا وهن فى حِجْرِى ولا يطعمانى ولا يسقيانى ولا يرفعن لهن رأسا).

فـَ دعاهما رسول الله -ص- فـَ قالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كَلاً ولا يُنْكِئ عدوا ، فـَ قال رسول الله -ص- : انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن فـَ أنزل الله تعالى هذه الآية). (٢٥)

وقد حمل كتاب (المقبول) لِ الأزهرى ذات الواقعة وأضاف أن امرأة ثابت طلبت من ابن العم خالد بدلا من سويد وبنات أوس اثنتان لا ثلاث.(٢٦) ولكنهما رفضا نكاحهما لدمامتهما، وأنه نزلت بـ شأنها آيتان: الحادية عشرة والسابعة والعشرون بعد المائة وكلتاهما من النساء. (٢٧)

أما السيوطى فقد رقم أنه (ورد سبب ثالث: أخرج ابن جرير عن السدى قال: كان أهل الجاهلية لا يورّثون الجوارى (أى البنات أو الفتيات الصبايا) ولا الضعفاء من الغلمان، لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال - فـَ مات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة يقال لها كَجّة وخمس بنات فـَ جاء الورثة يأخذون ماله فـَ شكت أم كَجّة ذلك إلى النبى-ص- فـَ أنزل هذه الآية (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك) ثم قال فى أم كَجّة (ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم).(٢٨) ورواية السيوطى فى الـ (الباب) توثق

---

(٢٥) (أسباب النزول) لِ الواحدى النيسابورى ص ص ٩٥-٩٦ - سابق.

(٢٦) وهذا يوثق ما سبق أن رقمناه: أن الفترة المبكرة اكتظت بـ الاختلاف فى جُلّ المناحى: الأسماء (أسامى الأشخاص والأماكن) والاعداد والوقائع .. إلخ ا.هـ.)

(٢٧) (المقبول) لِ الأزهرى ص -ص- ١٩٦-١٩٧- ووصف الحديث بأنه صحيح.

(٢٨) (لباب النقول) لِ السيوطى - ص ٤٩ - مصدر سابق.

ما قلناه بشأن الاختلاف في الأخبار سواء في الوقائع أم الأسامي أم الأعداد وأنه لا يقدح في جوهر النازلة أو الواقعة. وهذه ملاحظة هامشية اقتضاها التحليل والتقييم إنما الثابت من الحديث :

١- أن أولئك العُريان وضعوا مقياسا لمن يستحق التراث وهو الذكر الذي يمتطي ظهر الفرس ويحوز الغنيمة وهو معيار يدل على البداوة ويؤكد أن الغنائم هي هَمّهم المقيم وشغلهم الشاغل.

٢- أن ابني عم قيس بن ثابت (أو غيره) لا يعنيهما أن تعيش زوجته وابنتاه (أو بناته) في مسغبة أو لا تتزوجان إذ ليس لديهما مال تنكحان من أجله- وابنا العم يعلمان ذلك بداهة- إنما الذي يهمهما هو الحصول على المال وهو أمر يشفّ عن جلافة في الطبع وبداوة في الذوق وانعدام في الإحساس وخَوَاء في الأخلاق وصُفُور في الضمير ومَآبُه الافتقار إلى الحضارة والبعد عن المدنية والنأى عن الرقي وجماعه يؤكد النعوت التي رددناها عن ذياك المجتمع.

٣- أن العبارة التي وردت على لسان (العظيم/ العفو): (انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن) وبعدها نزلت الآية، حافلة ب الدلالات ثَرّة ب المعاني جَيّاشة ب الإيحاءات ولا تحتاج إلى تعليق وهي في غُنية عن الشرح ولا تفتقر إلى تَبْيِين، يفهمها الذكي ويَتَنَقّهها الفطِن ويدركها: اللوذعيّ ويستوعبها اللبيب.



في فاتحة هذا الكتاب أخذنا على المفسرين المحدثين استقاءهم الكثير من كتب التفسير التراثية وقد يعترض قارئ : ها أنت ترجع إليهم؟

وردنا ينحصر في أمرين:

الأول: أننا - بعكس المفسرين المحدثين - لا نتوكأ أو نتعكز على القدامى وفرق بين الاستشهاد ببضع فقرات لِ تحليلها وتقييمها وبين النَهْل والعَبّ.

الآخر: ما نأخذه منهم يدور في نطاق (أسباب النزول) لتوثيق ما جاء في المؤلفات التي خصصها مصنفوها لها (= الأسباب) فحسب.

بعد هذه الملحوظة نرجع إلى السياق:

(روى عطاء قال: استشهد سعد بن الربيع وترك ابنتين وامرأة وأخا فأخذ الأخ المال كله، فأتت المرأة : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد وإن سعدا قتل وإن عمهما أخذ مالهما، فقال -ص- ارجعى فلعل الله سيقضى فيه ثم إنها عادت بعد مدة وبكت فنزلت هذه الآية (الحادية عشرة من سورة النساء)، فدعا رسول الله -ص- عمهما وقال: أعط ابنتى سعد الثلثين وأمها الثمن وما بقى فَ هو لك، فَ هذا أول ميراث قسم فى الإسلام).(٢٩)

وما أورده الفخر الرازى (ثم إنها عادت بعد مدة) يدل على أن (مأدبة الله/ القرآن) تمهّل حتى أشرقت آية المواريث لأنها تمس عُرفا راسخاً رسوخ الأجْبُل الرواسى، كما أن الذُكْران نازحين وأثارية سوف يتململون بعد انبثاقها لأنها تنال من وضْعَيْهم المادىّ والمعنوىّ وقد شبوا وشابوا على إلفه (=عدم فراقه) واعتياده وبناء حساباتهم المعاشية على مقتضاه.

أما قوله (= الفخر الرازى) إنه أول ميرات قُسّم فى الإسلام فمعناه أن نظام التوريث السابق على الإسلام بِ ما فيه حرمان النِسْوَن والجوارى (الصبايا) وصغار الغلمان ظل معمولاً به حتى بعد غزاة أحد التى وقعت فى السنة الثالثة من النزوح.(٣٠) أى أنه استمر سارى المفعول ستة عشر عاما منها ثلاثة عشر فى قرية التقديس وثلاثة فى قرية الحَرْتَيْن أى ما يقرب من ثلثى عمر الدعوة المحمدية (المباركة) وهذا يقطع بِ استقرار عرف التوريث البدوى الذكورى وإلا لما احتاج تغييره هذا المدى الطويل.



ويقول الْكِيَا الهَرَاسِىّ (وقضى رسول الله -ص- فى تركة سعد بن الربيع للبنتين الثلثين وللزوجة الثمن والباقى لِ أخته.) (٣١)

ولا يفوتنا أن نلحظ عبارة (والباقى لِ أخته) لا لِ ابنى عمه ولا لِ أخيه كما جاء فى روايات سوابق، لأن التباين والاختلاف أهم علامة تَسِم مَرْويّات فترة التدشين لعدم معرفتهم بِ (التدوين) الذى درج عليه وأتقنه منذ ألوف الأعوام قبل هذه الأحداث المُعجبة المبروكة أجدادنا قدامى

(٢٩) (مفاتيح الغيب - التفسير الكبير) لِ الفخر الرازى - الجزء التاسع - ص ٤٧- مصدر سابق.
(٣٠) (تاريخ الطبرى)/ الثانى ص ٤٩٩ - مصدر سابق.
(٣١) (أحكام القرآن) لِ عماد الدين محمد الطبرى - الجزء الثانى - ص ٣٤٣، وذكر فى الهامش: رواه أحمد والترمذى وأبو داود وابن ماجة، مصدر سابق.

المصريين. أما أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بـ ابن العربي فقد أورد خبر مجيء زوجة سعد بن الربيع لـ (الشاهد / الشديد) وشكواها إليه بـ ذات التفصيلات التي عبقت بها الرواية الأصلية التي سقناها فيما سلف وقوله لها (يقضي الله في ذلك) فـ نزلت (يوصيكم الله في أولادكم) (٣٢) وهكذا عاضدت كتب التفسير، مصنفات أسباب النزول في توثيق خبر شكوى زوجة سعد بن الربيع لحرمانها وابنتيها من ميراثه لأن عمهما استَنْفَاه لـ نفسه وبعدها هلّت بطلعتها المشرقة آية المواريث على مهل وريث.

وهكذا غدا هذا الحديث صحيحا لا تعتريه أدنى شائبة.

ولا نضيف جديداً حين نرقم أن الآية حققت مطلب أرملة سعد وكافة النِسْوَن غِبّ أن منحهن (الإيمان / الموعظة) نصف التراث بعد حرمان امتد مئات الأعوام.

ومن رجا آخر أقبلت الآية كـ مكافأة للنساء على مواقفهن من الدعوة التي بشّر بها (سيد الخلق) والتي نسخنا فيما مضى نُتفاً منها خاصة في عركة أحد بـ خلاف عدد من كبار الصحابة أدبر وأعطى ظهره للعدو وهو يعلم أن ذلك من أكبر الكبائر ومن غرائب التاريخ أن من بين من فعله من تولى الإمامة العظمى أي الخلافة، يضاف إلى ذلك أن (أول من يفيق من الصعقة) بثاقب بصره ونافذ بصيرته ووسيع أفقه أدرك بعد ما حدث في أحد أن النِسْوَن فيهن أو لديهن نفع كبير في ميادين القتال. ولـ الديانة التي يذيعها ويفشيها وللدولة التي يضع في صرحها لَبِنَة بعد أخرى واللتين تَعْبُران مَزْنَقا ضيّقه ملحوظ وحُروجته واضحة وعقباته عديدة وعثراته خطرة ومن ثم فـ هما (= الديانة والدولة) في أمسّ الحوجة لـ يد العون من كل فرد في المجتمع.

وفي حديث له معروف (النساء شقائق الرجال) ولـ رفع روحهن المعنوية ولـ تشجيعهن على مزيد من البذل ولحضّهن على تقديم ضعف العطاء فـ لا أقل من زَيْدهن شطر الإرث، وهكذا يثبت القرآن الحميد أنه يواكب جماعة المسلمين وأن عينه عليها وأنه يتفضل بـ إجابة طلب أفرادها ويتكرم بـ تحقيق رغبة أعضائها ويتعطف برفع سبب شكاية من يئن

(٣٢) (أحكام القرآن) لـ ابن العربي، المجلد الأول - ص ٣٣٣ - مصدر سابق.

ويتوجع من ذُكرانها ونِسْوَنها وأن إطلال آياته كَ الشموس المضيئة بين الحين والآخر بلغ غاية الحكمة التى خفيت عن العقول القاصرة لِ أولاد الأفاعى.

{٤}

الرجل لعبته المرأة

هذه مقولة تنطبق على مجتمع أولئك العُربان، وقد صرح بها أحد كبارهم عندما ناقشته بِ منتهى الأدب والخضوع زوجته فى أمر يهمها أو يخصها فصاح فى وجهها: مالك وذاك ما أنت إلا لعبة ألعب بها وقت حاجتى إليها ثم أركنها أسفل الجدار. ومن الجائز أن تغدو الأحاديث والأقوال موضع تهزيل (من الهُزال) ومجال توهيِّن ومحل تشكيك وهناك شعار شهير لِ أحد المبرزين فى علم الحديث: أىّ حديث ضعيف قويناه وأى حديث صحيح أو حسن ضعفناه.

وهى دعوى لا تنضوى على أدنى قدر من المبالغة، لأن دفع الحديث قد يأتى من صوب المَتْن بِ زعم أنه لا يتفق وما جاء فى القرآن الكريم (بداهة من وجهة نظر الطاعن) أو يأتى من ناحية السند، فإن لم يلحق بـ تاريخية الرواية شائبة أى أن فلانا روى عن فلان فى حين أنه لم يحدث بينهما لقاء أو يغمز أحد رواته بأنه صاحب بدعة أى ممن تكلموا فى الذات أو فى الصفات (صفات الله) أو فى القضاء والقدر أو غيرها أوعرف بالتشيّع وهكذا.

فإذا صح المتن وسلم رواته من المطاعن قالوا عنه (= الحديث) إنه منسوخ إما بِ آية وإما بِ حديث آخر.. إلخ مع وضع ملاحظة هامة فى الحُسبان وهى أن الحديث الذى يطعن فيه لا يوافق مذهبه أو رأيه أوحتى هواه.

إذن التعكّز على مقولة لأحدهم ولو من مرازبتهم لإثبات نظرة أولئك العربان المتدنية لِ المَرَة لا ينتصب دليلاً قاطعا.

إنما الأفعال هى التى تقطع المناوئ وتُخرس المشاغب وتُسكت المخاصم:

(كان الرجل يطلق امرأته ما شاء الله أن يطلقها وإن طلقها مائة مرة أو

آكثر إذا ارتجعها قبل أن تنقضى عدتها، حتى قال رجل لِ امرأته والله لا أطلقك فَ تبينى منى ولا آويك إلى، فقالت وكيف ذاك؟ قال: أطلقك وكلما قاربت عدتك آن تنقضى ارتجعتك ثم أطلقك وأفعل ذلك.

فَ شكت المرأة ذلك إلى عائشة فذكرت ذلك عائشة لِ رسول الله - ص- فَ سكت فَ لم يقل شيئا حتى نزل القرآن (الطلاق مرتان..) (٣٣)

وذكره السيوطى فى ال (لباب) بِ ذلك السند ولو أنه اكتفى بِ الترمذى من (أصحاب الصحاح) والحاكم النيسابورى ولكنه رَقَم أن المَرَة تشكَّت إلى (صاحب المغنم) مباشرة دون توسط التيمية بنت عتيق بن أبى قحافة.

وفى أحكام القرآن لِ ابن العرابى أن الزوج من الأثاربة بنى قيلة وأن شكوى مبعولته أفضت بها بنفسها إلى (القارئ الكريم). (٣٣)(أ)



أكد الباحث عبد الله شحاته - بعد تمحيص منه - مسألة لعب أولئك العُربان بِ الطلاق ونحن من جانبنا نرجعها إلى استهانتهم بِ أقدس علاقة ولنظرتهم للمرأة التى تتسم بِ التعالى من جهتهم والدونية إلى ناحيتها وجماعه منبعه التبدىّ.

يوثق شَحاته ذلك ف يزبر (أى يكتب) (ثبت أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم لِ الطلاق عدد وكانت عندهم العدة معلومة مقدرة (٣٤)

ثم ساق الحديث كما طلع علينا الشيخ أبو عمر نادى الأزهرى.



إذن نحن بصدد شكاية صحابية من بنات قيلة بثّتها بِ الذات أو بِ الوساطة لِ (البهاء) ضد زوجها الذى عزم على تعليقها نزولاً على العرف المستقر فى المجتمع البدوى الذكورى بِ أن يطلقها حتى إذا قاربت عدتها على النهاية راجعها وهكذا حتى أقرب الأجلين: أجلها أو أجله.

---

(٣٣) (المقبول) لِ الشيخ أبى عمرنادى الأزهرى ص ١٢٢- ص ١٢٣ مرجع سابق.

وقال المصنف : رواه الحاكم والترمذى والطبرى عن عائشة-رض- ووصف إسناده بِ أنه صحيح وأن الحاكم صححه فى المستدرك، ورواه عبد بن حميد فى تفسيره ورواه ابن مردويه فى السنن ومالك فى الموطأ.

(٣٣) (أ) (أحكام القرآن) لِ ابن العربى - الأول - ص ١٨٩- مصدر سابق.

(٣٤) (تفسير القرآن الكريم) لِ عبد الله شحاته - الجزء الثانى - ص ٢٧٠ - مرجع سابق.

ـ و (الخالص) يعلم هذا التقليد المستقر الراسخ فى المجتمع وأنه سلاح فى يد الذُكران يشكمون به النسوة: يهددون به الناشز ويخيفون بموجبه العاصية ويردعون بمقتضاه النَفُور ولو انتزعه من أيديهم لـ عصَّلبن (٣٥) عليهم ولما استطاعوا التحكم فيهن (هذا ما يتوهمونه).



هذا من رجال(ناحية)، ومن آخر فـ إن النِسْوَن يعانين بشدة الظلم الذى يقع عليهن من جرّاء استمرار هذا العرف الوَبىء والعادة الدنيئة والتقليد الطِفس ، ولقد أثبتن منذ فجر الدعوة المباركة أنهن من أشد الأعوان إخلاصا كما أن الأيام المستقبلة تعمّق الحَوُجة إليهن إنْ فى جناح الديانة أو فى قطاع الدولة الوليد.

تلك هى دَوَالّ العبارة التى وردت فى الحديث الشريف (ف سكت ولم يقل شيئا) بيد أن (الأمر/ القيم= القرآن) لم يسكت وأنىّ له أن يفعل وقد تقدمت بطلبتها صحابية أثربية لتصحيح وضع جائر يُضيرها هى وبنات جنسها حتى يرث الله الأرض ومن عليها فبعث آية كريمة (الطلاق مرتان).. استجابت للشكاية وقضت على التقليد الظالم وأنصفت شقائق الرجال وكأنى به (الكتاب/ النور) يقول لهم ولهن إنى معكم لا أغادركم طَرْفَة عين وأدخل معكم فى علاقات جدلية حميمة ومن هنا لم أنبثق دفعة واحدة كـ توراة موسى وإنما تهلّ نجومى على مراحل تنير لكم الجَادّة (الطريق) أمام مشكلاتكم وتبدد الظلام الدامس الذى عَشّش حول الكثير من تقاليدكم المتفسخة وتفتح المغاليق التى سكّرتها عاداتكم البالية.



{٥}

رَقَمنا فيما سلف أن (رضوان الله) عندما شَرّف قرية الحَرتينْ وخبر أحوال (إخوان القردة والخنازير وعبدة الطاغوت) كما أطلق عليهم يوم قريظة:

أخرج بن جرير عن مجاهد قال قام النبى -ص- يوم قريظة تحت حصونهم فقال : يا إخوان القردة والخنازير وعبدة الطاغوت. (٣٦)

---

(٣٥) العامة فى مصر تقول (عصلجت) .

(٣٦) (لباب النقول فى أسباب النزول) لـ الجلال السيوطى، على هامش (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) لـ الفيروزى آبادى صاحب القاموس، المتوفى ٨١٧ هـ - الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ / ١٩٥١ - مكتبة مصطفى البابى الحلبى - مصر .

وأدرك كثافتهم وفَرْشَحَة ذراعهم الاقتصادية وقوة تأثيرهم الدينى والاجتماعى باعتبار أنهم (= القردة لا اليثاربة العزّبان) من ذوى العلم الدينى وبأيديهم إسطير مقدس مَتَحَتَ من بيْره سائر الإسطيرات التالية: فصلىّ تجاه بيت المقدس أو قرية السلام- أورشليم وتابعه صحبه-. وشكّلت البادرة خطوة فى درب الموادعة أو المودّة التى قرر أن يمشى فيها لما يقرب من عام ونصف عام، بيد أنهم أثبتوا بِ حق أنهم قردة خنازير، فانبثقت آية عظيمة من (الشفاء/ القرآن) -وكل آياته عظيمة - أذنت له ول تبعه الاتجاه فى الصلاة نحو قرية القداسة العربية أو الكعبة أو إرث إبراهيم.(٣٧)



تحويل القبلة أقلق عددا من الصحابة لا بسبب التردد : مكة (الكعبة) ثم إيليا ثم مكة مرة أخرى إنما لعلة أخرى مغايرة ولكنها تقترن أو تتصل بها بِ حبل ربما لا يتسم بِ المتانة والشدة إنما فى نهاية الشوط من اليسير العثور على وشيجة لَبَكّتهما (= خلطهما).

ماهو موقف أو مصير الصلوات التى صلوها هم ومن سبقهم إلى الدار الآخرة خلال الأشهر الثمانية عشرة صوب القرية التى يقدسها أولاد الأفاعى كما وسمهم عبد الله ورسوله وابن أمته عيسى ابن الصديقة مريم؟ (٣٨)

(كان رجال من أصحاب رسول الله -ص- قد ماتوا على القبلة الأولى

---

(٣٧) هناك خناقة (وهى كلمة فصيحة) لِ رب السماء بين المسلمين واليهود على أمرين:
الأول : أيتهما أقدم وأكثر قداسة بَكّة أم إيلْيَا (أورشليم).
الآخر: كبير البطارقة وأبوهم وأصل أصولهم إبراهيم أو إبراهام
(فى مصر يدلعون من يسمى إبراهيم بِ برهوم مرة وهِيْمة أخرى ا.ه).
هل هو يهودى أو حنيف..
ورغم بلوغ عمر العركة المبرورة بدايات القرن الخامس عشر فَ إن الطائفتين لم تصلا حتى كتابة هذه السطور إلى حل وسط مع أن كليهما تكتظ بِ طوابير مرصوصة من العلماء والمشايخ والأحبار والربيين ا.ه.

(٣٨) علماء النصرانية (المسيحية) يؤكدون أن اسم أَمَة الله أم عبد الله ورسوله عيسى هو مارى أما مريم فهو اسم أخت هارون أخى موسى بيد أن القرآن المجيد سماها مريم وتوّج سورة كاملة بهذا الاسم وهو شرف منيف لم تنله سيدة نساء الدنيا أم هند الطاهرة خديجة بنت خويلد.
وبداهة نحن لا شأن لنا بِ ما يدعيه علماء الدين المسيحى ونَتَتَبّع ما جاء فى (الشفاء/ الموعظة= القرآن) ومن ثم رقمنا اسمها الذى ورد فيه وهو مريم ا.ه.

منهم أسعد بن زرارة وأبو أمامة أحد بنى النجار والبَرَاء بن مَعْرُور أحد بنى سَلَمة وأناس آخرون جاءت عشائرهم فقالوا : يا رسول الله توفى إخواننا وهم يصلّون إلى القبلة الأولى وقد صرفك الله تعالى إلى قِبلة إبراهيم فكيف بِ إخواننا؟.(٣٩) فَ أنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) الآية.



لكَ المنهج الذى اتبعناه نيمم صوب كتب التفسير العوالى لنتعرف سبب انبثاق هذه الآية توثيقا وشدا لِ أَزْر مصنفات (أسباب النزول) (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى ثباتكم على الإيمان وقيل إيمانكم بِ القِبلة المنسوخة وصلاتكم إليها لما رُوى أنه -ص- لما وُجّه لِ الكعبة قالوا : كيف بِ من مات يا رسول الله قبل التحويل من إخواننا؟ فَ نزلت.(٤٠)

ويؤيد أبو محمد بن عطية سبب إشراق الآية سالفة الإلماع فَ يقول:

(فَ وجَسَت نفوس بعض المؤمنين وأشفقوا على من مات قبل التحويل من صلاتهم السالفة فَ أنزل (وما كان الله لِ يضيع إيمانكم).(٤١)

وفى تفسير الجلالين: (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليه لأن سبب نزولها السؤال عمن مات قبل التحويل).(٤٢)

أما المقصود بِ كلمة إيمانكم التى وردت فى الآية هو صلاتكم كما ذكر الجلالان ويقول الَراغب فى مفرداته (وما كان الله ليضيع إيمانكم إى

---

(٣٩) (أسباب النزول) لِ الواحدى ص ٣٦ مصدر سابق.

(لباب النقول) لِ السيوطى - ص ١٩ طبعة دار الشعب - مصدر سابق.

وقد أورده الشيخ أبو عمرنادى الأزهرى فى (المقبول) وذكر أن إسناده صحيح وأضاف أن ابن كثير أورده فى تفسيره وقال عنه الشيخ شاكر فى (العمدة) إسناده صحيح وأخرج بعضه الترمذى فى تفسير سورة البقرة وقال عنه: حسن صحيح، وأبو داود (من أصحاب الصحاح الستة كَ الترمذى) وكذا ابن ماجة فى سننه (وهو منهم) وأخرجه أحمد بن حنبل فى (المسند) كما جاء فى صحيح ابن حبان وعزاه السيوطى فى ال (لباب) للطبرى والأخير أورده فى تفسيره.

(المقبول) ص ٨١ مرجع سابق.

وبذا وصل هذا الحديث إلى محطة الصحة وهو مطمئن البال.

(٤٠) (أنوار التنزيل) أو (تفسير البيضاوى)لِ قاضى القضاة البيضاوى- ص ٣٠ - مصدر سابق.

(٤١) (المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) لِ أبى محمد عبد الحق بن عطية ٤٨١/٥٤١هـ تحقيق الملاح - الأول - ص ٤٤١ - لجنة القرآن والسنة- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بِ مصر.

(٤٢) (تفسير الجلالين) وهما جلال الدين محمد بن أحمد المحلى وجلال الدين السيوطى - ص٢٠ - دون تاريخ- مكتبة الجمهورية العربية المتحدة.

صلاتكم). (٤٣)

ويعلل ابن عطية تسمية الصلاة ب الإيمان (ف سميت إيمانا إذ هى من شُعَب الإيمان) (٤٤)



إن تحويل القبلة من إيليا إلى الكعبة بقدر ما غاظ بنى إسرائيل نفحهم مجالا وسيعا للدّس والوقيعة والادعاءات الخبيثة والمزاعم التى تقطر سما. ينفثونها فى آذان تبع (المكتفى ب الله) خصوصا اليثاربة وهم عُريان ضيقو الأفق، محدودو النظرة، منعدمو الثقافة، مليطون من الفكر، فما إن سمع أولاد الأفاعى ب آية التحويل حتى أرْقَلُوا إليهم يبلبلون إيمانهم ويُشَوشُون عليهم إسلامهم ويخلخلون عقيدتهم ويزلزلون ديانتهم خاصة أنهم حديثو عهد بها إذ لم يمض على اعتناقهم إياها أقل من عام ونصف عام فَ طفقوا يسألونهم:

أى دين هذا الذى يغيّر قبلة صلاته، ففى بدئ الشأن التوجه إلى الكعبة ثم بعدها التحول صوب إيليا وعقب أقل من عامين: العودة إلى الكعبة مرة أخرى؟

إن ماعلمناه من كتبنا أن القِبْلة إذا شُرّعت لاتبدل وكيف تُغيّر والصلاة عماد الدين وأول ركن فيه بعد الشهادتين؟

إن الأمر لا يخرج عن فرضين:

إما أن التوجه إلى إيليا (فى الصلاة) حق وصدق من عند الله فَ لا يصح تبديله ويتعين الاستمرار عليه إلى يوم القيامة!

وإما أنه باطل وليس فيه حق ولم يأمر به الرب فكيف إذن يممتم صوب بيت المقدس طوال تلك المدة؟

أما أن يصبح حقا ثم يمسى باطلا فَ ما يقول به عاقل!

وما السبب فى انقلابه من باطل إلى حق؟

ألا يدل التحول على أن (أبا القاسم) قد جرفه الحنين إلى مسقط رأسه وإلى دين أبيه وأجداده وأن التحويل بداية فى جادة العودة إليه؟

وفيم إذن هذا العناء وكل هذه التضحيات؟

---

(٤٣) (المفردات فى غريب القرآن) لِ الراغب الأصفهانى -ص- ٢٦ سابق.

(٤٤) (المحرر الوجيز) ص ٤٤١/ سابق.

والأهم منه جماعه:

ماهو مصير الصلوات التى صليتموها طوال الأشهر الثمانية عشر ؟

وإذا أتيحت لكم الفرصة للتصحيح فكيف بِ آبائكم وإخوانكم وأبنائكم الذين قُبُروا قبل التحويل وبالتالى انعدمت لديهم أى نُهزةٍ لِ التصويب؟

هذه التساؤلات الماكرة التى طرحوها على المسلمين أثّرت فى عدد كبير منهم وفى المقدمة الأثارية وفعلت فى قلوبهم فعل السحر وأقلقتهم وحركتهم، ونستدل عليه بِ ما جاء فى الخبر: (جاءت عشائرهم) أى لم يأت أفراد منهم بل عشائر بِ الجمع، ومن بين معانى العشيرة= القبيلة، تقول عشيرة الرجل= قبيلته، أى أن قبائل من ماتوا جاءت.. والمقصود هنا: أرهاطهم وأفخاذهم وبطونهم لأن بنى قَيْلَة يشكّلون قبيلة واحدة من فرعين هما الأوس والخزرج.

المهم أن الاضطراب هيمن على أهاليهم ولم يقتصرعلى نفر محدود، مما يشى بِ نجاح أولاد يعقوب فى دسائسهم وفلجهم فى مكائدهم وظفرهم فى ألاعيبهم. بل إن الغاية بلغت مداها فقد أثرت دعاوى يهود الفاسدة المفسدة إذ ارتد عدد من المسلمين عن دينهم (وقد ارتد لذلك جماعة) (٤٥)

وإذ إن الشىء بِ الشىء يذكر فَ لم يرد فى كتب السيرة المحمدية المعطار أو فى مصنفات أحاديثه الشريفة أنه قتل أو أمر بِ قتل هؤلاء المرتدين مما يؤيد مقولة إن الردّة ليست حدا شرعيا إذ حاشاه أن يسكت ولا يطبق الحد . ا.هـ.

❖ ❖ ❖

عند ذلك بلغ المَرَج أقصاه والهَرَج منتهاه والفتنة ذروتها وصار حتما مقضيا إجابة العشائر على سؤالها عن مصائر أفرادها الذين يَمّموا شطر أورشليم ثم ماتوا قبل التحويل إلى كعبة قرية التقديس العربية. (٤٦)

ولوقف نزيف الردّة التى هى طعنة نجلاء فى جسد الديانة ولطمة مزلزلة للدولة الناشئة إذ إنها فى أمسّ الحَوْجَة إلى الأجناد والعسكر والأعوان لا العكس.

---

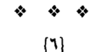
(٤٥) (تفسير الجلالين) -ص-٢٠ مصدر سابق.

(٤٦) فى ذياك الزمن المدهش انضوت جزيرة اولئك العُربان على أكثر من عشرين كعبة ولكن لم فقط إحداها بِ شهرة كعبة بنى سخينة فى بكة. ا.هـ.

وكَ منهـاج (الصـحف المكرمـة/ القـرآن) الذى اسـتنه سـارع لِ تقـديم الاجـابة خـاصـة أن السـؤال لم يطرحـه فـرد أو نفـر مـحـدود بل عـزُوْن (جماعات واحـدتها عِـزة)،(٤٧) أكثـروا الوَعْوَعَة وأداموا اللغَط وأجلبوا بِ الصخب وهنا طلعت كَ البدر المنيـر آية (ومـا كان الله ليـضيـع إيمانكم - ١٤٣ من سورة البقرة، أى صلاتكم (والإيمان ها هنا الصلاة).(٤٨) فَ تلاها (ذوالخلق الكريم) على تلك الفِـئـام فَ هـدأت قلوبهم إذ تيـقنوا أن ذويهم الموتى قبل التغيير لم يُبخسوا حقهم واستوفوا جزاءهم ونالوا مثوبتهم.

وانفرجت أسارير (صاحب المقام المحمود) حين رضوا إذ هم سـواعده القـوية التى يقـهـر بهـا مـشـركى الجـزيرة على أن ينطقـوا بِ الشـهـادتين وأعـضـاؤه الصلبـة فى تأسـيس دولة قـريش التى طالما تمناها الأجـداد المباركون.

وفى كل نازلة يؤكد الذكر الحكيم العلاقة الجدلية التى يلتحم بها مع المجتمع وأفراده وأنه لا يتخلى عنهم ولو برهة يسيرة.



{٦}

انتـقش الإسـلام كـثـيـرا من الفـتـرة السـابقـة عليـه.(٤٩) فى كـافـة القطاعات، فَ فى قطاع العقيدة نادى الحنفاء أو المتحنفون بِ (التوحيد) ونبذ الشرك.

وفى شقِّ العبادة نقل شعيرة الحج (وتبعا له الاعتمار أو العمرة) بِ حذافيرها حذوك القُذّة بالقُذّة ماعدا التلبية فقد نقّاها (= الإسلام) من الإشراك مثلما سبقه المتحنفون الداعون إلى (التوحيد) كما أسلفنا - وانتقاش(٥٠) الحج له دافعان حيثيان أولهما أنه أكبر موسم تجارى لانتصاب الأسواق التجارية الكبرى مثل عُكاظ ومَجَنّة وذى المجاز على هامشه، فَ الغاؤه سيصيب المكاكوة بِ خسارة تُكرّههم فى الإسلام والعكس صحيح أى

---

(٤٧) (نظام الغريب فى اللغة) ص ١٤٧ - سابق.

(٤٨) (المختصر فى تفسير القرآن) لِ ابن صمادح التُجيبى - ١٧ مصدر سابق.

(٤٩) تسمى الجاهلية تنفيرا منها وتبغيضا فيها وهى تسمية أيديولوجية.

(٥٠) فى المعجم الوجيز / انتقش الشىء = اختاره - والعامة فى مصر تقول (نقش) فلان من فلان الفكرة أو نحوها : نسخها أو استعارها منه ا.هـ.

استبقاؤه يحببهم فيه ويدفعهم إلى اعتناقه.

والباعث الآخر أن الأعاريب الذين تابعوه على ديانته شَبّوا وشابوا على أداء مناسك الحج وعلى تعظيم الكعبة وتُشبِّع هذه الطقوس وجدانهم وتريح نفوسهم وتثلج صدورهم وتدخل السرور على قلوبهم، فـ من الرجا الاجتماعي يعتبر متنفسا لهم إذ حياتهم تَصْفُر من مثل هذا المنتدى المُفرشّح.

إذن تنتج فوائد جمة يحققها منسك الحج = تجارية/ اجتماعية/ نفسية / عاطفية/ تاريخية.. إلخ، فـ لو ألغى ب الكلية لقوبل حظره ب ثورة عارمة أو ب الأقل لَغَط وَوَغْوَغَة وصخب، في حين أن استبقاءه سيضرب عدة عصافير ب حجر واحد.(٥١)

من المؤكد أن نلفى من سوف يمارى فى هذه الحقيقة التاريخية رغم تقديمنا ل الأدلة الموضوعية، إذ إن القراء (أو قطاعا وسيعا منهم ا.هـ) درج على سماع آراء مباينة فى هذه النقطة ب عبارات إنشائية وجمل خطابية ومقولات بلاغية سنين عددا، فمن العسير عليه أن يهضم الأفكار التى نطرحها لأنها تضاد الهالات التى تحيط ب مثل هذه المواضيع والتى رُبِىّ عليها منذ نعومة أظفاره والتى حقنته بأمصال زَبَدته ب حصانة تحبسه عن تقبل العقلانية.

من هذا المنطلق يقبّ هذا المثال السادس لكيما يموضع هدفين:

أ- إقناع القارئ ب أن تشريع الحج انبثق ل إرواء ظمأ التبع والأصحاب نفسيا واجتماعيا وعاطفيا ب إتاحة الفرصة لهم لأداء منسك طالما ألفوه.

ب- تلبية رغبة بنى قيلة أعاريب قرية الحرتين خاصة بتضمين الحج شعيرة الطواف سبعة أشواط (لاحظ الرقم سبعة) بين الصفا والمروة لأنها أثيرة لديهم إذ دأبوا على القيام بها تعظيما ل معبودتهم مَنَاة.

(أخرج البخارى والترمذى وأحمد عن عائشةَ فى قوله عز وجل : إن الصفا والمروة من شعائر الله - قالت : كان رجال من الأنصار من يَهلّ ل مناة. ومناة صنم بين مكة والمدينة، قالوا : يا نبى الله إنا كنا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً ل مناة فـ هل علينا من حرج أن نطوف بها فـ أنزل الله عز وجل .. الآية). (٥٢)

---

(٥١) من أراد المزيد فى موضوع ما نقله الإسلام من الفترة السابقة عليه فى شتى القطاعات فـ نحيله إلى كتابنا (الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية) وقد طبع مرتين وطالبنا البعض ب ثالثة ا.هـ.

وجاء فى ال (لباب): (أخرج البخارى عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنسا عن الصفا والمروة قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله الآية). (٥٣)

هذه رواية أخرى للبخارى، وأنس الذى ورد اسمه فى الحديث هو أنس بن مالك أحد مشاهير الصحابة وهو خادم (ذى الجهاد) وفضلا عن ذلك فهو أثربى مِمّن كانوا يَهلّون لِ مَنَاة.



هذا ما ثبت فى كتب (أسباب النزول) ثم نثنى بِ مؤلفات (أحكام القرآن والتفسير).

أورد ابن كثير فى تفسيره الحديث الذى خرّجه البخارى فى صحيحه والذى فيه سأل عاصم بن سلمان أنس بن مالك عن الصفا والمروة الذى نسخناه آنفا (٥٤) .وأورد القرطبى (ذكرت عائشة ممن كان يهلّ بِ مَنَاة كانوا يطوفون كلهم بِ الصفا والمروة فَ لما ذكر الله تعالى الطواف بِ البيت ولم يذكر الصفا والمروة فى القرآن قالوا: يا رسول الله: كنا نطوف بِ الصفا والمروة والله أنزل الطواف بِ البيت فَ لم يذكر الصفا فَ هل علينا حرج أن نطوف بِ الصفا والمروة؟ فأنزل الله عز وجل الآية). (٥٥)

هذا خبر بالغ الثمانة، غالى القيمة لأنه صريح النص والدلالة معا على أن الطواف بِ الصفا والمروة لم يُذكر فى القرآن فى بدئّ الأمر إنما ورد بعد أن سأل اليثاربة بنَو قَيْلة الذين أدمنوا الإهْلال لِ مَنَاة ثم الطواف بهما (الموقر) هل ثمة حرج عليهم أن يفعلوا؟ فَ أشرقت آية كريمة به.

إن ما يدل على أن الطواف بين الصفا والمروة فى أول الأمر لم يُشكّل ضفيرة فى نسيج الحج أن الآيات التى تناولته فى القرآن العظيم، وهى من السادسة والتسعين بعد المائة حتى المائتين، لم تشمله مع أنها ذكرت أمورا

---

(٥٢) (المقبول) لِ الأزهرى ص ٨٥، ٨٦ . ووصفه المصنف بِ أن إسناده صحيح.
خرّج هذا الحديث البخارى فى صحيحه والترمذى فى سننه وقال عنه إنه حسن صحيح وكذا أحمد فى مسنده.

(٥٣) (لباب النقول) لِ السيوطى ص ٢٠ مصدر سابق.
وكذلك الواحدى فى (أسباب النزول) ص ٢٨ – مصدر سابق.

(٥٤) (التيسير خلاصة ابن كثير) ص ٧٢– مصدر سابق.

(٥٥) (الجامع لِ أحكام القرآن/ تفسير القرطبى) لِ القرطبى– المجلد الأول ص ٥٥٩/٥٦٠.

أخرى أخفض منه رتبة وأدنى منه درجة وأنحف منه منزلة مثل ما يفعله المريض أو من به أذى فى رأسه وكذا الرَفَث والجدال فيه (= فى الحج) وابتغاء الفضل (التجارة) إبّانه ثم ذكر الله كَ الآباء أو أشد.

أما ما ورد فى الآية السابعة والتسعين من سورة آل عمران فهو فرض الحج على الناس (= المسلمين) المستطيعين وفى سورة الحج وهى أيضا مدنية حديث عن الأذان بِ الحج فى الناس وكيف أنهم س يأتون من كل فَجّ عميق ورجالا وراكبين لِ يشهدوا منافع لهم وليقضوا تَفَثَهم (ما يصيبهم بسبب ترك الادّهَان والغسل والحَلْق) وليوفوا نذورهم وليطوفوا بِ الكعبة.

وليس فى إحدى الآيتين الكريمتين أى ذكر للطواف (بين الصفا والمروة) مع أنه نُصّ بِ كلتيهما على أمور (طبعا بخلاف الطواف حول البيت العتيق) هى بكل تأكيد أقل أهمية منه مثل شهود المنافع وقضاء التَفَث والوفاء بِ النذور. إلخ . فَ لو أن الطواف المذكور من الشعائر منذ البداية لما أغفلته آيتا سورتى آل عمران والحج فى حين تكلمتا عما ذكرنا.

والسورة الثانية والعشرون (٥٦) تحمل اسم (سورة الحج) - بيد أنها صَفُرت -أى خلت- من ذكر الطواف بين الصفا والمروة ونحن نقدّم جماعه على أنه قرينة على خَوَاء الحج فى المبتدأ من شعيرة ذلك الطواف وقلنا قرينة فحسب لا دليلا أو حجة لأن آيتى سورتى آل عمران والحج أغفلتا أيضا ركنا ركينا فى الحج هو الوقوف بِ عرفة.

ويكفى أن مالكا والشافعى وأحمد بن حنبل ذهبوا إلى أنه (= الطواف بين الصفا والمروة) ركن من أركان الحج وساووه بِ الوقوف بِ عرفات، وهناك حديث محمدى شريف (الحج عرفة) أما الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان- عَطّر الله مرقده ونوّر ضريحه- فقد ذهب هو وتلاميذه إلى أنه واجب يُجْبَر بِ الدم.

ولم يقل أحد من الأئمة أو الفقهاء لا من السلف أو الخلف إن ابتغاء الفضل (= التجارة) واجتناب الجدال فيه ركن أو حتى واجب.

---

(٥٦) المستشرق الفرنسى ريجيه بلاشير يذهب إلى أنها التاسعة بعد المائة من رجا ترتيب النزول - ا.هـ.

فكيف تأتى الآيات الكريمات بِ هذه التفصيلات أو التفريعات أو الهامشيات ولا تنص على ركن (فى مذاهب الثلاثة) وواجب عند الأحناف؟



هذه واحدة أما الأخرى فَ هى أن الآية العظيمة الخاصة بِ الطواف بين الصفا والمروة جاءت بِ معزل عن الآيات الكريمة التى تناولت الحج وجزئياته، فقد حملت رقم الثامنة والخمسين بعد المائة من سورة البقرة سبقتها آيتان عن الصبر ولحقتها آية عن اللعنة التى تُصيب من يكتم ما أنزل إليه من البينات والهدى.

إذن يترسخ اليقين أن مناسك الحج فى فاتحة الشأن ليس من بينها هذا الطواف، والمنطقى أن له علة حزيبة وبِ التنقير والتنقيب عنها ألفيناها:

(أخرج الفاكهى وإسماعيل القاضى فى الأحكام عن الشعبى قال:

كان صنم بِ الصَفَا يدعى (إساف) ووثن بِ المروة يدعى (نائلة) فَ كان أهل الجاهلية يسعون بينهما فَ لما جاء الإسلام رُمِى بهما. وقالوا: إنما كان ذلك يصنعه أهل الجاهلية فَ أمسكوا عن السعى بينهما).(٥٧)

إذن الإعراض عن السعى بين الصفا والمروة فى بداية الإسلام عِلّته أن بنى سخينة فى الفترة السابقة على ظهوره دأبوا على الطواف بينهما لِ وجود صنم على كل منهما، أى أنه شعيرة (جاهلية!) فَ تَحرّج المسلمون من القيام به فى البداية وهذا ثابت من عبارات الخبر: لما جاء الإسلام رُمى بهما .. فَ أمسكوا عن السعى بينهما.

بيد أن هذا الخبر فى حاجة إلى توثيق أكثر كيما يغدو السبب الذى نطرحه أكيدا لا مجرد حَدْس.

(قال عمرو بن الحسين : سألت ابن عمر عن هذه الآية فقال: انطلق إلى ابن عباس فَ اسأله.. فَ سألته فقال: كان على الصفا صنم فى صورة رجل يقال له إساف وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى نائلة، زعم أهل الكتاب أنهما زنيا فى الكعبة فَ مسخهما الله تعالى حجرين

(٥٧) (نهاية السول فيما استدرك على الواحدى والسيوطى من أسباب النزول) لِ الشيخ أبى عمر نادى الأزهرى ص ٨٣ الطبعة الأولى - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م - دار الصحابة بِ طنطا.

ووضعهما على الصفا والمروة لُيعتبر بهما، فـَ لما طال المدى عُبدا من دون الله فـَ كان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مسحوا الوثنين فـَ لما جاء الإسلام وكُسرت الأصنام كره المسلمون الطواف لأجل الصنمين).(٥٨)

إذن بعد ظهور الإسلام كره الحجاج المسلمون خاصة من بنى سخينة الطواف بينهما ومن ثم صَفُرت الآيات التى شَرّعت الحج صُفُورا تاما منه.

أما السيوطى فى ال (لباب) فقد ذكر أن الحاكم (أخرج عن ابن عباس قال: كانت الشياطين فى الجاهلية تطوف الليل أجمع بين الصفا والمروة وكان بينهما أصنام لهم فـَ لما جاء الإسلام قال المسلمون : يا رسول الله لانطوف بين الصفا والمروة فـَ إنه شىء كنا نصنعه فى الجاهلية).(٥٩)

صاحب المستدرك الحاكم النيسابورى يمدنا بـ سبب آخر لِ عدول من أسلم عن الطواف بينهما، هو أن الشياطين ملأت الطريق بين الجبلين (الصفا والمروة) بِ أصنامها ودأبت على الطواف طول الليل فـَ لما أسلم المكاكوة وبنو سخينة -وهم الذين يعلمون ذلك -أنفوا من الطواف ومن ثم غرّب عن منظومة الحج فى أول الأمر.

ولم أستطع أن أعرف كيف رأى مشركو مدينة التقديس العربية الشياطين، وعلموا بِ تطوافها وهى كائنات لامرئية وغير منظورة، وهل أصنامها هى ذات أصنام بنى آدم؟ وهل هى مستترة مثلهم؟

ولو أنها كذلك فكيف تَسنّى لهم مشاهدتها؟

وهل الشياطين من عبدة الأصنام أم أن دورهم اقتصر على إغواء الأناس على التعبد لها؟

فـَ نحن نعلم أن عبادة الشيطان عتيقة وما زالت مستمرة. وأورد صاحب المقبول إضافة طريفة هى أن الشياطين تعزف طوال الليل بين الصفا والمروة (أخرج الحاكم وابن أبى داود عن ابن عباس قال (كانت الشياطين فى الجاهلية تعزف الليل أجمع بين الصفا والمروة وكانت فيهما آلهة لهم أصنام فـَ لما جاء الإسلام قال المسلمون: يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة فإنه شىء كنا نصنعه فى الجاهلية). (٦٠)

---

(٥٨) (أسباب النزول) لِ الواحدى ص ٢٨ مصدر سابق.

(٥٩) (لباب النقول) لِ السيوطى - ص ٢٠ -مصدر سابق.

إنما الذى لم يوضحه الخبر كيفية استماع المكاكوة للموسيقى التى طفق الفنانون الشياطين أو الشياطين الفنانون (٦١) عزفها بِ الليل ولم يصف لنا أجميلة هى أم قبيحة، وزَبَدنا (= الخبر) بِ معلومة هى أن الأصنام هى آلهة الشياطين بيد أنه لم يشرح لنا طريقة تعرف الأناسى عليها هل بِ الرؤية أم بِ اللمس؟



بعدها نصل إلى محطة كتب التفسير لِ يزداد الحديث رسوخاً:

(أ) (.. كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة وهما صنمان يروى أنهما كانا رجلا وامرأة زنيا فى الكعبة فَ مُسِخَا حجرين وُضِعَا لِ يُعتبر بهما فَ لما طالت المدة عُبدا من دون الله، فَ كان أهل الجاهلية إذاً سعوا مسحوهما، فَ لما جاء الإسلام وكسرت الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما لِ أجل فعل الجاهلية)(٦٢)

(ب) (... لأن بعض الصحابة امتنعوا عن السعى بينهما لأنه كان فى الجاهلية على الصفا صنم يقال له إساف وعلى المروة صنم يقال له نائلة فَ خافوا أن يكون السعى بينهما تعظيما لِ الصنمين). (٦٣)

(ج) (أجاب الشافعى بِ ما يروى أنه كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة وهما صنمان كانا رجلا وامرأة زنيا فى الكعبة فَ مُسخا حجرين فوضعا عليهما لِ يُعتبر بهما فَ لما طالت المدة عُبدا من دون الله فَ كان أهل الجاهلية إذاً سعوا مسحوهما فَ لما جاء الإسلام وكسرت الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما لأجل فعل الجاهلية أن يكون عليهم جناح فى ذلك). (٦٤)

(د) ومن التفاسير المعاصرة اخترنا (تفسير القرآن الكريم) لِ عبد الله

---

(٦٠) (المقبول) للشيخ أبى عمر نادى الأزهرى ص ٨٨ – سابق.
ووصفه بِ أنه صحيح الإسناد وأن الذهبى صححه وأقره إذ رواه الحاكم وأن ابن أبى داود (وهو غير أبى داود أحد أصحاب الصحاح الستة) أخرجه فى المصاحف.
وأن الطبرى رواه فى التفسير والواحدى فى الأسباب.
وبذا غدا عريا عن المطاعن.

(٦١) (الأصح أن يقال مُفَنّن بدل فنان ولكننا آثرنا الكلمة الشائعة ا.هـ)

(٦٢) (الكشاف) لِ الزمخشرى – المجلد الأول – ٣٢٥– مصدر سابق.

(٦٣) (التسهيل) لـ ابن جَزَى الكلبى– الجزء الأول – ص ٦٥ مصدر سابق.

(٦٤) (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) تأليف نظام الدين الحسين بن محمد القمىّ النيسابورى – المتوفى سنة ٧٢٨هـ – تحقيق وتعليق حمزة النشرتى وآخرين– المجلد الثانى– الجزء الثانى – ص ١٧٢ – الطبعة الأولى – د.ت.ن وبدون ناشر– القاهرة.

شحاته: (فى رواية لِ النسائى عن زيد بن حارثة قال: كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس يقال لهما إساف ونائلة وكان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما).(٦٥)

وهكذا تضافرت كتب (الأسباب) قديمة وحديثة ومصنفات (التفسير) من السلف والخلف على البرهنة على صحة الحديث الذى أتحفنا بعلة خَنس (= تخلف) الصحابة المكيين وعلى الأخص من بنى سخينة عن السعى بين جبلى الصفا والمروة، ومن ثم فإن (الشفاء/ الموعظة) عندما تفضل وله المنة والشكر ف شرّع فرض الحج حجب تلك الشعيرة وانبثقت آياته الكريمة خالية منها لأنه- أى الذكر الحكيم -على صلة حميمة بِ ما يموج فى المجتمع من نوازع ورغبات، وهذه المرة هى طِلبة الصحاب المكاكوة أول من آمن بدعوة (الملاحمى/ الملاذ) وضحّى فى سبيلها بِ الغالى والنفيس فَ جَبَر خاطرهم بِ صدور شِرْعَة الحج وهى صِفْر من الطواف بين الجبلين ولا ندرى كم هى المدة التى استمر تبع (صاحب الزوجات الطاهرات) يؤدون الحج دون السعى أو الطواف بين الصفا والمروة.

ولكن الذى ندريه على وجه التحقيق أن عدم وجود ترتيب تاريخى لِ بزوغ السور والآيات هو السبب فى عدم العلم بِ المدة.



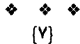
ولكن طائفة أخرى لم يرُضها حذف السعى أو الطواف المذكور لأنها أدمنت هذا الطقس أو المنسك وآدَهَا أن تخلو آيات (البلاغ/ المبين) منه فَ فزعت إلى (أول من تنشق عنه الأرض) وسألته: هل من حرج إذا طافت بينهما مثل ما أنها دأبت عليه قبل الإسلام؟ وقد أوردنا الحديث فيما سلف ولا موجب لِ تكراره. أما هذه الطائفة فَ هم الأعاريب الأثارية بنو قَيْلة الذين آووا ونَصرُوا و بِ سيوفهم الحداد تنتشر الديانة وتتأسس الدولة السخينية أو القرشية ولهم مكان مُفَرْشح ومقام محمود ودرجة رفيعة. وليس من بعد النظر ولا من الحنكة أو الحصافة تجاهل مرادهم ونبذ مرغوبهم وتغريب مطلوبهم.

---

(٦٥) (تفسير القرآن الكريم) لِ عبد الله شحاته الجزء الثانى – ٢٢٨. ثم أردفه بِ رواية للترمذى : أنهما كانا من شعائرالجاهلية.

ومن هذا المنطلق هلّت الآية الكريمة تبشرّ العَرَبة اليثاربة أو اليثاربة العَرَبة بِ الاستجابة لِ مطلبهم وأنبأتهم أنه لاحرج عليهم فى التطواف بين جَبلىّ الصفا والمروة كما دأبوا على فعله قبل أن يعتنقوا الديانة الإسلامية. فَ انفرجت أساريرهم وأزّقل الحُبور إلى حنايا صدورهم وعَبّت قلوبهم من الفرح وَتَضلَعت نفوسهم من السرور -أما (الحبيب المصطفى) فَ لا مشاحة أنه رضى بذلك فهم (= أبناء قرية الحرتين) لهم عنده منزلة أثيرة، إذ تخبرنا كتب سيرته- التى هى كما المسك الفواح -أنه فى إحدى المناسبات أكد أنه ود أن يصير واحدا منهم ثم نفحهم دعوات طيبة وقد آثر هذا الموقف الشعورى البالغ النبالة فى نفوسهم أعمق تأثير- وهم بِ طبعهم عاطفيون - فَ انخرطوا فى البكاء حتى أخضلّت لحاهم.

ومن جانب آخر وهو لا يقل أهمية إذ يثبت الذكر الحكيم دائما أن باصرته لا تغفل عن ذياك المجتمع العجاب وأنه على الدوام تَلْبكُه به عروة وثقى.



{٧}

الآصرة بين العربة الأثاربة واليهود الأثارية اتسمت بِ المتانة وتَحلّت بِ العمق وامتازت بِ القوة واتصفت بِ الشدة وهى واخدة مَن أهم المعضلات التى جبهت (المنصور بالرعب مسيرة شهر) وحاول فكّها بِ شتى الحلول وقد تناولناها فيما سبق.

من بين الطرق التى سلكها هو أنه نهى بنى قيلة عن رفد ذوى الحوّج أو دعم أصحاب المسّغبَة أو رضخ إخوان الفاقة من أولاد الأفاعى الذين تربطهم بهم وشيّجة من أى نوع.

(أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن النبى -ص- كان يأمر ألا يُتصدق إلا على أهل الإسلام). (٦٦)

وأورده الأزهرى فى المقبول بنصه ثم وصفه بِ صحة الإسناد وأضاف إلى ابن أبى حاتم أبا شيبة وأنه رواه فى المصنف وفى تفسير ابن كثير وقال الشيخ شاكر عنه فى العمدة : إسناده صحيح. (٦٧)



---

(٦٦) (لباب النقول) لِ السيوطى - ص ٣٥ سابق.

(٦٧) (المقبول) لِ ابن عمر نادى الأزهرى ص ٢٤٨ والهامش.

ومن كتب التفسير:

أورده الألوسى عن ابن أبى حاتم وابن شيبة.(٦٨)

وذكره أبو محمد عبد الحق بن عطية رواية عن سعيد بن جبير (لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم).(٦٩)

ومن المحدثين انتقشه بـ حروفه عبد الله شحاته.(٧٠)



وهنا يثور سؤال مهم: لماذا فعل (المرحمة) ذلك؟

ونجدّس أن الإجابة لا تحتاج إلى فطانة، فَـ من ناحية قد يدفع مساكين بنى إسرائيل ليدخلوا الإسلام كيما يعينهم الذين سبقوهم بـ الإيمان بما يسد خَلّتهم، ومن رجا آخر قد يحدث هؤلاء المحاويج بين أولاد الأفاعى زلزلة ويسببون ربكا يشغلهم عن مناوأة (الحبيب) ولو إلى حين، وفى هذا الإبّان تترسخ أقدام ديانته ويشتد عود الدولة التى يعمل ليلا ونهارا على تقوية بنيانها، ومن جانب ثالث يدقّ منع الأعاريب الأثاربة من الصدقة على معوزى إخوة القردة والخنازير إسْفِيْنا مكينا وشَدِخا غائرا وصدْعا عميقا فى العروة الوثقى التى تَلْبك اليثاربة العربة واليهود وهو شأن يوليه (من جعلت له الأرض طهورا) عناية فائقة واهتماما بالغا ورعاية مكثفة لأن دوامها بـ هذه الأياة(٧١) ليس فيه خطورة على الدين والدولة فَـ حسب بل هو ضياع محقق لكل الجهود التى بذلها والتضحيات الجسيمة التى قدمها تبعه.



والذى لا مشاحة فيه أن ذياك الحظر أوجد داخل صفوف العرب من أهل قرية الحرتين بلبلة وسرّب بينهم قلقا ودفع إلى عيونهم أرقا مرده الروابط الحميمة التى شَبَكَتهم بـ بنى يعقوب منها الحلف والولاء بل المصاهرة والقربى وبعض منهم دأب على ترك أولاده لديهم يتربون

(٦٨) (روح المعانى فى التفسير القرآن العظيم والسبع المثانى) – لـ أبى الفضل شهاب الدين الألوسى – الجزء الثانى ص ٧٢ . ٧٣ – سابق.

(٦٩) (المحرر الوجيز) الثانى ص ٢٥٩ – مصدر سابق.

(٧٠) (تفسير القرآن الكريم) الجزء الثالث – ص ٤٧٧.

(٧١) الهياة وزنا ومعنى .

وينشأون عندهم وسبق أن رقمنا ذلك تفصيلا.

فَ عندما يَحْجنون عن محتاجيهم العطاء ويضنّون عليهم بـ الصدقة ويقطعون عنهم الإحسان فَ سوف يحزّ فى نفوسهم ويُضْغِن قلوبهم ويشحن صدورهم بـ البغضاء وبطريق الحتم واللزوم يؤثّر على معاملاتهم خاصة تنشئة عيالهم لأن الآظار (٧٢) عادة من المعدمين أو المقلين.

كما أن أولاد الأفاعى المياسير سيعتبرونه ضربا من المُلاحَاة أو الشَحْناء فَ يُغيّر أفئدتهم على بنى قَيْلة الذين أقاموا معهم وشائج سميكة أظهرها الأنشطة التجارية المتنوعة.

إزاء ذلك اضطروا لأن يتوجهوا بِـ السؤال إلى (المعصوم من الناس) أن يرخّص لهم فى العودة إلى التصدق على فقراء اليهود.

(آخرج ابن جرير من طريق سفيان الثورى عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان أناس من الأنصار لهم أنساب وقرابة فى قريظة والنضير وكانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ويريدونهم أن يسلموا) (٧٣).

وما جاء فى الحديث أنهم اتقوا الصدقة عليهم لا شك أنه من أثر الحديث المحمدى الشريف الذى نسخناه آنفا كذلك (يريدونهم أن يسلموا) هو مجاراة لإرادة (المدثر) وقصده من الحظر.

أما كتب التفسير فقد أوردت الخبر ذاته.

ففى (المحرر الوجيز): (روى ابن عباس أنه كان ناس من الأنصار لهم قرابات فى بنى قريظة والنضير وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم أن يسلموا). (٧٤) أما القمىّ النيسابورى فقد رواه عن الكلبى:

(قال الكلبى :..... إن أناسا من المسلمين كانت لهم قرابة وأصهار ورضاع فى اليهود، وكانوا ينفعونهم قبل أن يسلموا، فلما أسلموا كرهوا أن ينفعوهم وأرادوهم أن يسلموا واستأمروا رسول الله -ص- فنزلت (الآية)، فأعطوهم بعد نزولها) (٧٥).

---

(٧٢) جمع ظئر وهى من ترضع ولد غيرها.

(٧٣) (المقبول) لِ الشيخ أبى عمر نادى الأزهرى - ص-ص ١٤٨-١٤٩ وقال عنه : إسناده صحيح وإنه ورد أيضا فى تفسير ابن كثير ، وقال شاكر فى العمدة: إسناده صحيح.

(٧٤) (المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) لِ ابن عطية - الجزء الثانى ص ٣٦٠ سابق.

هذا الخبر وضح الصلات الحميمة التى ربطت بنى قيلة وبنى يعقوب وفى مقدمتها الأصهار والقرابة والرضاع ودأب اليثارية الأعاريب على رفْدِهم أو بِ الأحرى الفقراء منهم. وأنهم لما أسلموا انصاعوا للحظر (عن سعيد بن جبير قال: قال رسول الله -ص- : لا تصدقوا إلا على أهل دينكم). (٧٦)

وقصدوا من ورائه إجبارهم على دخول الإسلام، وسبق أن ذكرنا أن هذا واحد من الأهداف التى تغياها (سابق العرب).

بيد أن أولاد الأفاعى أهل عناد إذ هم يعتبرون أنفسهم أسبق من غيرهم فى الإيمان بالتوحيد وإسطيرهم جرثومة (=أصل) الكتب المقدسة، فَ لم يؤثر منع الأعطيات فيهم.

عندئذ تيقن أعاريب قرية الحرتين أن هذا الموقف سيأتى بآثار وخيمة فى شتى النواحى فَ أسرعوا إلى (المزمّل) يستأمرونه (=يستأذنونه) فى أن يعودوا إلى الإحسان إلى فقراء إخوان القردة والخنازير، فقدّر ما هم فيه من حُروجة وضيق، ومن جانب آخر فَ إن نهيهم عنه سلاح فعّال سوف يطرح ثمرته فى مدى قريب.

إنما العربة اليثاربة كما كررنا لهم الأيادى التى لا تنكر فى نصرة الدين وتدعيم الدولة وبقاؤهم فى هذه الزنقة ليس من الكياسة فى شىء، وهنا يجىء دور (التذكرة-العجب) فَ تطلع كَ البدر فى منتصف الشهر إحدى آياته الكريمة (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء).(٧٧)

وهكذا انحلت المشكلة وعاد بنو قيْلة يَرْضَخون (= يَرفِدون أو يمدون) لفقراء بنى إسرائيل من صدقاتهم وإحسانهم كسابق عهدهم رعاية لقرابتهم وأصهارهم لهم وإرضاعهم أولادهم ولمنافع أخرى مُشاكلة وانقلب غمهم سرورا، وهمهم حبورا ، وضيقهم فرجا، ولا شك أن (محمودا) رضى لِ رضاهم لأنهم أجناده المناصرون الأوفياء.

كما أن (الذكر الحكيم) يَزِيدُنا بالبرهان تلو الآخر على أنه فى كل مقطع من حياتهم المبرورة لا يتخلى عنهم وأن علاقته بهم متينة وآصرته

---

(٧٥) (غرائب القرآن) لِ القمى النيسابورى - المجلد الثانى -ص ٦١٣- مصدر سابق.

(٧٦) (ذات المصدر والصفحة)

(٧٧) الآية الثانية والسبعون بعد المائتين من سورة البقرة.

معهم قوية ومداخلته إياهم وثيقة.

❖ ❖ ❖

{٨}

استقر التعامل بِ الربا فى مجتمع الجزيرة بِ اعتباره من الدخول الريعية التى تضخ دون بذل أى مجهود مثل عرق العُبدان وما تدره أفخاذ الإماء اللاتى دأبوا على تشغيلهن فى العُهورة. ومن بين أكبر المرابين: العباس بن عبد المطلب، الجد الأعلى لِ العباسيين وخالد بن الوليد بن المغيرة :

(قال السدى: نزلت فى العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين فى الجاهلية.(٧٨)

فقال النبى -ص- ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب. (٧٩)

وفى الفترة التى سبقت ظهور الإسلام مثّل الوليد بن المغيرة دور كبير المرابين وهو شخصية بارزة بين ملأ قريش تمتع بِ ثراء عريض وشهد القرآن الكريم بِ غناه الطاغى (ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد) . (٨٠)

«ذرنى ومن خلقت وحيدا،» عنى به الوليد بن المغيرة «وجعلت له مالا ممدودا » كثرة عدده أو مساحته.(٨١)

«وبنين شهودا » وهو الوليد بن المغيرة، كان له عشر بنين لا يغيبون عنه فى تجارة ولا عمل.(٨٢)

وعقب محقق الكتاب السيد أحمد صقر عليه بِ الآتى:

هذا قول مجاهد وقتادة وقيل سبعة أو اثنا عشر أو ثلاثة عشر»، انظر القرطبى ٧٠ والطبرى ٩٧ والفخر ٢٦٧. (٨٣)

وإذ إنه من المرازبة الجحاجح ومن صناديد بنى سخينة فَ هو واحد من القلائل الذين يسنون السنن التى يقتدى بها القبيل مثل عبد المطلب بن

---

(٧٨) (أسباب النزول) لِ الواحدى -ص- مصدر سابق.
(٧٩) ذات المصدر ونفس الصفحة.
(٨٠) سورة المدثر من الآية الحادية عشرة إلى الخامسة عشرة .
(٨١) (المختصر فى تفسير القرآن) لِ ابن صمادح التجيبى -ص ٤٦٠ - مصدر سابق.
(٨٢) (تفسير غريب القرآن) لِ أبى محمد عبد الله مسلم بن قتيبة - ٢١٣- ٢٧٦هـ - تحقيق السيد أحمد صقر -ص ٦ ٤٩-١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
(٨٣) المصدر نفسه، هامش الصفحة ذاتها.

هاشم - مع الفارق الشاسع بين الرجلين.

وإذ إنه لحّام أى جزار فقد استن قطع يد السارق حتى يردع اللصوص من الاقتراب من نشبه (ماله) المُفرْطَح.(٨٤)



ولِ ابن المغيرة نواح أخرى منها أنه من النخبة المثقفة بين سادة قرية التقديس فـَ هو الذى أفتى القرشيين بـ أن يقولوا عن (المتربص) إنه ساحر يفرّق بين المرء وبين أبيه وأخيه وزوجته وعشيرته. (٨٥)

بعد أن وصف الذكر الحكيم وصفا رائعا ما زال خطباء المساجد يرددونه حتى الآن (والله إن لِ قوله لِ حلاوة وإن أصله لِ غَدق وإن فرعه لجنا).(٨٦)

ولقد كشف عن عمق ثقافته عندما وصف الكهان وزمزمتهم وسجعهم والجنون وتَخَانقه وتَخَالجه ووسوسته والشعر ورَجْزَه وقريضه ومقبوضه ومبْسُوطه والسَحَرة ونَفْثهَم وعَقْدَهم.(٨٧)

وقد أدان القرآن المجيد هذا الموقف الذى اختاره الوليد والذى دلّ على الطغيان بـ الأموال الطائلة والاستكبار بـ الأولاد العشرة والخُنْزَوانة(٨٨) بـ الثقافة والصَلافة بـ نبل المحتد والتيهان بـ شرف الجرثومة (الأصل)

(إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر...) (٨٩)

كان الوليد بن المغيرة لما سئل عن النبى - ص- قدر ما أتى به القرآن فقال : إن قلنا شاعر كذبتنا العرب إذا قدرت ما أتى به الشعر ولم يكن إياه وكان يقصد فى التقدير تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام بضرب من الاحتيال يمكن تجويزه على العقلاء فلذلك كل تقدير مستحقا لعقوبة من الله تعالى هى كالقتل إهلاكا له فهذا معنى(فقتل كيف قدر) أى هلك هلاك المقتول كيف قدر) (٩٠)



---

(٨٤) فيما بعد انتفش الإسلام قطع يد السارق.

(٨٥) (سيرة ابن إسحق المسماة كتاب السير والمغازى) تأليف محمد بن إسحق بن يسار- ٨٥- ١٥١هـ - تحقيق الدكتور سهيل زكار ص ١٥١ - الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨ - دار الفكر (غالبا بيروت-لبنان).

(٨٦) ذات المصدر ونفس الصفحة.

(٨٧) ذات المصدر و الصفحة ذاتها.

(٨٨) فيه خُنزوانة وهى الكِبْر ونزَت فى أنفه خنزوانة (أساس البلاغة) لِ الزمخشرى.

(٨٩) سورة المدثر.

(٩٠) درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز) لِ الخطيب الإسكافى - بـ رواية ابن أبى الفرج الأردستانى - ص ٥٠٦- الطبعة الثانية ١٩٧٧م - دار الآفاق الجديدة- بيروت.

هذه الشخصية المركبة بِ الاضافة إلى ثقافتها زاولت عدة أنشطة تجارية من بينها اللِحَامة (الجزارة) كما ذكرنا.(٩١)(أ) والتسليف بِ الربا فَ لما هلك غير مأسوف عليه خلّف أموالا جزيلة تتمثل فى ديون طائلة لدى العديد من المدينين ومن بين ورثته خالد بن الوليد. فطفق يستثمرها على ذات الشاكلة بيد أنه رغم عبقريته العسكرية وفُذوذته الحربية وحِنكته القتالية لم يبلغ دُربة أبيه فى المسائل المالية وأهم من ذلك فَ إن الغزوات والسرايا التى شنها المسلمون على قوافل مشركى مكة شكّلت ما يمكن أن نسميه حصارا اقتصاديا فَ لم تعد التجارة فيها مزدهرة كَ سابق عهدها ومن ثم فإن الفروع التى تَمولّت منها مثل بنى مخزوم وبنى المغيرة (وهما من أرومة واحدة) بدأت تعرف الضيق وتعانى العَسَارة وتكابد الشدة.

خاصة بعد أن تقاعس أبو سفيان القائد المحنك للقوافل والخبير الخرّيت بِ فِجَاج الصحراء ودروبها عن الخروج من مكة خوفا على حياته بعد آن اكتشف الخطة التى دبرها (الموقر) لِ تصفيته جسديا (فى سنة خمس بعث -ص- عمرو بن أمية الضمرى وسلمه بن أسلم لِ يفتكا بِ أبى سفيان بن حرب فَ نذر بها فَ هربا. (٩١)(ب)

وفى الهامش : أرسلهما (إلى مكة لِ يقتلا أبا سفيان غِرة لِ فعله ذلك مع النبى-ص- قبل وفَطِن لِ عمرو فَ هرب وقتل فى طريقه ثلاثة رجال.(٩٢)

ويرجع رعب أبى سفيان وقُبُوعه فى قرية القداسة وعدم ظَعْنه منها إلى سماعه بِ مصير كل من: كعب بن الأشرف وسلام بن أبى الحقيق وأسير بن رزام وهم يهود، ونبيح وقيل سفيان الهُذلّى (بِ وادى عرنة). (٩٣)

وكذلك أم قرْفة الفزارية (وفى سنة خمس وجه -ص- زيد بن حارثة إلى أم قرْفة الفزارية وسَبَى هندا بنتها) (٩٤)

(وقال ابن الجوزى فى التلقيح (ص ٦٤) ثم سرية زيد بن حارثة إلى

---

(٩١) (أ) لعل امتهانه لِ هذه العُمالة هو الذى دفعه لِ سن حد قطع يد السارق.

(٩١) (ب) (المحبر) لِ ابن حبيب ص ١٣٩ - مصدر سابق.

(٩٢) المصدر السابق هامش ذات الصفحة.

(٩٣) أعطى (المنصور) قاتله عبد الله بن أنيس الجُهْنىّ عصا (وقال تحضر بِ هذه فى الجنة فَ لما مات أدرج العصا فى كفنه) مكافأة له على اغتياله إياه ووضع رأسه (= القتيل) بين يديه الشريفتين. ا.هـ.

(٩٤) (المحبر) لِ ابن حبيب --ص- ١٤٠ - مصدر سابق.

وادى القرى فأخذوا أم قَرْفَة واسمها فاطمة بنت ربيعة وقال محققه (= أى محقق تلقيح ابن الجوزى): إلى أم قَرْفَة فاطمة بنت ربيعة بوادى القُرى على سبع ليال من المدينة من شهر رمضان من سنة ست من الهجرة وربطها بين بعيرين حتى ماتت، فى مسلم : كان أمير السرية أبو بكر).(٩٥)

وعند المقريزى (وأم قَرْفَة قتلها قيس بن المجسر اليعمرى قتلا عنيفا:

وربط بين رجليها حبلا ثم ربط بين بعيرين ثم زجرهما فقطعاها وهى عجوز كبيرة فأمر رسول الله برأسها فدير بها ليعلم قتلها ويصدق قول رسول الله -ص- لقريش: أرأيتم إن قتلت أم قَرْفَة؟ فَ يقولون أيكون ذلك؟(٩٦)

وحرّص (الرحمة المهداة) على الطواف برأس أم قَرْفَة فى دروب وأزقة وسكك أثرب الغرض منه هو إعلام الكافة أن قوة دولة بنى سخينة بلغت شأوا بعيدا لأن هذه القتيلة طفق العرب على ضرب المثل بِ عزتها فَ يقال: أعز من أم قَرْفَة (قال الأصمعى : من أمثالهم إذا أرادوا العز والمنعة قالوا : إنه لأمنع من أم قَرْفَة وهى بنت مالك بن حذيفة (وفى رواية أنها بعلته ا.ه) وكان يحرس بيتها خمسون سيفا بخمسين فارسا كلهم لها مَحْرَم (= أى لا تحل لواحد منهم، كأن يكون أخاها أو عمها ممن لا تحل له).(٩٧)

ويؤكد شيخ المؤرخين الطبرى الخبر:

(.. فأمر زيد بن حارثة أن يقتل أم قَرْفَة فقتلها قتلا عنيفا ربط برجليها حبلين ثم ربطهما إلى بعيرين حتى شقّاها.

وكانت ابنتها لِسَلَمة بن عمرو بن الأكوع كان هو الذى أصابها فسألها رسول الله -ص- سلَمَة فوهبها له فأهداها لخاله حَزَن بن أبى قحافة).(٩٨)

إن المصير التعس الذى لقيته أم قَرْفَة على يد زيد بن حارثة يذكّرنا بِ النهاية المأساوية لِ الفيلسوفة الوثنية هيبا شيا الإسكندارية على يد جيش الكنيسة الذى ألفّه الأسقف كيرلس وكل جريرتها فى نظرهم أنها رفضت

---

(٩٥) المصدر السابق هامش نفس الصفحة.

(٩٦) (إمتاع الأسماع) لِ المقريزى - الأول - ص ٢١٠.

(٩٧) (ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب) لِ أبى منصور عبد الملك الثعالبى ٣٥٠-٤٢٩هـ - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم -ص٢١٠- بند ٤٦٩- سلسلة ذخائر العرب رقم /٥٧ - طبعة ١٩٨٥ دار المعارف ب مصر.

(٩٨) (تاريخ الطبرى) الثانى ص ٦٤٣ - مصدر سابق.

اعتناق المسيحية واستمرت على تدريس الأفلاطونية المُحْدَثَة ولم تُرهبها تهديدات الأسقف فَ سلّط عليها زبانيته من الرهبان الجنود فى جيش الكنيسة (يتزعمهم قارئ من قراء الكنيسة يدعى بطرس فَ ترصدوا الفيلسوفة وانتزعوها من عربتها وسحبوها إلى كنيسة قَيْصَرُون وراحوا يلهون بتجريدها من ملابسها ثم جرّوها إلى الشارع ورجموها بالحجارة فلما أصبحت جثة هامدة مَثّلوا بها أشنع تمثيل إذ قطعوها إربا وألقوا ببعض أشلائها طعما للنيران، ودفنوا ما بقى من أشلاء فى مكان خَرِب.(٩٩)



إن الختام المفجع لكل من أم قَرْفَة وهيبا شيا يقطع بِ أن الحروب الدينية هى أفظع بما لا يقاس من غيرها لأن المتقاتلين فيها يتعاركون بِ أقسى أو أقصى ما لديهم من شراسة على امتلاك الحقيقة المطلقة والقول الفصل والكلمة النهائية وأحدهم على حق لا شائبة فيه ولا سَوْم عليه ولا مهادنة بِ شأنه، والآخر على باطل ليس فيه ذرة من حق، ولا طريق للتفاهم معه سوى نفيه وتغريبه وتصفيته بِ أعنف الوسائل.

ومن هنا تؤكد الإحصائيات أن ضحايا الحروب الدينية من فجر التاريخ حتى الآن (سواء بين أبناء ديانتين أو بين أتباع مذهبين فى ديانة واحدة) أضعاف ضحايا الحروب الأخريات.

ثم نعود إلى سياق البحث:

لا شك أن خَنَس أبى حنظلة (كنية أبى سفيان بن حرب) عن تولى رئاسة القوافل التى دأب بنو سخينة على إنفاذها صيفا وشتاء (وهما رحلتا الشتاء والصيف) أضعف الحركة التجارية فى بَكّة وأصاب تجارها وفى مقدمهم بنو المغيرة بِ قاصمة الظهر.

ومن ثم انقلب الوضع فَ أصبح بنو المغيرة مدينين لِ الثقفيين طواغيت قرية الطائف (منهم مسعود وحبيب وربيعة وعبد ياليل وبنو عمير).(١٠٠)

ول بنى المغيرة هؤلاء يد لا تنكر فى معاضدة (أبى القاسم) سواء فى

---

(٩٩) (الفكر المصرى فى العصر المسيحى) لِ د. رأفت عبد الحميد- الهيئة المصرية العامة لِ الكتاب- القاهرة.

(١٠٠) (لباب النقول) لِ السيوطى ص ٣٦.

نشـر الديانة التى يبـشـر بهـا أو الدولة التى يرسـخ قـوائمـهـا، ومنهم شخصيات لها مقام محمود ودرجة رفيعة نذكر منها على سبيل المثال فـ حسب:

١- أم سلمة : هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم وقد سبق ان رقمنا طرفا من أخبارها ولا نرى موجبا لِ التكرار.

٢- عبـد الله بن الأسـد بن هلال المخـزومى وهو ليس من بنى المغـيـرة مباشرة (زوج أم سلمة الأول) وجَدّها كما ذكرنا المغيره وجده هو هلال وهما (ابنا عبد الله بن عمر بن مخزوم) أخوان وحفيد هلال هو عبد الله بن عبد الأسد وحفيدة المغيرة هى أم سلمة بنت أبى أمية وعليه فَ زوجها أبو سلمة ابن عم أبيها -

انظر نسب قريش ٣٣٧ وجمهرة ابن حزم ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، (١٠١)

إذن هو يمت بِ قرابة حميمة لِ بنى المغيرة.

وحمل صدره أوسمة مُنيِّفة (قال ابن إسحق: أسلم بعد عشرة أنفس فَ كان الحادى عشر من المسلمين هاجر مع زوجته أم سلمة إلى أرض الحبشة. قال المصعب الزبيرى أول من هاجر إلى أرض الحبشة أبو سلمة بن عبد الأسد ثم شهد بدرا، وكان أخا رسول الله -ص- وأخا حمزة من الرضاعة أرضعتهم ثويبة مولاة أبى لهب واستخلفه رسول الله على المدينة حين خرج إلى غزوة العشيرة وكانت فى السنة الثانية من الهجرة وتوفى أبو سلمة فى جمادى الآخرة سنة ثلاث من الهجرة.)(١٠٢)

وأضاف ابن حجر (وكان ابن عمة النبى -ص- أمه بَرّة بنت عبد المطلب وهو مشهور بِ كنيته أكثر من اسمه ومات بِ المدينة بعد أن رجعوا من بدر، كذا وقال ابن إسحق بعد أحُد وهو الصحيح وروى ابن أبى عاصم فى الأوائل من حديث ابن عباس: أول من يُعطى كتابه بِ يمينه أبو سلمة وقال أبو نعيم : كان أول من هاجر إلى المدينة وزاد ابن مُنْدِه وإلى الحبشة).(١٠٣)

❖ ❖ ❖

٣- خالد بن الوليد الذى نفحه (الرجيم/ الراضى) لقبا باذخا هو

---

(١٠١) (أم سلمة أم المؤمنين) - الأول هامش ص ٥٠ لِ أمينة أمزيان الحسنى - مرجع سبق ذكره.

(١٠٢) (الاستيعاب) لِ ابن عبد البر - المجلد الرابع- ص ٣٠٦- سابق.

(١٠٣) (الإصابة) لِ ابن حجر العسقلانى ص ٢٠٦ المجلد الرابع- مصدر سابق.

سيف الله المسلول الذى بِ دُربته الفائقة فى القتال أنقذ جيش المسلمين فى غزوة مُؤْتة من هلاك محقق على يد الروم (بلغ أجناد هرقل مائة ألف بخلاف أوشاب الأعاريب من لخم وجذام والقيْن وبَهْراء وبلىّ).

إذ عندما استشهد زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة (القواد) غدا المعسكر فى أمر مريج فَ اصطلحوا على تأمير خالد ابن الوليد (فَ لما آخذ الراية دافع القوم وخاشَىَ (والمُخَاشَاة هى المحاجَزة ا.هـ) ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس) (١٠٤)

وكيما تدرك مدى فضل براعة خالد بن الوليد نزبر (=نكتب) أن جيش المسلمين بلغت عدته ثلاثة آلاف أنقذهم من قتل محقق تحت سنابك وبِ سيوف أجناد الروم المائة ألف بِ خلاف من انضم إليهم من أفناء القنابل التى ذكرناها وهم أيضا مائة ألف. (١٠٥)

ولك أن تتصور حجم الكارثة التى من الجائز أن تحيق بِ الدولة القرشية الناشئة فى يثرب وبالديانة الإسلامية، إذ إن من بينهم العديد من خيرة الصحاب ومن القراء (حفظة القرآن المجيد) لولا عبقرية ابن الوليد العسكرية الفذّة، هذا بخلاف صفحات مشرقة عديدة لِ خالد بن الوليد فقد (شهد من رسول -ص- فتح مكة فَ أبلى فيها وجرى له مع بنى جُذيمة ما جرى ثم شهد حنينا والطائف فى هدم العُزّى وأرسله إلى أُكَيْدر دومة الجندل فَ أسره وقال فى حقه هذا سيف من سيوف الله وهذا الحديث رجاله ثقات). (١٠٦)

٤- سلمة بن هشام بن المغيرة .. أخو أبى جهل والحارث يُكنى أبا هاشم كان من السابقين وثبت ذكره فى الصحيح ودعا له الرسول -ص- وآخرون لما علم بِ فرارهم من المشركين أن ينجيهم منهم واشترك فى غزوة مُؤْتة ولما عيّره وزملاؤه المسلمون بِ الفرار قال النبى -ص- بل هو الكرّار ولما مات النبى -ص- خرج إلى الشام فَ استشهد بِ مَرْج الصُفّر وقال موسى ابن عقبة بل أجنادين) (١٠٧)

---

(١٠٤) (السيرة النبوية) لِ ابن إسحق - المجلد الثانى ص ١٨٥ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وأخر- القطاع الثقافى بِ أخبار اليوم - مصدر سابق.

(١٠٥) (المصدر السابق - ص ١٨٠.

(١٠٦) (الإصابة فى تمييز الصحابة) لِ الحافظ ابن حجر شيخ الإسلام وقاضى القضاة - ٧٧٣ / ٨٥٢هـ تحقيق طه عبد الرعوف سعد- المجلد ال ثانى ص ٢٧٦د.ت الناشر دار الغد العربى / مصر.

وأضاف صاحب (الاستيعاب) أنه (كان من مهاجرة الحبشة ومن خيار الصحابة وفضلائهم وكان قديم الإسلام واحْتُبس بِ مكة وعُذّب فى الله عز وجل وكان رسول الله -ص- يدعو له فى صلاته.

ولحق بِ رسول الله -ص- بِ المدينة بعد الخندق وخرج مع جيوش أبى بكر لِ قتال الروم ثم ذكر استشهاده فى أول خلافة عمر - رض- إما فى مَرْج الصُفّر وإما بِ أجنادين). (١٠٨)



(٥) خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومى قُتل أبوه يوم بدر. قال ابن سعد وابن حبان أسلم بِ مكة يوم الفتح وأقام بِ مكة. (١٠٩)

وأضاف ابن عبد البر النمرى أن (عمر بن الخطاب ولاهّ مكة إذ عزل منها نافع الخزاعى وولاه أيضا عثمان بن عفان عليها). (١١٠)

ويقال إن له رواية فى الحديث المحمدى بيد أن البعض ينكره.

وأهم ما فى الخبر أنه بعد فتح مكة أقام بها أى أنه أحد الذين طالبهم بنو ثقيف بِ رءوس أموالهم، لأن ولاية عَتّاب بن أُسيّد على قرية التقديس جاءت رديْفال الفتح الأعظم).

هذا جهد المُقِل فى رصد بعض الصحب من بنى المغيرة ممن عاضدوا (العفّو- العظيم) فى إفشاء الديانة التى دعا إليها وفى تدعيم أسس دولة بنى سخينة فى أثرب ويشهد ثبت المصادر الرفيعة التى رقمناها أنه كنّ لهم كل ود تقدير بِ الإضافة إلى من هم بِ مكة مثل خالد بن العاص، ولِ نضع فى الوعى اليقظ أنهم من رهط سامق من قريش لا يقل عن بنى هاشم الذين بلغت مكانتهم عنان السماء بين العرب والعجم بِـ(الألمعى / الأمة).

هنا انتصبت مشكلة حادة ، طرفاها:

<u>الأولون</u>: هم أصحاب حق فى استرداد أموالهم وهم بنو ثقيف.

---

(١٠٧) (الإصابة) لِ ابن حجر العسقلانى - المجلد الثالث - ص ٢٦٣- ٢٦٤.

(١٠٨) (الاستيعاب) لِ ابن عبد البر ص ١٨٢- ١٨٤- مصدر سابق.

(١٠٩) المصدر السابق ص ٣٥٩.

(١١٠) (الاستيعاب فى معرفة الصحاب) لِ الحافظ أبى عمر .. ابن عبد البر) ٣٦٨/٤٦٣هـ ص-ص ٢٧٥- المجلد الثانى تحقيق طه عبد الرءوف سعد - على هامش الإصابة - سابق.

فطفقوا يطالبون بنى المغيرة - بعد تحريم الربا- بِ رءوس أموالهم متنازلين عن الربا:

(قالت بنوعمرو بن عمير لِ بنى المغيرة هاتوا رءوس أموالنا ولكم الربا ندعه لكم فَ قالت بنو المغيرة نحن اليوم أهل عُسْرة فَ أخّرونا إلى أن ندرك الثمرة. (١١١)

ومن كتب التفسير العوالى اخترنا تفسير القرطبى:

(... وذلك أن ثقيفا لما طلبوا أموالهم التى لهم على بنى المغيرة شكوا العُسْرة - يعنى بنى المغيرة- وقالوا ليس لنا شىء وطلبوا الأجل إلى وقت ثمارهم). (١١٢)

وفى قرية القداسة بَكّة احتدم الشقاق بين الدائنين والمدينين وأوشك الخلاف أن يتحول إلى عراك، كيف لا والمال عند العُربان شقيق الروح.

فَ كتب عتّاب فى ذلك إلى رسول الله -ص-. (١١٣)

وهذا العتاب هو والى مكة من قبل (المعلم/ المرشد ال الخير).

والآخرون: مدينون لكنهم يتمتعون بِ مكانة أثيرة ولهم سابقة (= فى الإسلام) معروفة وخدمات جليلة لِ الديانة والدولة مع عزة وشرف ونسب وحسب.

الأولون يلحّون فى استقضاء ديونهم والأخيرون يستمهلونهم.

واحتدم النزاع بين الفريقين وطلبوا رفع الأمر إلى (المصون/ المُضخّم) فَ بادروا إليه بِ قرية التقديس لِ إبلاغه به.

ولا شك أنه أمر مُحيّر بيد أنه كَ المعتاد بعث (مأدبة الله= القرآن) آية كريمة تهادت بِ اعتزاز تضم الحل.

(وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون). (١١٤)



(١١١) (أسباب النزول) لِ الواحدى ص ٥٩ - مصدر سابق.

(١١٢) (تفسير القرطبى) المجلد الثانى - ص ١١٧٩ - مصدر سابق.

(١١٣) (أسباب النزول) لِ الواحدى - ص ٥٩- مصدر سابق.

(١١٤) الآية الثمانون بعد المائة من سورة البقرة.

هذه الآية العظيمة ندبت الثقفيين الدائنين إلى أمرين:

<u>الأول:</u> إمهال بنى المغيرة حتى يخرجوا من الضيق الذى هم فيه.

<u>الآخر:</u> وهو أميز، إعفاء بنى المغيرة من ديونهم.

(قوله تعالى (وأن تصدقوا) ابتداء وخبره (خير) ندب الله تعالى بهذه الألفاظ إلى الصدقة على المُعْسِر وجعل ذلك خيرا من إنظاره).(١١٥)

واستقبلها الفريقان بِ بشاشة فقد استجاب الذكر الحكيم لِ سُؤْلهما وأحلّ الوئام بينهما بدل الخصام، والوفاق مكان الشقاق، والمُمالَحة (المواكلة) موضع المُلاحاة (اللوم العنيف).

فَ الثقفيون الدّيانة سوف يُنْظِرون حتى يأتى الفرج أو يتصدقون على مدينيهم بِ مالهم. وبنو المغيرة هدأت نفوسهم لتأخير الوفاء إلى أن تتيسر أحوالهم أوربما يخبرهم غرماؤهم أنهم عفوا عنهم وهو الخيار الأفضل بنص الآية.

وسعد (المحرّم لِ الظلم) بِ رضا الطرفين وقبولهما لما ندب إليه القرآن المجيد، الذى ينفح البرهان وراء الآخر بِ أنه دائماً معهم وأن وشيجته بهم صلبة وينقه كل ذى لب الحكمة السامية التى خفيت على أولاد الأفاعى، فى انبثاقه نجوما.

{٩}

من السذاجة بِ مكان الاعتقاد بِ أن أحوال مجتمع ما تتغير فى بضع سنين، فَ العادات والتقاليد والأعراف وأنساق القيم المتجذرة فى أعماق أفراده من العسير زعزعتها أو زحزحتها فى وقت قصير مهما بلغت عبقرية المصلح الاجتماعى وسمو المبادئ التى يدعو اليها، إذ إن الأمر يستلزم تطويرا فى الظروف المادية.

من بين الأدواء التى وجدها (الناسك/العابد) فى المجتمع الأثربى رمى المحصنات وهو قذف أو اتهام الزوجات الحرائر (لا الإماء أو الجوارى) بِ الزنا أى خيانة الزوج خاصة فى مجتمع النخبة لأن البعلة فى الطبقة العالية تنظر إلى المخادنة نظرة سهلة لا عسر فيها وهو شأن متعارف عليه

---

(١١٥) (تفسير القرطبى) – المجلد الثانى – ص ١١٨٢ – سابق

عند مثل هذه الطبقة لدى كل الأجناس وفى كافة البلدان وعلى توالى الأزمنة.

فى قرية الحرتين وفى مجتمع النخبة الميسورة أو المترفة أو الغنية كثيرا ما يلاحظ الزوج أمارات الخيانة الزوجية فى هيأتها وحديثها وعلاقاتها ب الرجال الآخرين حتى من ذوى قرباه خاصة إذا تقدم فى العمر وضرب الشَمَط شعر رأسه وفَوْديه أو أصابه مرض أو هزال أقعده عن المعاشرة وهى ما زالت ناضجة نصف أنوثتها متفجرة وشهوتها متأججة بل ربما يدخل أحدهم داره فَ يرى بعينيه رجلا يركبها ويسمع بأذنيه آنينها وتأوهاتها. (عن ابن عباس فى رواية الكلبى أن عاصما (ابن عدى الأنصارى) رجع إلى أهله فَ وجد شريكا على بطن امرأته فأتى رسول الله -ص- (١١٦) فَ لا يجد الرجل أو الزوج مناصا من أن يقذف المرَة أو الزوجة ب تهمة الزنا و (الغالب أن الرجل لا يقصد رمى زوجه إلا عن حقيقة فَ نفس الرمى دليل على صدقه). (١١٧)

ورمى المحصنة مرض اجتماعى مركب فهو فى ذات الوقت يشكّل سببا ونتيجة، أما أنه الأخيرة (= نتيجة) لأنه حاصل انفلات الزوجات خاصة فى الشريحة العليا والمُخدّرة عندما تسمع أباها أو عمها أو خالها يتهم زوجته أو حتى امرأة أخرى قريبة أو غريبة، جارة أو بعيدة، يترسب فى أعماق وجدانها أن العلاقة الزوجية ليست ب القداسة أو حتى الطهارة التى تظنها، وعندما تكبر وتتزوج تحذو حذو أمها أو عمتها أو خالتها أو أختها الكبيرة أو جارتها وهكذا تتحول الرفاقَة (١١٨) طقسا اجتماعيا مستترا ودالته تفسخ المجتمع وتحلله، ومن ثم قابله (الخاشع) ب الامتعاض والنفور وطفق يُشّن حربا ضروسا على أُسّ الظاهرة لِ يقضى عليها قضاء مبرما. ومن ثم انبثقت آية كريمة بعقاب أليم لكل من يتهم متزوجة محصنة (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون). (١١٩)

وعلاوة على جزاء القاذف الرادع فإن الزوجات لا بد أنهن يحّذرن من

---

(١١٦) (غرائب القرآن) لِ القمىّ النيسابورى المجلد الثانى - ص ٢٤٩.

(١١٧) المصدر ذاته- ص ٢٥٠.

(١١٨) العامة فى مصر تقول: الرَفَق فلان يرافق فلانة أى يعاشرها فى الحرام وبذا تغدو كلمة الرَفَق شبه فصيحة ولا بأس من استعمالها.

(١١٩) الآية الرابعة من سورة النور.

مواصلة العلاقة الأثيمة لأنها بعد بزوغ هذه الآية العظيمة سوف تؤدى إلى صخب مدو وإلى خلخلة الرابطة الأسرية فَ الرجل أو الزوج المحدود (= طُبّق عليه حد القذف) سوف يثأر لنفسه من التى تسببت فى جلده ثمانين سوطا. وهكذا فَ إن هذا النص المُحكم شكّل علاجا وسطا للمعضلة فَ الذُكران سيمتنعون عن الاتهام والنِسْوَن - زوجات أو غير زوجات للقاذفين لأن الآية لم تقتصر على قذف الزوجات - سيرتدعن ويَخْنسن عن الرَفَق.



بيد أن هذه الآية أوجدت فى نفوس العرب اليثاربة ضربا من الحروجة.

(عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما انزلت (والذين يرمون المحصنات.. الفاسقون) قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار : أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فَ قال رسول الله -ص- : ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم؟ قالوا: يا رسول الله إنه رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا وما طلق امرأة فَ اجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إنى لأعلم أنها حق وأنها من عند الله ولكن قد تعجبت لو وجدت لَكَاع قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيّجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء، فو الله إنى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته..) (١٢٠)

ومن كتبِ التفسير أورده القمىّ النيسابورىّ بنصه.(١٢١)

أما القرطبى فقد ذكر (لما نزلت الآية المتقدمة فى الذين يرمون المحصنات وتناول ظاهرها الأزواج وغيرهم قال سعد بن معاذ يا رسول الله إن وجدت مع امرأتى رجلا أمهله حتى آتى ب أربعة! والله ل أضربنه ب السيف غير مصفح عنه. ف قال رسول الله -ص- أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير منى. وفى ألفاظ سعد روايات مختلفة هذا

---

(١٢٠) (أسباب النزول) لِ الواحدى ص ٢١٤ مصدر سابق.

و (لباب النقول) ل السيوطى -ص ١٢٢ - مصدر سابق.

و(المقبول) ل أبى عمر نادى الأزهرى- ص ٢٨/٤٨٠/٤٨١- مرجع سابق. ووصفه المصنف بِ صحة الإسناد وأن الهيثمى قال عنه فى الزوائد ٧/٧٤: رجاله ثقات.

ويفيد ب السيوطى ذكر أن أحمد بن حنبل أخرجه فى مسنده.

(١٢١) (غرائب القرآن) - المجلد الثامن - ص ٢٤٩- مصدر سابق.

نحو معناها). (١٢٢)

أى أن القرطبى رواه بِ المعنى.

هكذا توثقت صحة هذا الحديث فى المصادر التراثية المرتفعة الرتبة من كتب التفسير ومصنفات أسباب النزول.

وهو ثَرّ بِ المُعطيات منها =

(أ) سؤال سيد الأعاريب الأثارية يَشّف عما اعتمل فى صدورهم غِبّ أن هَلّت الآية (والذين يرمون المحصنات).

(ب) مما يقطع بِ أن المخادنة لدى الزوجات أمر طبيعى لديهم وشأن وارد وحالة متكررة.

(ج) وتؤيد هذا الفرض الجملة التى فاه بها سيد الخزرج : (لو وجدت لَكَاعا تَفَخّذها رجَل).

(د) أطلق سعد على الزوجة لقب لَكَاع وهو العبد أو اللئيم والمرأة لَكّعاء آى حمقاء، (١٢٣) مما يؤكد نظرتهم المتعالية للمَرَة وتحقيرهم إياها :

(هـ) جاء فى الحديث نسق اجتماعى وهو أن الكبير أو الغِطّرِيف فيهم إذا تزوج وطلّق فَ لا يجرؤ فرد من القبيل أن ينكحها لغيرته (= السيد) الشديدة وهكذا تظل أيّما.

❖ ❖ ❖

وليس ابن عبادة هو الوحيد الذى حاك فى صدره شىء من الآية بل إننا نستطيع أن نرقم أنه ممثل لِ أثرياء مسلمى قرية الحرتين ولا يظن القارئ أن هذا مجرد حدس وتخمين بل حدث بِ الفعل.

(عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : أنا ليلة الجمعة فى المسجد إذ دخل رجل من الأنصار فقال: لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فإن تكلم جلدتموه وإن قتل قتلتموه وإن سكت سكت على غيظ والله لِ أسألن رسول الله -ص- فَ لما كان من الغد أتى رسول الله -ص- فَ سأله فَ قال: لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فإن تكلم جلدتموه وإن قتل قتلتموه وإن سكت سكت على غيظ، فَ قال : اللهم افتح فَ جعل يدعو). (١٢٤)

---

(١٢٢) (تفسير القرطبى) المجلد السابع - ٤٥٧٥- مصدر سابق.

(١٢٣) المعجم الوسيط.

(١٢٤) (اسباب النزول) لِ الواحدى - ص ٢١٣. سابق.

فَ هذا أحد غطاريف عرب يثرب أهمه ما جاءت به الآية ثم أخذ يدعو: اللهم أفتح أى احكم بِ العدل وأنت خير الحاكمين- فَ هذا ينفح دالتين:

<u>الأولى:</u> أن الآية المذكورة حركت كوامن خبيثة فى نفوسهم وألفوْا فيهما مناسبة للتنفيس عما يضطرب فى قلوبهم ويتلجلج فى حنايا صدورهم ويتقلب فى أعماق نفوسهم..

<u>الأخرى:</u> سبب للأولى وهى أن مخادنة نسونهم لفحول غيرهم عادة منتشرة وإلا فَ ما هو الباعث الحثيث على هذه الأسئلة لو أن المسألة افتراضية؟

ويؤكد وجهة نظرنا هذه- التى نعلم أن البعض يستنكرها من قوة أسطرة كافة نواحى هذا المجتمع التُحْفة وعَدّه ذهبيا ومثالا يتعين اتخاذه قدوة - ما جاء فى عُجُز الخبر (فَ ابتُلى به الرجل فَ جاء هو وامرأته إلى رسول الله -ص- فَ تلاعنا ... فَ قال رسول الله -ص- مه فَ لعنت، فَ لما ادبرا قال:

لعلها أن تجىء به أسود جعدا فَ جاءت به أسود جعدا- رواه مسلم.(١٢٥)

إذن هذا الأثربى تكلم عن حالة واقعية عانى ذلها ومرارتها ورأى بِ فطرته أن الآية وضعته أمام ثلاثة خيارات عسيرة.

إذا نفّس عن قهره وتكلم عُدّ قاذفا وجلدِ ظهره ثمانين جلدة وسقطت شهادته وإن قتل سِرْحَتَه (زوجته) الخؤون ورفيقها قُتل.

فليس أمامه إذن إلا أن يلتزم الصمت مغلوبا على أمره وتُخرج له منكحوته وخِدْنها لسانيهما هُزْءا واستخفافا.



وهذا ثالث من بنى قيلة يبهظه الحد الذى حملته الآية العظيمة لأنه يَنْقه أن الوسط الذى يعيش فيه تأخذ الزوجات فيه راحتهن فَ يخاللن من يَرُوق لهن من الذكران المفعمين بِ الفَحالة، فَ يَرْقَل إلى (الغالب) يبثه همه.

---

(١٢٥) نفس المصدر وذات الصفحة .

وفى هذه المرّة ننسخ ما ورد فى واحد من كتب التفسير ذات المقام الرفيع كيما يتكامل شِقّ الإثبات ويرتفع (يزول) قطاع التشكيك والتوْهين:

(لما نزلت الآية المتقدمة قال عاصم بن عدى الأنصارى: إذا دخل منا رجل بيته ووجد رجلا على بطن امرأته فَ إن جاء ب أربعة قضى الرجل حاجته وخرج وإن قتله قُتل به وإن قال وجدت فلانا مع تلك المرأة ضُرب وإن سكت سكت على غيظ اللهم افتح). (١٢٦)

وهناك احتمال أن صاحب الخبرين واحد وهو عاصم بن عدى وأن رواية الواحدى أغفلت اسمه .

إنما الذى يتجاوز رتبة الاحتمال ويرقى إلى درجة اليقين أن الآية الكريمة هزّت نخبة بنى قيلة ولم ير فيها المنازيح ولا الطبقة المتوسطة أو الخفيضة فى أثرب ما يحركها، لأن نِسْون الأخيرين فى شُغل عن المرافقة فَ هن مهمومات بتدبير المعاش فَ على سبيل المثال أخبرتنا كتب السيرة المحمدية المعطرة أن أسماء بنت التيمىّ عتيق (= أبى بكر) دأبت على أن تمشى ثلاثة أميال ذهابا ومثلها إيابا لِ تحضر نَوى تحمله على رأسها كيما تعْلف به الفرس الوحيد لزوجها الزبير بن العوام.(١٢٧)

إن الذى يقطع بِ انزعاجهم البالغ من الآية الكريمة المذكورة هو توجههم إلى (ذى البيان) وطرح ملاحظاتهم عليها بين يديه الشريفتين ولعلها المرّة الأولى التى فعلوا فيها هذا الصنيع الذى يشى ب ثورة مكتومة.

وهنا انتصبت مشكلة، فَ صفوة الخزرج والأوس أثارت رَهجَا (غبارا) حول الآية وزَمْهرت (احمرت) عيونهم من حد القذف الذى تضمنته وهم سادة يثرب هذا من رجا. ومن صوب آخر فَ إن رمى المُحصنات داء اجتماعى وبيل له سبب وبىء ويفرز عواقب وخيمة ومن ثم يتعين القضاء عليه قضاء مبرما.

كما أنه إذا تمت الاستجابة لِ الأعاريب الأثاربة انفتح الباب أمام جميع التبع لِ التعليق (بالنقد) على أى نص يأتى به (السبع المثانى/القرآن). وهذا شأن غائر الخطورة بل هو إن تحرّيت الدقة مدمر. وهنا وعلى هدى

---

(١٢٦) (غرائب القرآن) ل القمىّ النيسابورىّ – المجلد الثامن ص ٢٤٨، مصدر سابق.

(١٢٧) أصبح بعد الغزو النهبوى الاستيطانى الذى تم فى عهود التيمىّ أبى بكر والعدوىّ عمر والأموى عثمان يمتلك ثروة أسطورية نتاج عرق الفلاحين الذين أطلقوا عليهم لقب العُلوج فى الدول التى وطئوها بِ سنابك أحصنتهم المبروكة مثل مصر وفارس والعراق والشام وشمال إفريقية .ا.ه

السنة (=الطريقة) التى استنها لنفسه (مأدبة الله/ القرآن) تتفتح أكاميِّم آية كريمة يترّوح صفوة بنى قيلة شذاها العطر ورائحتها الفوّاحة وطيبها الذكى فـَ تنفثئ غضبتهم وتبُوخ هَوْجتهم وتنطفئ ثائرتهم وتفتر هوْشتهم:

(... فـَ ما لبثوا إلا قليلا حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشيا فوجد عند أهله رجلا فرأى بِ عينه وسمع ب أذنه فلم يُهيّجه حتى أصبح، وغدا على رسول الله -ص- فقال يا رسول الله : جئت أهلى عشيا، فوجدت عندها رجلا فرأيت بعينى وسمعت بأذنى، فكره رسول الله ما جاء به واشتد عليه فقال هلال: والله إنى ل أرجو أن يجعل الله لى مخرجا فقال سعد بن عبادة الآن يضرب رسول الله هلال بن أمية ويبطل شهادته فى المسلمين ، فقال هلال يا رسول الله: إنى قد أرى ما قد اشتد عليك مما جئت به، والله علم أنى لصادق- فوِ الله إن رسول الله -ص- يريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه القرآن.. فـَ أُنزلت (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم.. إلى آخر الآيات السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة من سورة النور. (١٢٨)وهى الآيات المعروفة بِ آيات الملاعنة أو اللعان.

ومن بين النقاط التى تهمنا أن هلالا هذا من ذوى السعة وأصحاب اليسار فهو يمتلك الحيِّطان (كروم- النخل) والبساتين وينشغل فيها من الصباح إلى المساء ولا يعود إلا فى العشى (حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشيا) ف لا تجد البـَعْلة الشابة أو الناضجة مناصا من إطفاء شهوتها عند غيره خاصة أن هاته الأعرابيات ليس لديهن أنشطة ثقافية أو فنية أو اجتماعية تصرفهن عن سيطرة غريزة الجنس عليهن مع توفير أزواجهن لهن الدعة والبَلْهنيّة.

ومما له دلالة عميقة أن هذا الهلال المخدوع تقدم فى العمر ولم يعد له أرب فى ملامسة النسِّون وهو ما صرحت به الزوجة الخائنة إذ إنه أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزاة تبوك ومِن ضمن الجزاء الذى وقعه عليهم (صاحب العلو والدرجات) مقاطعة المسلمين إياهم فـَ توجهت إليه الزوجة تستأمره فى أن تظل تخدمه (تعنى هلالا):

---

(١٢٨) (المقبول) ل أبى عمر نادى الأزهرى ص ٤٨١. - اخرجه الواحدى وأحمد بن حنبل وقال المصنف والشيخ شاكر : اسناده صحيح.

(أفتكره أن أخدمه؟ قال: لا ، ولكن لا يقربنك، قالت: والله يا رسول الله ما به حركة إلىّ). (١٢٩)

فَ الزوجة هنا نفسّت عما يجيش بِ صدرها من ضيق لِ حرمانها من الامتطاء فَ أقسمت قبل آن تصف حاله وإلا فَ من الميسور عليها أن ترد قائلة:

سمعا وطاعة لِ أمرك (يا سيد الثقلين).

والبَعْلة التى على هذه الشاكلة يسهل إغواؤها أو ربما هى التى سعت إلى استغواء (شريك) خاصة وأنه على مخالطة تامة بهم كيما يقوم بِ ما عجز عنه الزوج الذى أصبح كَ الشَّن البالى.

وثانيه تلك النقاط أن (مقيل العثرات) كره قالة الزوج المخدوع واشتد عليه لأنه أدرك آن آية رمى المحصنات والحدّ الذى قننته لم يجيئا بِ الثمرة المرجوة فَ ما زالت زوجات أرستقراطية قرية الحرتين سادرات فى غيّهن ومستمرات فى (الرَّفَق) على بعولتهن مما يدفع هؤلاء إلى رميهن أو قذفهن بِ تهمة الزنا ثم يفزعون إليه لِ إيجاد مخرج. (١٣٠)(أ)

وتخبرنا كتب الأسباب أن ذلك (= التوجه) إلى (النور) بِ السؤال تكرر وتراكم وتضاعف مما يقطع بِ أن الخيانات الزوجية غدت ظاهره لها وزنها، وأنها تنم عن تحلل المجتمع مما يسيئه ويحزنه (أخرج البزار عن جابر - رض - قال: ما نزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال). (١٣٠)(ب)

ومن نافلة القول أن نرقم أن كثرة الأسئلة التى سبقت آيات التلاعن تنبىء عن أولئك السائلين الكثيرين دافعهم الحثيث وباعثهم القوى وتحضيضهم الحازب مرده تكرار ملاحظتهم الريب والشكوك على منكوحاتهم.

أما ثالثة النقاط التى شدت انتباهنا فهى عبارة عن علة أخرى لِ

---

(١٢٩) (السيرة النبوية) لِ ابن إسحق - المجلد الثانى - ص ٢٨٦- طبعة القطاع الثقافى - بِ أخبار اليوم - مصر - مصدر سبق ذكره.

(١٣٠) (أ) أسباب النزول ص ٢١٢- ٢١٣.

(١٣٠) (ب) (المقبول) لِ أبى عمر نادى ناديى الأزهرى - ص ٤٨٢- ووصفه بِ جودة الإسناد وقال الهيثمى فى الزوائد = رجاله ثقات وقال العراقى فى تخريج الإحياء إسناده صحيح.
ونهاية السول فيما استدرك على الواحدى والسيوطى من أسباب النزول لِ أبى عمر نادى الأزهرى - ص ١٦٥ - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م دار الصحابة لِ التراث - طنطا

كراهة (قائد الغرّ المحجلين) لما صرح به هلال واشتداده عليه هى أن هذا الهلال المخدوع الذى شاهد الخَدِّين على بطن زوجته وسمع بِ أذنيه تأوهاتها هو من سادة الأوس وأغنيائهم وله يد بيضاء فَ (أمه أنيسة بنت الهدم أخت كلثوم بنت الهدم الذى نزل عليه النبى ص - لما قدم المدينة).(١٣١) ومن الذين آزروا فى إفشاء ديانة الإسلام وتأسيس دولة بنى سخينة فَ هو (شهد بدرا وأحدا وكان قديم الإسلام وكان يكسر أصنام بنى واقف (رهطه فَ هو واقفىّ ا.هـ) وكانت معه رايتهم يوم الفتح (= الأعظم وهو فتح قرية التقديس ا.هـ)(١٣٢)

أما تخلفه هو وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع عن تَبُوك فَ مآبه تفرغه الكامل لِ تثمير أمواله مما وزّ بعلته لِ المخادنة.

هذا الأعرابى الأثربى السيد فى عشيرته قديم الإسلام والذى يحمل نيشانين :

شهود غزاة بدر والاشتراك فى عراك أحُد، من الصعب أن يفترى على امرأته هذه الفرية الفظيعة. ومن رجا آخر فَ إن جلده ثمانين على ظهره سوف يُهينه ويُذلّه، وعدم قبول شهادته يودى بِ كرامته ويمرّغ اعتباره فى الطين.

وجماعه سيثير رهطه ويُحنق عشيرته ويغضب قبيلته.



وبصدد توثيق هذا الحديث الذى شكّل علة بزوغ آيات التلاعن نذكر أن الواحدى فى الأسباب (١٣٣) والسيوطى فى ال (لباب) أورداه ومما ذكره الأخير وله دلالة (واجتمعت الأنصار وقال : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة).(١٣٤)

---

(١٣١) (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) لِ عز الدين بن الأثير الجزرى - ٥٥٥ - ٦٣٠هـ تحقيق محمد ابراهيم البنا وآخر - المجلد الخامس - ص ٤٠٦ - د.ت - دار الشعب بِ مصر.

(١٣٢) ذات المصدر ونفس الصفحة.

(١٣٣) (أسباب النزول) ص ٢١٢-٢١٣.

(١٣٤) (لباب النقول) ص ١٢٢.

أى أن الأمر أقلق بنى قَيْلة على بكرة أبيهم مما دفعهم لِ الاجتماع والتشاور فى هذا الشأن مما يشى بِ استحالته إلى ظاهرة وليس مجرد حادث فردى. ثم نعرج على كتب التفسير كيما يزداد الحديث رسوخا وتتأكد بينته:

(سبب نزولها هو مارواه أبو داود عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى -ص- بشريك بن سحماء. فقال النبى-ص-: البينة أو حد فى ظهرك.

قال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا رجلا على امرأته يلتمس البينة؟ فجعل النبى -ص- يقول البينة وإلا حد ظهرك، فقال هلال: والذى بعثك بالحق إنى لصادق ولينزلن الله فى أمرى ما يبرئ ظهرى من الحد فنزلت (والذين يرمون أزواجهم) حتى بلغ (من الصادقين) (١٣٥)

والعبارة التى وردت فى الحديث (ولينزلن الله فى أمرى ما يبرئ ظهرى من الحد) كثيفة الإيحاء مليئة بِ المعنى ثرة الدلالة.

كما أن القرطبى ذكر أن الذى خرج الحديث هو أبو داود وهو أحد أصحاب الصحاح الستة، أما الفخر الرازى فقد نسخ ما يلى (فَ لم يلبثوا إلا يسيرا) حتى جاء ابن عم له (سعد بن عبادة) يقال له هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم فقال : يا رسول الله إنى وجدت رجلا مع امرأتى رأيت بعينى وسمعت بأذنى، فكره رسول الله -ص- ما جاء به، فقال هلال: والله يا رسول الله إنى لأرى الكراهية فى وجهك مما أخبرتك به والله يعلم إنى لصادق وما قلت إلا حقا. فقال رسول الله - ص- إما البينة وإما إقامة الحد عليك.

فَ اجتمعت الأنصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد فبينما هم كذلك إذ نزل عليه الوحى) (١٣٦)

وكما لاحظنا فقد حمل الحديث النص على أن الكراهية ظهرت بِ وضوح على وجه (المقدس/ المطهر) إذ إن هلالا تبيّنها بِ سهولة، وكذلك اجتماع بنى قيلة لِ المداولة فى الشأن مما يدل على اهتمامهم به، كذا فإن هلالا هو ابن عم سعد بن عبادة سيدهم أى أن الأول من قُلّة المجتمع فيهم.

---

(١٣٥) (تفسير القرطبى) المجلد السابع ص ٤٥٧٥- مصدر سابق.

(١٣٦) (التفسير الكبير) لِ الفخر الرازى - المجلد الحادى عشر - ص ٤٧٨- مصدر سابق.



وأيضا أورد القمىّ النيسابورى ذات الحديث فى التفسير.(١٣٧) كما زَبَره ابن كثير فى تفسيره وقال انفرد به البخارى من هذا الوجه.(١٣٨)

ومن المُحدثين انتقشه محقق (المعجم الموضوعى) وأثبت أنه ورد فى سنن أبى داود.(١٣٩)

وهكذا تضافرت كوكبة باذخة من الكتب التراثية فى علمى التفسير والأسباب على تقديم البراهين الموثقة على صحة هذا الحديث ونأيه عن المطاعن.



بيد أن القمىّ النيسابورىّ يضع أيدينا على سبب آخر ل بزوع الآية العظيمة الآنفة الذكر فَ يقول: (أما سبب نزول الآية فقد قال ابن عباس : لما نزلت الآية المتقدمة قال عاصم بن عدى الأنصارى: إذا دخل منا رجل ووجد رجلا على بطن امرأته، فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك فقد قضى الرجل حاجته وخرج وإن قتله قتل به وإن قال وجدت فلانا مع تلك المرأة ضُرب وإن سكت سكت على غيظ، اللهم افتح. وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عُويمر وله امرأة يقال له خَوْلة بنت قيس فأتى عُويمر عاصما وقال:

رأيت شريك ابن السَحماء على بطن امرأتى خولة فاسترجع عاصم وأتى رسول الله فى الجمعة الأخرى فقال : يا رسول الله ما أسرع ما ابتليت بهذا فى أهل بيتى، أخبرنى عُويمر أنه رأى شريكا على بطن امرأته وكان عُويمر وخَوْلة وشريك أبناء عم عاصم، فدعاهم رسول الله –ص– جميعا وقال لعُويمر: اتق الله فى زوجتك بنت عمك ولا تقذفها فقال : يا رسول الله إنى رأيت شريكا على بطنها وإنى ما قربتها منذ أربعة أشهر وإنها حُبلى من غيرى ، فقال لها رسول الله —ص– اتقى الله ولا تخبرى

(١٣٧) (غرائب القرآن) المجلد الثامن– ص ٢٥٠– سابق.

(١٣٨) (التيسير) خلاصة تفسير بن كثير) ص ٧٨٠– سابق

(١٣٩) (المعجم الموضوعى ل القرآن الكريم) تحقيق حمزة النشرتى وآخرين – الجزء السادس ص ٦٨ – الطبعة الأولى – ١٩٩٩م والناشر هو المحقق الأول (١٤٠) .

إلا بما صنعت، فقالت : يا رسول الله إن عُويمر رجل غيور وإن شريكا يُطيل التردد فَ حملته الغيرة على ما قال فأنزل الله سبحانه وتعالى (والذين يرمون أزواجهم .. إلى آخرها)(١٤٠)

ونخرج من هذا الحديث ب الآتى:

أن الخيانة الزوجية فاشية بين منكوحات ذؤابة بنى قيْلة. وأن القرابة الحميمة بين الخائن شريك وعويمر من جهة وبين الخؤون خولة وزوجها المخدوع من صوب آخر فهم جميعا أبناء عم لم تَحلْ دون (الرَفَق) وهذا مؤشر لا يخطئ على تفسخ تلك الطبقة وتحللها من كافة القيم والمبادئ.

-أن عويمر يعرف أن بَعْلته خولة حامل من غيره ومع ذلك يظل يعيش معها تحت سقف واحد وهو شأن بالغ الشذوذ.

-أنه (عويمر) لم يقربها منذ أربعة أشهر والمرَة فى ذياك المجتمع المعجب لا تصبر على (الدَعْس) هذه المدة بل إن ما طالعناه عن أحوالهم يؤكد أن (الحَفْر أو الدَكّ) لديهم ذكورا وإناثا طقس يومى لابد من ممارسته حتى ولو بِ مخالفة النهى الجازم الذى حملته النصوص. (١٤١)

ولم ينفرد القمىّ النيسابورى ب الحديث المذكور بل نفحنا به الزمخشرى وأضاف معلومة تعطى مزيدا من الضوء فَ قال (وكان شريك نزيلهم). (١٤٢)

وإذ هو بهذه المثابة فَ يسهل عليه خِلاط نِسْونهم اللائى لايمانعن ل أحوالهن التى رقمناها فيما سلف.



لعل مما يزيد البحث إضاءة أن نذكر نُتفا من سيرة كل من عُويمر وشريك"

<u>أما الأول</u>: فهو (عويمر بن أبيض العجلانى الأنصارى صاحب اللعان، قال الطبرى هو الذى رمى زوجته بِ شريك بن سَحْماء فَ لا عن رسول

---

(١٤٠) (غرائب القرآن) القمى النيسابورى - ص ٢٤٨ - مصدر سابق

(١٤١) لِ مزيد من التفصيلات يمكنك الرجوع إلى كتاباتنا (مجتمع يثرب- العلاقة بين الرجل والمرأة فى العهدين المحمدى والخليفى) وقد طبع مرتين - دار سينا ب مصر - ومؤسسة الانتشار العربى- بيروت.

(١٤٢) (الكشاف) ل الزمخشرى - الجزءالأول ص مصدر سابق.

الله -ص- بينهما فى شعبان سنة تسع من الهجرة وكان قدم (مَن) تبوك فَ وجدها حُبلى)(١٤٣)

اى أن خولة وقت اتهام زوجها لها مُغَيّبة ومشكلة المُغيّبات -وهن اللاتى يتركهن أزواجهن عند خروجهم فى غزوة أو سرية أو مهمة اغتيال عدو- من المشكلات التى أولاها (المظفر) عناية مركزة وشدد على من يدخل عليهن إبّان غياب أزواجهن لما يعلمه عن تهافتهن على (السَلْق). وكيما يطمئن أجناده الذين يستنفرهم لِ القتال على بيوتهم وإلا فَ س يتقاعسون عند سماعهم الصيحة.

<u>أما الآخر</u>: ف (هو شريك بن سَحمّاء وهى أمه واسم أبيه عبدة بن مغيث البلوى حليف الأنصار .. وعن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته بِ شريك بن سَحمّاء .... ورواه مسلم والنسائى .. ويقال إن شريك بن سحماء بعثه أبو بكر الصديق رسولاً إلى خالد بن الوليد وهو بِ اليمامة .. ويقال: إنه شهد مع أبيه أحَدا.

وروى ذلك ابن سعد عن الواقدى بِ سند له ، قال: بعث أبو بكر إلى خالد أن يسير من اليمامة إلى العراق وبعث عهده مع شريك بن عبده العجلانى، وكان شريك أحد الأمراء بِ الشام فى خِلافة عمر وبعثه عمر رسولا إلى عمرو بن العاص حين أذن له أن يتوجه إلى فتح مصر).(١٤٤)

❖ ❖ ❖

هنا نجد أن الحافظ وشيخ الإسلام وقاضى القضاة ابن حجر العسقلانى ذكر أن حديث رمى هلال زوجته بِ شريك بن سحماء والذى انتهى بِ اللعان رواه مسلم فى صحيحه وهو المُصلّى (= التالى) لِ صحيح البخارى أصح كتاب بعد (المرفوع/ المطهر) عندنا أهلَ السنة والجماعة.(١٤٥)

وإذ أرسل التيمىّ عتيق شريكا لِ خالد بن الوليد فى اليمامة وولاه

---

(١٤٣) (الاستيعاب فى معرفة الصحاب) ل أبى عمر ابن عبد البر النمرى ٣٦٨/٤٦٣هـ- تحقيق طه عبد الرءوف سعد- المجلد الخامس- ص ٢٤٨- دون تاريخ - دار الغد العربى - مصر.

(١٤٤) (الإصابة فى تمييز الصحابة) ل ابن حجّر العسقلانىّ - المجلد الثالث- ص ٤٧٥ - مصدر سابق.

(١٤٥) أما إخواننا أهل الوصية والعصمة ونعنى بهم الشيعة أخلص المحبين لآل البيت الأبرار الأطهار فهم لا يعدون صحيح البخارى كذلك لأنه ومسلم غضاالطرف عن الشمائل المُنيْفة للإمام على كرّم الله وجهه ونوّر ضريحه وعطّر مثواه، وأعرضا عن مرويات حفيده بحر العلوم جعفر الصادق قدس الله سره ونأيا بِ جنبيهما عن مناقب أهل البيت التى أعترف بها الدانى والقاصى والتى سارت بها الركبان على طول الزمان ا.هـ.

إمْرَة أحد الجيوش التى أرْقلت لِ غزو الشام واستيطانها وكسح خيراتها ليتمتع بها أعاريب الحجاز كما بعث معه العدوىّ ابن الخطاب بِ رسالة يأذن فيها بِ غزو مصر (أم الدنيا) ل عمرو بن العاص ذلك الذى فعل الأفاعيل هو وعساكره فى أرض المصريين الذين عَلّموا الدنيا الحضارة والمدنية، فَ إنه (=شريك) وقت اتهامه بِ مُخاللة زوجتى هلال وعويمر فى عز رجولته وقمة فحالته وذروة قوته.

وهكذا تكاملت الصورة أو الصورتان:

زوجة بعلها شيخ كبير أو غاب عنها ورجل يتمتع بِ فُحُولة عَارمة يخالطها ويكثر التردد عليها فَ كيف لا يحدث الالتقاء المحرم.

ولذلك وتأكيدا لكل ما طرحناه - بعد الملاعنة- جاء المولود ثمرة الامتطاء غير المشروع شبيها بِ شريك وليس فيه من سِحْنة البعل المخدوع ذرّة .

فَ فى قصة هلال بن أمية بعد أن تلاعنا هو وزوجته (فرّق رسول الله -ص- بينهما وقال انظروا فإن جاءت به جَعْدا حَمْش الساقين فهو لشريك بن سَحْماء وان جاءت به أبيض سَبْطا أقمر العينين فهو لِ هلال بن أمية فَ جاءت به آدم جَعْدا حَمْش الساقين. فَ قال رسول الله-ص- لولا ما نزل فيهما من كتاب الله تعالى كان لى ولها شأن). (١٤٦)

وسبق أن رقمنا ماوراه الواحدى فى (أسباب النزول) عن صحيح مسلم فَ جاءت به أسود جَعْدا ص ٢٣٢.

وهذا دليل على أنه (المولود) هو ابن شريك لأنه أسود أجعد وبُرهانُنا فيه أن هذا الشريك الخائن يُنسب إلى أمه سَحْماء والسَحماء فى معاجم اللغة هى السوداء ولابد أنه أسود مثلها، ومن ثم حمل ولد الزنا ذات الملامح، الأمر الذى دعا (الحجة البالغة) لأن يقول ما حمله عجز الحديث الشريف. ومن نكد الدنيا على البلاد التى غزاها هؤلاء العُربان أن يغدو ولد الزنا واللعان هذا أميرا على إحدها (قال عكرمة: لقد رأيته بعد ذلك أمير مِصْرٍ من الأمصار لا يدرى من أبوه).(١٤٧)



(١٤٦) (المقبول) ل آبى عمر نادى الأزهرى ص ٤٧٩ - مرجع سابق.
(غرائب القرآن) ل القمى الثامن / ص ٢٥٠ مصدر سابق. - (التيسير/ خلاصة تفسير ابن كثير) ص ٧٨٠ سابق.
(١٤٧) (غرائب القرآن) لِ القمى النيسابورى - الثامن - ص ٢٥٠ - مصدر سابق.

وهكذا حلّت المشكلة هذه الآيات الحاسمة ووجد فيها سادة بنى قِيْلة وغطاريفهم الدواء الناجع فـَ هدأت نفوسهم واستراحت خواطرهم واطمأنت قلوبهم، ورضى (سيد الناس) لِ رضاهم، كيف لا وهم من أخلص معاونيه وقدموا الكثير الذى يند عن الإحصاء فى سبيل الديانة التى يبشرّ بها والدولة التى يبنيها.

وأثبتت أن (الشفا- الإيمان= القرآن) على وشيجة متينة بهم مما يصمّت دعاوى الانفصام والتباعد والتحليق فى فضاء التجريد).

كما رسخت الحكمة البالغة للتنجيم والتبعيض والتفريق التى غابت عن الأذهان الكليلة للمشركين واليهود.



{١٠}

عطية هذا هو اسمه بِ اللغة العربية ، بِ الأمهرية: اصْحَمَة ، لقبه «النجاشي» حاكم الحبوش كما أن كسرى ملك الفرس وقيصر إمبراطور الروم.

وعندما نزح المستضعفون من المسلمين إلى أرضه أكرم مثواهم وأحسن وفادتهم وأبلغ ضيافتهم وقال لهم: أنتم شُيُوم (آمنون) وتوعّد كل من يتعرض لهم. وأسبغ عليهم حمايته ورَفَدَهم بِ الأمان وزَبَدَهم الطمأنينة. وقابل النَزحة المستضعفون هذا الصنيع بِ موفور الامتنان، ولذا عندما هاجم أعداؤه أرض وطنه عرضوا عليه الانخراط فى جيشه بيد أنه أبى وشكرهم.

(أخرج الحاكم عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال نزل بالنجاشى عدو من أرضه فجاءه المهاجرون فقالوا: إنا نحب أن تخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا ونجْزِيَك ما صنعت معنا، فقال: لا، دواء بنصرة الله خير من دواء بنصرة الناس) ولما أرسل بنو سخينة بعثة إليه لِ الوقيعة بينهم وبينه برئاسة عمرو بن العاص (١٤٨) ومعها هدايا جزيلة له و لِ بطاركته كيما يطرد ضعفة المسلمين من بلاده، فرفض وصاح فى عمرو بن

(١٤٨) هنا نتذكر الدور المؤسف الذى قام به فى التحكيم بين باب مدينة العلم الإمام علىّ أبى الحسنين كرم الله وجهه والطليق ابن أبى الطلقاء معاوية بن أبى سفيان وتخرج بِ نتيجة هى أنك تجد هذا ال عمرو دائما فى صف الباطل والخذلان ا.هـ.

العاص (١٤٩)ومن معه (لو أعطيتمونى دَبْرا (= جبلا) من ذلك ما سلمتهم إليكم.

ثم أمر فُردّت عليهم هداياهم ورجعوا بـ شر خيبْة).(١٥٠)

وأورد الواقدى القصة بـ تمامها مطولة فى مَغازيه. (١٥١)

ولما بلغه نصر المسلمين فى غزاة بدر هنأ النزحة وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب رضوان الله تعالى عليه ولبس ثوبين وجلس على الأرض مباشرة تواضعا وشكرا لله اقتداء بـ عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم(١٥٢)

ولما أرسل (الناصح) إليه كتابا يدعو فيه إلى الإسلام تلقاه بـ الحفاوة والتجلّة بعكس ما فعله الطاغية كسرى أنو شروان.

بيد أن الدور المتميز الذى أداه أصحَمة (النجاشى) والذى فاق كل ما قدمه هو تزويجه (المستقيم) لِ رملة (أم حبيبة) بنت أبى سفيان التى نزحت إلى الحبشة هى وزوجها عُبيد الله جَحْش وهناك حَنّ لديانته الأولى - النصرانية -فَ أرتدّ عن الإسلام إليها. وبقيت الزوجة تعانى آلام الغربة عن الوطن وفراق الزوج بيد أن (الصَفِىّ) من المستحيل أن يدع هذه الفرصة تفلت، فَ هى حقيقة ناهزت الأربعين- وهى سن متقدمة فى ذياك المجتمع الذى تَعْرك (تحيض) فيه الجارية (الصبية أو الفتاة الصغيرة السن) فى التاسعة أوالعاشرة- وليس لها سِحْر صَفِيّة ولا ملاحة جُويرية ولا حُسن أم سلمة ولا جمال زينب (١٥٣)ولا فتاء التيمية بنت عتيق ولا وضاءة ابنة مصر القبطية. ولكنها بنت زعيم قريش ونكاحها سيكسر عينه ويخفف من غُلوائه ويُطامن شِرّته ويسْتلّ سَخيْمته ومن ثم بعثَ إلى (عطية) لِ يخطبها له فَ شَمّر عن ساعديه السوداوين واستجاب له. وأصدقها أربعمائة دينار دفعها لوليّها فى العقد خالد بن سعيد بن العاص ثم أقام وليمة تليق بـ الملوك دعا إليها النَزَحة ثم عاد بها المبعوث إلى

---

(١٤٩) ذلك الذى فعل الأفاعيل هو وباقى الصحاب وعسكره فى أرض الحضارة التى لم تتكرر حتى الآن : مصر ا.ه.

(١٥٠) (إمتاع الأسماع) لِ المقريزى - الأول - ٢٤٥.

(١٥١) (المغازى) المجلد الثانى ص ٧٤٢-ص ٧٤٣ مصدر سابق.

(١٥٢) (المغازى) لِ الواقدى - الأول - ص ص ١٢٠-١٢١.

(١٥٣) (نساء النبى) لِ بنت الشاطئ - ص ١٧٨- مرجع سابق.

أثرب وقد قيل إنه عمرو بن أمية الضمْري أو شرحبيل بن حَسَنَة. (١٥٤)



هذا النكاح تم فى العام الهجرى السابع أى قبل فتح مكة بما يقرب من سنتين وشكل خبْطة سياسية شقّت عن الحذق ودلت على المهارة وأبانت عن الحَصافة - وفى رأينا أنه الزواج السياسى الفريد بخلاف الأنكحة الأخرى التى يدعّى الطبالون أنها سياسية. (١٥٥)

ورقمنا فيما سبق أن آية عظيمة من الذكر الحكيم هلّت ب طلعتها الفائقة البهاء والتألق تبارك هذه الزيجة التى جاءت فى عُقْبانَها نتائج بواهر يأتى فى مقدمها تَليّيْن جُموح صخر بن حرب (=أبى سفيان) واستمالة بنى أمية وهم من ذؤابة بنى سخينة ويجمعون بين المال والدهاء السياسى.



هذه هى الأيادى البيض التى قدمها (النجاشى عطية) لِ (الراضى) ولصحبه المستضعفين الذين نزحوا إلى بلاده.

لذا عندما توفى صلى عليه (المهذب/ المطهر) وأمر صحبه أن يصلوا عليه. (قال جابر بن عبد الله وأنس (= بن مالك) وابن عباس وقتادة : نزلت فى النجاشى، وذلك لما مات نعاه جبريل -س-ل رسول الله -ص- فى اليوم الذى مات فيه، فقال رسول الله -ص- لأصحابه اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم، فقالوا من هو؟ فقال النجاشى، فخرج رسول الله-ص- إلى البقيع وكُشفَ له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشى وكبّر عليه أربع تكبيرات واستغفر له وقال لأصحابه: استغفروا له..) (١٥٦)

هذا الحديث الذى رواه ثلاثة من مشاهير الصحب نستقطر منه معلومات ثمينة منها أنه:

---

(١٥٤) (السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين) لِ المحب الطبرى ص ١٦٢ وما بعدها.

(١٥٥) من هؤلاء الطبالين أعاجم وفرنجة منهم مونتجمرى واط عند تناوله واقعة نكاح (صاحب التاج) زينب بنت جحش.

(١٥٦) (أسباب النزول) لِ الواحدى - ٩٢- مصدر سابق.

(١) أظهر أن السماء شديدة العناية بـ أمر أصحمة (عطية النجاشى) حتى إنها كلفت ملاك الرب أو رئيس الملائكة جبريل أن يبلّغ (الكافى/ الكريم) خبر وفاته فى ذات اللحظة.

والراجح عندنا أن حياطته من قبل السماء بـ هذه الرعاية المكثفة علّتها: موقفه الرائع من النَزَحَة المستضعفين عندما حطّوا رحالهم فى أرضه ولِ أدائه دور الخاطب فى تزويج رَمْلة بِـ (الغالب) وفى القرآن المجيد (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان).

(٢) حَمَل (= الحديث) خبر معجزة حدثت لِ (الطاهر) وهى رؤيته أرض الحبشة وهو فى أثرب ثم أبصر سرير النجاشى.(١٥٧)

ونحن نهدى هذه المعجزة لِ مُتحذلقى الكتبة المحدثين الذين ينكرون معجزاته خلا (معجزة القرآن الكريم الخالدة)!!

وحتى اللحظة لا أدرى لِمَ ينكرون عليه هذا الضرب من المعجزات، فى حين أن البطاركة الأعاظم: إبراهام وموسى وعيسى وغيرهم أتوا بـ أو حدثت لهم خوارق ومدهشات وأعاجيب. وهو فى نظرنا يفوقهم عبقرية ومنزلة ومواهب وشمائل ومناقب وكتابه (القرآن العظيم) أميز من كتبهم؟

(٣) أخبر الصحب أن (عطية) هو أخوهم وأمرهم بعد الصلاة عليه أن يستغفروا له.



بيد أن الأمر بـ الصلاة على النجاشى عطية والاستغفار له ساط فى نفوس الأصحاب فَـ هو ١- عبد ٢- حبشى ٣- نصرانى. والتفت بعضهم إلى بعض يتساءلون: كيف؟

(روى النسائى عن أنس قال: لما جاء نعى النجاشى قال رسول الله - ص-: صلوا عليه قالوا كيف نصلى على عبد حبشى). (١٥٨)

هذا الحديث خرّجه النسائى (أحد أصحاب الصحاح الستة) أعلى دواوين السنة مرتبة والذى يمارى فى ما ورد فيها يُشكّك فى المصدر الثانى ذاته.

---

(١٥٧) هذا هو السر فى أدائه وصحبه صلاة الغائب أو الميت عليه.

(١٥٨) (لباب النقول) لِ السيوطى - على هامش (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) لِ الفيروز آبادى - ص ٧٣- مصدر سابق.

وراويه هو أنس بن مالك خادم (المتضرع فى الدعاء) ومن مشاهير الصحبة. وأضاف السيوطى أن ابن جرير الطبرى رواه فى تفسيره (أو روى نحوه) عن جابر! أما الحاكم فى «المستدرك» فقد عزاه إلى عبد الله ابن الزبير وهو ذاته صحابى معروف، أمه التيميّة أسماء بنت عتيق وخالته التيميّة عائشة وأبوه الزُبير بن العوام الحوارىّ وأحد العشرة المبشرين بِ الجنة.

ونحن نسأل من يُحاجّ فيه: ماذا تريد أكثر من هذه الكوكبة الفريدة التى تحلّقت حول هذا الأثر الشريف؟

(أخرج النسائى والبزار والطبرانى عن أنس -رض- أن النبى -ص- صلى على النجاشى حين نُعِى، فقيل يا رسول الله، (نصلى على عبد حبشى). (١٥٩)

والذى يهمنا فى هذا الأثر الشريف أن أولئك العُريان وصفوا (النجاشى) وهو ملك وقدّم جميلا لِ عدد وفير من سابقيهم المستضعفين ولقائدهم (سيد الكونين) ووصفوه بِ العبد مما يقطع بِ مدى ما يتسمون به من كبرياء وخُنزوانة. وفى رواية أخرى وصفوه بِ العِلج وهو وصف زراية وتحقير يطلقه أولئك العَرَبة على غيرهم من الشعوب كما درج الرومان على تسمية خلافهم بِ البرابرة، بيد أن هؤلاء يُلتمس لهم شطر من العذر لأنهم أصحاب حضارة وعلم وثقافة ومدنية أما هؤلاء الأعاريب فَ هم مليطون من جماعه فَ علام هذه العَنْجهيّة. ومن مهازل التاريخ أنهم فيما بعد أطلقوا هذا اللقب المهين على مواطنى الدول التى دَعَسوُها بِ خيولهم المباركة: مصر، فارس، العراق، الشام، مع أنها أعلى منهم بِ ما لا يقاس فى مدارج الحضارة والمدنية ولكن كما قال سيدهم (صاحب زمزم):

إذا لم تَستَحِ فَ اصنع ما شئت.

---

(١٥٩) (المقبول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى- ص ١٩٢- مرجع سابق. ونجد هنا أن المصنف زاد على النسائى: البزار والطبرانى، وأضاف فى هامش الصفحة أن الهيثمى قال فى الزوائد: رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ورجال الطبرانى ثقات.
ووصفه الأزهرى المصنف أو المصنف الأزهرى بِ أن إسناده حسن.

❖ ❖ ❖

اتباعا لِ المنهج الذى التزمناه نثّى بما تضمنته كتب التفسير بخصوص هذه الواقعة زيادة فى التوثيق ونكتفى بِ ما أورده القرطبى:

(قوله تعالى: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بِ الله) إلى آخر الآية.

قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة والحسن: نزلت فى النجاشى وذلك أنه لما مات نعاه جبريل -س- لرسول الله -ص- فقال النبى -ص- لأصحابه: قوموا فصلوا على أخيكم النجاشى، فقال بعضهم لبعض نصلى على عِلْج من عُلُوج الحبشة، فَ أنزل الله تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم أولئك يُؤتون أجورهم مرتين) (١٦٠)

هكذا نجد أن الصحب استهولوا الصلاة على النجاشى لأنه عِلْج وهو كما قلنا وصف يؤكد ما ذكرناه عن استكبارهم وشُموخهم بِ أنافهم على خلق الله دون مبرر أو سند لهم يُبيِّحُه وعلى النقيض التام للمبادئ السامية التى حاول غرْسها فيهم (المُبيِّح) مثل قوله الشريف (كلكم لِ آدم وآدم من تراب).

❖ ❖ ❖

وتَبلور الموقف كالآتى:

إما أن ينفذ أمر (الأوسط) ويصلى بهم صلاة الميت الغائب على (عطية/ أصحمة) ويستغفر هو وهم له وهو شأن له قدره من الأهمية لأن عدم انصياع التبَع لما يشير به عليهم بادرة مرفوضة ويتعين فى التو- لا بعد حين- قمعها والقضاء عليها.

كما أن الإعراض عن الصلاة على النجاشى فيه بَخْس لِحقه وإنكار لما قدّم من خدمات وتجاهل لِ صاحب فضل وهذا مُنافٍ لحديثه الكريم:

«من صنع فيكم معروفا فَ كافئوه».

هذا من صوْب. ومن شِق آخر فَ قَسْر الصُحبة على أمر يكرهونه نعنى

(١٦٠) (تفسير القرطبى) المجلد الثالث ص ١٦٥٤ سابق.

الصلاة على (عطية/ أصحمة) سوف يصيبهم بـ الضيق المكتوم والنفور المُغَطىّ والحنَق المستور، وهو حريص على مشاعرهم حَفِىّ بـ أحاسيسهم مهتم بـ عواطفهم لا يسعى لِـ إحراجهم ولا يعمل على مضايقتهم ولا يقدم على مساءتهم.

إذن ما الحل؟

لا يقف (مأدبة الله/ القرآن) فى جانب السلب أو حتى فى جهة الحياد فـَ تَنْبجس منه آية مجيدة كـَ النهر العذب تَبُلّ ريقهم بل وتروى عطشهم، وهى الآية التاسعة والتسعون بعد المائة من سورة آل عمران. وبعد أن تضلّعت عروقهم من الرىّ ينْقَهُون أن القرآن المجيد قد تكرّم بـِ تقديم إجابة شافية عن التساؤل الذى توجهوا به إلى (الآمر / الناهى) وأن (عطية/ النجاشى) ليس عِلْجا، بل هو على قُلّة أهل الكتاب وأنه مؤمن بالله تعالى وبـِ القرآن والإنجيل ومن الخاشعين الذين لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، وأنه من الذين يُؤتيهم ربهم أجرهم مرتين.

فـَ أدركوا أن من هذا شْأوُه يستحق التكريم حيا وميتا فـَ رضوا بـَ الصلاة عليه وأشرقت أسارير (الناسك) بشْرا وحُبُورا بـ اقتناع أصحابه وأدائهم الصلاة والدعاء لـ (عطية/ أصحمَة)، ومن رجا آخر دائما يزيدنا (الذكر الحكيم) بـ أن مـلاحظته لهم لا تَفْتُر أبدا وأنه فى كل نازلة ينفحهم بـِ آية عظيمَة تهديهم إلى سواء السبيل وكيما يقتنع من له قلب أو يلقى السمَع وهو شهيد أن الحكمة كلها فى ظهوره الرائع نَجُوما متفرقة حسب أحوالهم وأن ربَاطه بـِ مجتمعهم وثيق.



تلك أمثلة عشرة عن انبثاق آيات (القول/ المحكم) للإجابة على تساؤلات الصحاب وللرد على استفساراتهم ولـ إيضاح استبياناتهم. ونعتقد أن فيها غُنية ولها الصلاحية الكاملة للقيام بدور البيّنة على الفرض أو الفروض التى طرحناها ومن ثم نكتفى بها إذ توجد بـ جانبها العشرات، ونضع فى الاعتبار أننا لسنا بـَ صدد إحصاء أو استقصاء، وكل ما يعنينا أن يفطن القارئ إلى ما نؤمه ويَدرك ما نتغياه ويَفْقه ما نرمى إليه خاصة أن الموضوع بكر لم يسبق تناوله.



الفصل الثالث

آيات هلّت موافقة لِ عبارات فَاهَ بها بعض الصحاب، أو اقتراحات قدموها، وأخرى توقعوا بزُوغها فــى بــعــض المــواقــف

قدمنا فى الفصل السابق أن (السبع المثانى/القرآن) أشرقت آيات عديدة منه تحقيقا لرجاوات صحابيات وصحابة، بيد أنه لم يقف عند هذا الحد بل خطا خطوة أروع وهى تقديم آيات كريمة قريبة أو حتى مُشاكلة لِ جُمل تكلم بها واحد أو أكثر منهم.

ونوع آخر آيات مجيدة بزغت بناءً على اقتراحات طرحوها على (الظفور) فـَ لاقت منه استحسانا وصادفت قبولا وألفت ارتياحا ووجدت استجابة وقابلت ترحيبا.



أشهر التبَع فى المضمار هو العدوىّ ابن الخطاب:

(روى البخارى وغيره عن عمر قال : وافقت ربى فى ثلاث، قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مُصلى؟ فنزلت (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت يا رسول الله أن نساءك يدخل عليهن البَرّ والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله - ص- نساؤه فى الغيرة، فقلت له عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن ، فنزلت الآية.

وله طرق كثيرة منها أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر قال:

لما طاف النبى -ص- قال عمر : هذا مقام آبينا إبراهيم؟

قال : نعم، قال : أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى).

الآية الخامسة والعشرون بعد المائة من سورة البقرة.(١)

الحديث آخرجه البخارى وهو من هو وابن أبى حاتم وابن مردويه وغيرهم.

وأورده آبو عمر نادى الأزهرى بنصه وعزاه إلى البخارى وغيرهم فى (نهاية السول).(٢)

آما فى (المقبول) فقد ذكر أن الترمذى والنسائى (وهما من أصحاب الصحاح الستة) أخرجاه عن أنس(٣)

وذكر الحافظ ابن عبد البر النمرى (.. ومن حديث ابن عمر أيضا قال: نزل القرآن بِ موافقته فى أسرى بدر، وفى الحجاب وفى تحريم الخمر وفى مقام إبراهيم) (٤)



فإذا انعطفنا إلى كتب التفسير، نجد عند الإمام الرازى (.. ما روى أنه -ص- مَرّ بالمقام ومعه عمر فقال يا رسول الله: أليس هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: بلى، قال أفلا نتخذه مصلى؟ قال: لم أُومر بذلك فلم تغب الشمس من يومهم حتى نزلت الآية).(٥)

هذا الحديث ذكر لنا أن الآية المجيدة أقبلت بأريّجها العَطِر فى ذات اليوم أو بعد سويعات من ملتمس العدوىّ عمر.

ويحدد ابن جَزّى الكلّبىّ ما حدث أى انبعاث الآية المذكورة بِ الآتى: (وافق قول عمر - رض - لو اتخذت من مقام إبراهيم مُصلى).(٦)

أى أن الآية الحميدة ومطلب ابن الخطاب توافقا، أى جاءت حروفهما

---

(١) (لباب النقول) لِ السيوطى - طبعة الشعب - ص ١٨.
(٢) (نهاية السول) ص ٢٧.
(٣) (المقبول) ص ٨٧.
(٤) (الاستيعاب) الخامس ص ١٤٢ - سابق.
(٥) (مفاتيح الغيب-التفسير الكبير) لِ الإمام فخر الدين الرازى- المجلد الثانى - الجزء الرابع - ٤٠٣ - سابق.
(٦) (كتاب التسهيل لِ علوم التنزيل) الجزء الأول - ص ٦٠- مصدر سابق.

مـتطابقـة، وسـوف نـرى أنه تكرر ولعل هذا يضـىء لنا حَـفَـافَ الحـديث المحمدى الشريف:

(وروى من حديث عُقبة بن عامر وأبى هريرة عن النبى -ص- أنه قال: لو كان بعدى نبى لكان عمر).(٧)

فَ هل انبـجـاس آيات كـريمات من (البـشـرى/ القـرآن) مَـشـاكِلة لِ الألفاظ التى يدلى بها العدوى أحد أسباب ورود الحديث سالف الإلماع؟

❖ ❖ ❖

أمـا القرطبى فَ هو يرتفع بعـدد مـوافقـات العدوىّ لِ الذكـر الحكيم إلى أربع:

(عن أنس بن مالك قال: قال عمر: وافقت ربى فى أربع:

قلت : يا رسـول الله لو صليت خلف المقـام، فنزلت الآية (واتخـذوا من مقام.. إلخ).

وقلت يـا: يا رسـول الله لو ضـربت على نسـائك الحِـجَـاب فـإنه يدخل عليهن البَرّ والفاجر فأنزل الله (وإذا سـألتموهن متاعا فاسـألوهن من وراء حجـاب)، ونزلت هـذه الآية (ولقـد خلقنـا الإنسـان من سلالة من طين) فلما نزلت قلت أنـا تبـارك الله أحسن الخـالقين، فنزلت (فـتبـارك الله أحـسن الخالقين). ودخلت على أزواج النبى -ص- فقلت: لتنتهن أو ليبدله الله ب أزواج خـيـرا منكن فَ نزلت الآية (عـسى ربه إن طلقـكن أن يبـدله أزواجـا خيرا منكن).(٨)

❖ ❖ ❖

(أخـرج البـخـارى والنسـائى وابن مـاجة عن أنس قال عـمـر: وافقت ربى فى ثلاث.. واجـتـمع على رسـول الله -ص- نسـاؤه فى الغـيرة فقلت لهن : عـسى ربه إطلقكن أن يبـدله أزواجـا خـيـرا منكن- سـورة التـحـريم - الخامسة) (٩)

هـذا الحـديث خـرّجـه البـخـارى والنسـائى وابن مـاجـة وهم ثـلاثة من أصحاب الصحاح الستة ورواه أنس بن مالك، وهو خادم (الأعز- الأعظم) أى أنه (= الحديث) ناء عن التجريح وورد به أن الآية الشـريفة انفجرت كَ

(٧) (الاستيعابَ) لِ ابن عبد البر - الخامس - ص ١٤٢- مصدر سابق.

(٨) (تفسير القرطبى) فاتحة المجلدات- ص ص ٤٩٨/٤٩٧.

(٩) (المقبول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى -٦٨٦.

النبع الصافى بِ ذات الكلمات التى تلفّظ بها العدوىّ، وأكد السيوطى أن (سبب نزولها هو قول عمر)(١٠).

ومن كتب التفسير (عسى ربه إن طلقكن) الآية ورُوى أن عمر قال ذلك ونزل القرآن بموافقته.

ولقد قال عمر حينئذ للنبى -ص- والله يا رسول الله لئن أمرتنى بِ ضرب عنق حفصة لضربت عنقها) (١١).

ابن جزىّ فى تفسيره للآية يؤكد أن ابن الخطاب هو الذى فاه بالألفاظ التى تضمنتها الآية الكريمة، أما الذى جاء فى ختام الخبر فَ لا تعليق لنا عليه إلا أنه من هواة قطع الرقاب، والطريف أنه لم يستثمر هذه الهواية المُعجبة مع الأعداء لأنه باعترافه فرّ مع الذين هربوا من وجه كفار قريش فى غزاة أحد.



وفى تفسير ابن كثير (عن أنس قال عمر بن الخطاب بلغنى شىء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبى فاستقريتُهن أقول لتكفّن عن رسول الله -ص- أو ليبدله الله أزواجا خيرا منكن حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين فقالت يا عمر أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن؟

فأمسكت فأنزل الله عز وجل (عسى ربه إن طلقكن.. الآية)(١٢)

هذه الزوجة الشجاعة التى اعترضت العدوىّ لأنه يحشر نفسه بين (الملىء) ونِسْوَنه هى هند أم سلمة بنت زاد الركب، رغم صلة قرابة بينهما والحق معها ولا ندرى بِ أى سند من دين أو عرف اجتماعى عمل هذه العملة؟ فى حين أن هناكَ من الصحاب لو فعلها فَ لا أحد يُثَرّبه مثل العباس بن عبد المطلب عم (ذى الحطيم).

(قال عمر: .. حتى دخلت على أم سلمة لقرابتى منها فكلمتها فقالت أم سلمة: عجبا لك يا ابن الخطاب، دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله-ص- وأزواجه فأخذتنى والله أخذا كسرتنى عن بعض ما كنت أجد، فَ خرجت من عندها)(١٣).

---

(١٠) (لباب النقول) لِ السيوطى ص ١٧٣.

(١١) (التسهيل) لِ الكلبى - الجزء الرابع ص ١٣٢.

(١٢) (التيسير- خلاصة تفسير ابن كثير) ص ١٢.٣ سابق.

(١٣) (أم سلمة) لِ أمينة أمزيان الحسنى- الجزء الثانى -ص ١٥٣ - مرجع سابق.

ونظرا لما تمتعت به أم سلمة من شخصية قيادية (نسائية) ولِ عراقة نسبها وأصالة حسبها ولِ سمو شرفها ولِ حظوتها لدى زوجها لحسنها وجمالها استطاعت أن تواجه العدوّ وتنتقد مسلكه وكسرته حسب عبارته.

الخلاصة إذن أن هذه الآية التى تناولنا بِ التحليل أسباب انبثاقها تؤكد أن إشراقها نم عن فكرة طرحها ابن الخطاب، وفى رواية أخرى بِ ذات التركيب الذى رصّه أو رصَفَه. وهناك آية خامسة نزلت على لسان العدوّ ابن الخطاب:

(أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى: أن يهوديا لقى عمر فقال: إن جبريل الذى يذكر صاحبكم عدو لنا. فقال عمر: (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) الآية الثامنة والتسعون من سورة البقرة)(١٤)

أما السيوطى فقد أورده مطولا وفى عُجُزه (.. ثم أتيت النبى -ص- وأنا أريد أن أخبره فَ لما لقيته قال ألا أخبرك بآيات أنزلت علىّ؟ فقلت: بلى يا رسول الله فقرأ (من كان عدوا لجبريل ... حتى بلغ للكافرين)، قلت: يا رسول الله والله ما قمت من عند اليهود إلا إليك لأخبرك بما قالوا لى وقلت لهم فوجدت الله قد سبقنى)(١٥)

والحق أننى عندما قرأت هذا الأثر لِ أول مرة حاك فى صدرى شىء، إذ كيف يجرؤ هذا العدوّ أن يجعل الله ذا القوة والجبروت مُسابقه؟ هَلاّ قال:

فَ وجدت الآية المجيدة قد أشرقت أو فاحت رائحتها الطيبة كما المسك ! إنما يبدو أنه شديد الاعتزاز بِ نفسه لدرجة أنه لم يفطن إلى ما فى لفظه من تجاوز وجُنُوح!!



ثم نؤوب إلى سياق التنقير:

أورد الفخر الرازى الخبر ذاته وضَمّنه قالة العدوى لِ يهود (ولأنتم

(١٤) (المقبول) ص ٦٧/٦٨.

(١٥) (لباب النقول) ص ١٤ مصدر سابق. (أسباب النزول) لِ الواحدى النيسابورى ص ص ١٧، ١٨ - مصدر سابق.

أكفر من حمير).(١٦)

هنا نجد أنه خرج عن الحدود التى رسمها القرآن العظيم للمسلمين فى جدالهم مع أهل الكتاب.

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن)(١٧)

وعن أمره الكريم لهم بأن يُحسنوا مقالهم مع كل الناس (وقولوا للناس حسنا) .(١٨)

كما أننا لا نعتقد أنه لم يسمع (متمم مكارم الأخلاق) وهو يُؤدّبهم (إن الله يبغض الفاحش المُتَفحّش).(١٩)

ولا أدرى بِ أى سند حكم هذا العدوىّ على الحمير بِ الكفر؟ (٢٠) وهل توجد حيوانات كوافر وأخرى مؤمنات؟

والذى علمناه من الذكر الحكيم أن جميع ما فى الأرض يسبح لله العزيز الحكيم وبداهة أنه لا يسبح له جل جلاله كافر! ولعل هذه المقالة تنفى ما يدعيه الطبّالون أنه من علماء الصحابة، إذ لو أنه كذلك لما خرجت من شفتيه تلك العبارة الفَلُوت!.



ومن المفسرين المحدثين ألفينا عبد الله شحاته نسخ الحديث المذكور بِ قَضّه و قَضيضه من تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير الطبرى وتفسير البيضاوى.(٢١)

والمصنف المذكور أستاذ بِ إحدى كليات العلوم الإنسانية بِ جامعة القاهرة، بيد أنه غَضّ الطرف عن مسألة تكفير ابن الخطاب للحمير فإما أن الهالة الأسطورية التى أحاطته بها جوقة الطبالين (بداية بِ ابن

---

(١٦) (مفاتيح الغيب) المجلد الثانى – الجزء الثالث ص ٢٦٧ – مصدر سابق.

(١٧) (الآية السادسة والأربعون من سورة العنكبوت) .

(١٨) الآية الثالثة والثمانون من سورة البقرة.

(١٩) عن أسامة بن زيد وهو الحِبّ ابن الحِبّ خرجه أبو يعلى فى مسنده وقال عنه صيارفة الحديث إنه صحيح ا.هـ.

(٢٠) من مخاريق التاريخ أن هذا العدوىّ الذى مبلغ علمه أن الحمير كافرة هو الذى أعطى الأمر بغزو واستعمار واستيطان واحتلال البلد الذى هو بِ الإجماع أستاذ الدنيا فى الحضارة والمدنية والعلوم والآداب وكافة جوانب الثقافة: مصر المحروسة.

(٢١) (تفسير القرآن الكريم) لِ د/ عبد الله شحاته – الجزء الأول –ص ١٢٥ عند تناوله لِ سورة البقرة الزاهرة.

الجوزى حتى خالد محمد خالد مرورا بِ العقاد وهيكل) قد أغْشت عينيه. وإما سكت حتى يضمن الحصول على رخصة النشر التى تتعطف بها عليه مؤسسة شئون التقديس يُبَرْقش بها (الرخصة لا المؤسسة المهيبة) كل جزء يطرحه فى الأسواق.

وإذ إنه فعل ذلك فقد دخل فى زُمرة الساكتين عن الحق الذين وصفهم (سيد الخلق محمد وصفا رادعا فى حديثه المحفوظ: الساكت عن الحق شيطان أخرس).

إذ فى مقدوره أو ميسوره أن يَرْقُم أنها غلطة من عمر و(أن جميع الحيوانات بريئة من الكفر بل هى مُسبّحة لله ولكن لا نفقه تسبيحها)، ولكنه آثر السلامة واختار العافية وفضّل هدوء البال وليذهب الحق وأهله لدى حيث ألقت رَحْلها أم قَشْعم.(٢٢)



كذلك وافق الذكر الحكيم العدوىّ ابن الخطاب فى مسألة ضرورة الاستئذان قبل الدخول على الشخص ولو أنه رجل، إذ ربما أو قل كثيرا أو عادة عندما يخلو بِ نفسه لا يتحشم لِ عدم الموجب، بيد أنه يكره وينفر أن يراه آخر مهما قرب منه على تلك الهيئة وهذا ما حدث معه بالفعل، إذ فاجأه غلام أثربى وهو فى القيلولة على حال تأذى من اطلاعه عليها فَ أبدى (= عمر لا الغلام الأثربى) ضيقه من ذلك لِ (الأوسط) وتشوفه لبزوغ آية تنظم ذلك الشأن وفعلا أشرقت آية الاستئذان:

(قال ابن عباس وجّه الرسول -ص- غلاما من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب- رض- وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته كذلك، فقال يا رسول الله: لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا فى حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت إيمانكم» وهى الآية السابعة والخمسون من سورة النور. (٢٣)

ومن كتب التفسير نقتصر على ما أورده القمىّ النيسابورى فى ال

---

(٢٢) (أم قَشْعم) هى المنيّة والحرب والداهية والضبع (القاموس المحيط) لِ الفيروز آبادى و (ثمار القلوب) للثعالبى ص ٢٦٠ مصدر سابق.

(٢٣) (أسباب النزول) ل الواحدى ص ٢٢٢.

(غرائب) (يروى أن مدلج بن عمرو -وكان غلاما أنصاريا- أرسله رسول الله وقت الظهيرة إلى عمر ليدعوه فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف ثوبه فقال عمر لوددّت أن الله عز وجل نهى أبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبى-ص- فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية)(٢٤)



إذن توافق الذكر الحكيم مع كلمات عمر بن الخطاب فى عدة مواضع بأن نقلها بِ حُروفها: اتخاذ مقام إبراهيم مُصلى والعداوة لِ جبريل وميكال وتبارك الله أحسن الخالقين، وإبدال الأزواج (الزوجات) خيرا منهن، وبعضها بِ المعنى مثل الاستئذان وهو أمر بالغ الإدهاش وربما أقرب تعليل عقلانى له هو استمرار التساق العدوىّ بِ (محمود).

إنما ينتصب اعتراض أو دفع بالغ الأهمية:

إن التيمىّ عتيق بن أبى قحافة (أبا بكر) أطول منه صحبة وأعمق منه ملازمة فلماذا لم يفعل فعله أو يصنع صنيعه؟

فَ يقتحم الرد بِ أن العدوىّ مُلهم ومُحَدَّث، وهاتان صفتان شديدتا الإبهام، غزيرتا الالتباس، كثّتا الغموض ، هذا من رجا.

ومن صوب آخر

فَ إنهما تَشِيان بِ مَنْحَى غُنُوصِىّ.

ولقد وقفت مليّا وتريثت كثيرا وتأنيت طويلا أمام هذه الظاهرة (٢٤)(أ)

فأعيانى البحث وأرهقنى التنقير وأتعبنى التنقيب أن أجد لها حلا عقلانيا يطمئن إليه تفكيرى بل حتى يرتاح إليه وجدانى.

❖ ❖ ❖

والشطر الآخر:

هو أن يطرح العدوىّ عمر فكرة أو رأيا ثم تتهادى آية كَ النجم الثاقب:

إما أن تتبنى فكرته أو رأيه كما زَبَرْنا بشأن منع المحادثة مع نِسْوَن (العابد) ومع من يتردد عليهن فى حجراتهن وألا يتكلمن معه إلا من وراء حجاب أو ساتر يمنع رؤيتهن.

---

(٢٤) (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) لِ القمىّ النيسابورى المجلد الثامن- ص ٢٣٧.

(٢٤) (أ) معلوم أن الواقعة إذ تتواتر تغدو ظاهرة.

وإلى مزيد من التوثيق:

(أخبرنا حميد بن أنس قال قال عمر بن الخطاب - رض- قلت يا رسول الله يدخل عليك البرّ والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحِجاب، فأنزل الله تعإلى (آية الحجاب- رواه البخارى).(٢٥)

وأورده السيوطى فى ال (لباب) (فقال له عمر: يا رسول الله لو اتخذت حِجابا فإن نساءل لسن كَ سائر النساء وذلك أطهر لِ قلوبهن، فنزلت آية الحجاب).(٢٦)

وجاء به أيضا الأزهرى فى المقبول ص ٥٥٤ وعزاه إلى الطبرانى وابن مردويه وسبق أن رقمنا أن الواحدى أسنده للبخارى.

ثم ذكر الأزهرى له رواية أخرى تزيده تثبيتا (أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود: قال فضل الناس عمر بن الخطاب بِ أربع -ويذكره الحِجاب: أمر نساء النبى أن يحتجبن فقالت له زينب: وإنك علينا والوحى ينزل فى بيوتنا؟! فَ أنزل الله (وإذا سألتموهن) إلى آخر الآية. (٢٧)

إن العبارات التى انضوى عليها الخبر من المتعين أن تلفت النظر، فَ زوجة أخرى من زوجات (السلطان- الحُجّة) تنتقد العدوىّ على أنه يحشر أنفه فى أخص أمورهن، كما يفهم منه أن اقتراح ابن الخطاب لم يصادف قبولا لديهن وإلا لما زَبَرته (=زجرته وزنا ومعنى) زينب بنت جحش وهى أيضا ذات مقام رفيع لأنها نصف قرشية ونكاحها وثقته آية من (الأحسن- القرآن) فضلا عن أنها أثيرة للغاية لدى (الذى اختار الرفيق الأعلى)، لما تمتعت به من وضاءة وقسامة ورداحة (سمنة) و بلدحة (بدانة).



ثم نصل لِ محطة كتب التفسير: (... إن عمر كان يحب ضرب الحِجاب عليهن محبة شديدة وكان يقول يا رسول الله يدخل عليك البرّ والفَاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحِجاب فنزلت). (٢٨)

---

(٢٥) (أسباب النزول) لِ الواحدى ص ٢٤٣- سابق.

(٢٦) (لباب النقول) لِ السيوطى ص ١٤٢- سابق.

(٢٧) (المقبول) لِ أبى عمرنادى الأزهري- ص ٥٥٥ - مرجع سابق. ونهاية السول له ص ٢٢٢.

(٢٨) (غرائب القرآن) لِ القمىّ النيسابورى - المجلد التاسع- ص ٢١٨ - مصدر سابق.

يلفت النظر فى هذا الجزء أن العدوىّ أحب ضرب الحجاب عليهن محبة شديدة فَ هل مرده وجود ابنته العدوية حفصة بينهن وسنها آن ذلك لم تتعدّ الثانية والعشرين، أم أنه غيور؟ بيد أن (المهذب) أفصح فى حديث صحيح أنه يلى ربه فى الغيرة، ولدى القرطبى (روى أبو داود الطيالسى عن أنس بن مالك قال: قال عمر:

وافقت ربى فى أربع .. الحديث..

وفيه قلت يا رسول الله: لو ضربت على نسائك الحِجاب يدخل عليهن البّر والفاجر فأنزل الله عز وجل (وإذا سألتموهن .. إلى آخر الآية)(٢٩)

وهكذا تكاملت أدلة الثبوت لِ هذا الحديث من كتب التفسير ومصنفات أسباب النزول.



بيد أن هناك حديثا آخر يحمل سببا مغايرا لِ هَلّ (= ظهور) آية الحجاب.

(أخرج البخارى فى (الأدب المفرد) والنسائى والطبرانى وغيرهم عن عائشة قالت:

كنت آكل مع النبى -ص- فى قِعْب- أى قدح- فَ مرّ عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه أصبعى فقال: حِسّ أو .. أوه.(٣٠) لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزلت آية الحجاب).

وصفه المصنف بصحة الإسناد وأضاف أن السيوطى صحح إسناده فى الدّر وزاد نسبته لابن أبى حاتم وابن مردويه.

(أخرج الطبرانى بسند صحيح عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبى -ص فى قعب فمرّ عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعى أصبعه فقال: أوه، لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزلت آية الحجاب).(٣١)

وأضاف السيوطى (قال ابن حجر العسقلانى .. لا مانع من تعدد الأسباب) (٣٢)

---

(٢٩) (تفسير القرطبى) المجلد الثامن ، ص ٢١٨- مصدر سابق.

(٣٠) (المقبول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى - ص ٥٥٣ - مرجع سابق.

(٣١) (لباب النقول) لِ السيوطى- ص ١٤٢- مصدر سابق.

(٣٢) ذات المصدر والصفحة.

وابن حجر هو صاحب (الفتح) وهو من أقوى مصنفات شرح الحديث المحمدى.

نخرج من هذا الحديث أنه حتى وقت ظهور الآية الكريمة من المُباح أن يأكل (المشاور) وزوجته وصاحبه فى طبق واحد، وإذ إنها أشرقت فى السنة الخامسة فَ معناه أنه ظل كذلك ثمانية عشر عاما أى أكثر من ثلثى عمر الدعوة الإسلامية.

ثم تسببت غَيْرة العدوى فى تحريمه عليهن. ونحن نرى أن ما جاء فى آية الحجاب جماعه خاص بِ نِسْون (الواجد) ولا ينسحب على نساء سائر المسلمين، إذ هو حكم خاص بهن لِ مكانتهن العالية ورتبتهن المُنيفة ومقامهن المحمود. ومع تقديرنا لِ الفقهاء الذين ذهبوا إلى تعميم هذا الحكم على الأمة بِ أسرها فإن الذى دفعهم إليه النزعة الذكورية، وهو ليس الوحيد بل توجد عشرات الأحكام والقواعد والفتاوى التى يقبع وراءها المنزع الحثيث، وإلاّ فَ ما هو التعليل المنطقى لتأخر صدور الحكم ذاك المدى المستطيل؟ كما أن تطور المجتمعات وصعودها درجات سلم الترقى يجعل منحى الفقهاء هذا يصيب أفرادها بِ العنت والحرج والضيق وكلها حاربها القرآن العظيم. (وما جعل عليكم فى الدين من حرج). (٣٢) أو أن يتخذ موقفا محددا خاصا به وحده وقد يجىء مخالفا لِ الآخرين بمن فيهم سيدهم وقائدهم (مقدم ولد آدم) فَ يؤيده (الإيمان/الشفاء) وأبرز مثل:

مسألة أسارى غزاة بدر فَ عندما استشار (المنصور بِ الرعب مسيرة شهر) التيمىّ أبا بكر فيما يفعله فيهم أشار بِ الرفق بهم وأخذ الفداء منهم وقد طابق ميل (الرحمة المهداة) إذ إنه رءوف رحيم بِ الناس أجمعين.

ولما أخذ رأى ابن الخطاب ذهب إلى ضرورة ضرب أعناقهم لأن صفحتهم معه سوداء حالكة السواد فهم كذّبوه وهَزئوا به وأخرجوه من بلده ثم حاربوه ولو أنهم ظفروا به لما أفلت منهم ولم يراعوا فيه إلاّ ولا ذمة ولا صلة القرابة الحميمة.

بيد أن (المرحمة) لِ رقة قلبه ولِ شمائله التى لا ضروب لها ولِ

(٣٢) (الآية الثامنة والسبعون من سورة الحج)

أخلاقه العالية التى ليس لها نديد ول مناقبه المعدومة النظير أخذ بِ مشورة عتيق بن أبى قحافة وتسلم الفداء من أهالى الأسرى ثم أطلق سراحهم.

فَ أسرعت آية عظيمة تسجّل الواقعة وتأخذ بِ رأى عمر وبعد أن تلاها على أصحابه قال فى أسى: لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه أحد إلا ابن الخطاب.



(قال ابن عمر: استشار رسول الله -ص- فى الأسارى أبا بكر فقال: قومك وعشيرتك، خلّ سبيلهم. واستشار عمر فقال اقتلهم، ففاداهم رسول الله -ص- فأنزل الله تعالى: «ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثخن فى الأرض،» قال تلقى النبى-ص- (عمر) فقال: كاد أن يصيبنا فى خلافك بلاء) (٣٤)

من هذا الأثر الشريف يتضح لنا أن (المُعزّز) دأب على استشارة أبى بكر وعمر ومن ثم فهما وزيراه.. والأمر بِ النسبة لِ التيمىّ طبيعى أو بديهى إنما بِ النسبة لِ العدوىّ فَ هو مثار تساؤل: لماذا خصّه (الغوث) بِ هذه الرتبة من دون الصحاب مع أن من بينهم من هو أسبق منه فى اعتناق الديانة التى بشـرّ بها ومنهم من وُلد قبله(يعنى أسنّ منه)، ومنهم من ينتسب لِ فرع أطول قامة من رهطه بنى عدىّ فى قبيلة بنى سخينة ومنهم من هو أعلم منه وأحفظ لِ القرآن العظيم؟ هل بسبب قوة شخصيته التى أطبق الجميع عليها، أم لأن الإسلام تعزّز به واستعلن المسلمون بعد تواريهم عن الأنظار واختفائهم فى دويرة الأرقم بن أبى الأرقم؟

إنه من الجائز أن يتمتع شخص بِ قوة الأسر ومتانة البنيان وفَتْل الذراعين وشدة العضل ثم تبلوه فَ تلفاه فَطيّر الرأى أفيّن العقل، ركيك الفكر، هزيل القريحة، ضيّق الأفق، أعشى البصيرة! وعلى كل فإن تقريب (الهُمام) لِ العدوىّ واتخاذه المستشار المُصَلى (= التالى) بعد عتيق دون غيره من الصُحبة رغم ما تمتعوا به من شمائل وامتازوا به من مناقب

---

(٣٤) (أسباب النزول) لِ الواحدىّ -ص ١٦٠ - مصدر سابق.

وانفردوا به من تحاميد، أُحْجِيّة من أحاجى التاريخ الإسلامى وكم فيه من ألغاز.

❖ ❖ ❖

(روى أحمد وغيره عن أنس قال: استشار النبى -ص- الناس فى الأسارى يوم بدر فقال إن الله قد أمكنكم منهم، فقال عمر بن الخطاب:

يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه فقام أبو بكر فقال:

نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، فأنزل الله ..)(٣٥)

ثم أتحفنا السيوطى بِ رواية أخرى مقاربة:

روى أحمد والترمذى والحاكم وابن مسعود قال:

لما كان يوم بدر وجىء بِ الأسارى، قال رسول الله -ص-:

ماتقولون فى هؤلاء الأسارى- الحديث، وفيه نزل القرآن بِ قول عمر (ما كان لنبى أن يكون له أسرى إلى آخر الآيات). (٣٦)

والفقرة العُجْز فيها (= فى هذه الرواية) بالغة الثمانة لأنها نصّت على أن الآيات الكريمات :

(ما كان لنبى أن يكون له أسرى.. إلخ) جاءت على لسان ابن الخطاب أى أنه فاه بها أولا ثم ضمّنها الذكر الحكيم آياته هذه. وبذا لا يغدو عمر هو صاحب الفكرة فَ حسب بل نطق بِ الكلمات التى حملتها الآيات العظيمات، وبهذا تضاف إلى ماسبقتها من آيات حكيمات، وافق فيها العدوى الذكر الحكيم مثل الآية الكريمة الخاصة بِ اتخاذ مَقَام إبراهيم مُصلى، ومنذ تلك الساعة ومئات الملايين من تبع (النور) يصلّون فيه فَ هل ينال ابن الخطاب شطرا من ثواب صلواتهم؟

هذا ما لم أتحققه، لأن كتب العلوم الإسلامية التى طالعتُها لم تتحدث عنه، ولكن لو صَحّ لَ صار نصيب العدوىّ من الحسنات يستعصى على الإحصاء.

❖ ❖ ❖

(٣٥) (لباب النقول) لِ السيوطى ص ٩١ وهو هنا ذكر أن مصدره هو أحمد بن حنبل فى (مسنده).

(٣٦) (ذات المصدر والصفحة).

نصل الآن إلى كتب التفسير:

(ما كان لنبى أن يكون له أسرى) لما أخُذ الأسرى يوم بدر أشار أبو بكر بحياتهم وأشار عمر بقتلهم فنزلت الآية عتابا على استبقائهم) (٣٧)

هنا يصف ابن جَزى الآية على أنها عتاب على استبقاء الأسارى. والأصْوَب فى رأينا أنها تشريع يتعين اتباعه فى الوقائع المشابهة. وينسخ الفخر الرازى الحديث بشىء من التطويل وجاء فيه (فقام عمر وقال: كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء فمَكّن عَليًا مَن عقيل، وحمزة من العباس ومَكّن من فلان ينتسب له فتضرب أعناقهم.. ومال إلى قول أبى بكر) (٣٨)

ولا ندرى كيف يواجه الإمام علىّ رضى الله عنه وكرم الله وجهه إخوة عقيل وأسرته لو قتله؟ وكيف يصبح موقف حمزة من أم الفضل (مَرَة العباس) وأولادها منه لو نفذّ مشورة العدوىّ وقتل أخاه الذى هو فى ذات الوقت عم (يس) الذى أفزعته تلك المشورة فَ قال لصاحبها:

أتأمرنى أن أقتل العباس؟ فَ جعل عمر يقول: ويل لعمر ثكلته أمه) (٣٩)

لقد استشعر العدوىّ بشاعة رأيه. وينتقش القرطبى ذات الحديث وفى مؤخرة الرواية (.. فقال رسول الله -ص - إن كاد لَيصيبنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب، ولو نزل عذاب ما أفلت إلا عمر). (٤٠)

نخرج من هذا الأثر الشريف أن (المهيمن/المبارك) توافقَ مع مذهب ابن الخطاب فى ضرورة تصفية أسرى بدر جسديا وعدم استبقائهم، ولو نزل عذاب من السماء مثلما حدث على عهود (الكُمّل) السابقين لَ أفلت منه العدوىّ منفردا وهو أمر بالغ الإدهاش.

بيد أن القمىّ النيسابورى زاده توثيقا فَ بعد أن روى حديث الاستشارة أردف به حديثا آخر (وروى أنهم لما أخذوا الفداء نزلت الآية فَ دخل عمر على رسول الله -ص- فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال: يا رسول الله أخبرنى:

---

(٣٧) (التسهيل لعلوم التنزيل) لِ محمد بن جَزِىّ الكلبىّ- الجزء الثانى - ص ٦٨.

(٣٨) (التفسير الكبير) لِ الفخر الرازى - المجلد السابع- الجزء الرابع عشر ص ص ٥٢٨-٥٣٩.

(٣٩) (ذات المصدر ونفس الصفحة)

(٤٠) (تفسير القرطبى) المجلد الرابع ص- ٢٨٨٦- سابق.

فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تَبَاكَيْت. فقال: أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ولقد عُرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه).(٤١)

ويفسر لنا النيسابورى نجاة عمر لو أنزل العذاب (لقوله كان الإثخان فى القتل أحب إلىّ)(٤٢)

وذكر الواقدى (وقبل رسول الله -ص- منهم الفداء وقال رسول الله -ص- لو نزل عذاب يوم بدر ما نجا منه إلا عمر، كان يقول اقتل ولا تأخذ الفداء).(٤٣)

وهكذنا وثّقنا أن عمر بن الخطاب توافق مع الذكر الحكيم فى عدد من الآيات ذهب البعض إنها ثلاث وأوصلها آخرون إلى خمس وفى هذا يقول السيوطى:

(عمر بن الخطاب نزل فيه آيات منها موافقاته الشهيرة) (٤٤) وذكر الأزهرى (أفردها بعضهم بِ التأليف).(٤٥)



هناك أصحاب آخرون لهم مقترحاتهم أو موافقاتهم لِ آيات الذكر الحكيم بيد أنها أخفض شأنا مما قدمه العدوىّ ابن الخطاب.

(أ) أبو طلحة

(عن أنس بن مالك قال: كنت مع رسول الله -ص- إذ مرّ من حجرة فرأى فيها قوما جُلوسا يتحدثون ثم عاد فدخل الحجرة وأرخى السِتر دونى، فجئت أبا طلحة فذكرت ذلك له فقال: لئن كان ما تقول حقا ليُنزلن الله فيه قرآنا فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى) الآية الثالثة والخمسون من سورة الأحزاب).(٤٦)

راوى الحديث هو أنس اللَسِيْق بِ (المصون) لأنه خادمه. وأورده

(٤١) (غرائب القرآن) لِ القمىّ النيسابورى - المجلد -ص ٣٧٧-.

(٤٢) ذات المصدر والصفحة.

(٤٣) (المغازى) لِ الواقدى تحقيق مارسدن جونز- الأول ص ١١٠- مصدر سابق.

(٤٤) (التحبير فى علم التفسير) لِ السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ - تحقيق وتقديم د. فتحى عبد القادر فريد ص ٤٣٧- الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦ - دار المنار لِ النشر والتوزيع -القاهرة.

(٤٥) (نهاية السول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى - ص ٢٧ - مرجع سبق لنا ذكره.

(٤٦) (أسباب النزول) ص ٣٤٢-مصدر سابق.

السيوطى بـ ألفاظ مقاربة وذكر أن الترمذى أحد أصحاب الصحاح الستّة أخرجه وحسّنه وراويه هو أنس. (٤٧)

من هو أبوطلحة؟

هو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام.. بن مالك بن النجار الأنصارى.. مشهور بكنيته أبو طلحة. من فضلاء الصحابة وزوج أم سُلَيْم، كان يرمى بين يدّى النبى -ص- يوم أحد.. وعن أنس أن النبى -ص- لما حلق شعره بمنَى فرّق شقه الأيمن على أصحابه: الشعرة والشعرتين وأعطى أبا طلحة الشق الأيسر كله..) (٤٨)

يؤكد ابن عبد البر أن أبا طلحة من بنى مالك النجار من ناحيتى أبيه وأمه وأنه شهد بدرا. (٤٩)

وتأكيد نسب أبى طلحة لِ بنى النجار له أهمية إذ إنهم أخوال (المُسدّد) لِ أن جده المباشر عبد المطلب (شيبة الحمد) أمه سلمى بنت زيد بن عمرو.. بن النجار رآها أبوه هاشم فى يثرب وهو فى طريقه إلى الشام فأعجبته فَ خطبها لِ أبيها فَ أنكحه أياها. (٥٠)

وبذا فإن طلحة بـ الإضافة إلى الأوسمة المشرّفة التى زينّت صدره فَ هو يمت إلى (النَجيْد) بـ صلة قربى حميمة. أما زوجته أم سُليم أيضا فهى نجارية خزرَجيّة وتخرج فى الغزوات معه ومنها وقعة أُحُد وهى التى قدّمت له أنَسًا (من زوج سابق على أبى طلحة اسمه مالك) كيما يخدمه وطلبت منه أن يدعو له ففعل، ولها أحاديث رويت عنها وهى من عقلاء النساء. (٥١)

وهكذا وَثّقنا أن أبا طلحة لَزيق بـ (المصُون) ومُلْتَبِك به بـ قوة ومن ثمّ عندما حكى له ربيبه أنس الواَقعة حَدَس بزوغ آية كريمة ولقد صدق توقعه. وموجز الواقعة أنه فى ليلة دخل (صاحب البيان) على زينب بنت جحش التى (وصفتها الرواية بـ أنها كانت بيضاء سمينة من أتم نساء قريش) (٥٢)

---

(٤٧) (لباب النقول) لِ السيوطى ص ١٤٢ – مصدر سابق.

(٤٨) (الإصابة فى تمييز الصحاب) لِ بن حَجَر العسقلانى- المجلد الثالث – ص ٣٠ – مصدر سابق.

(٤٩) (الاستيعاب فى معرفة الأصحاب) لِ ابن عبد البر النمرى – المجلد الثانى – ص ٦٤١ – مصدر سابق.

(٥٠) (تاريخ الرسل والملوك- تاريخ الطبرى) لِ ابن جرير الطبرى- الجزء الثانى – ص ٢٤٧- مصدر سابق.

(٥١) (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) المجلد السابع- كتاب النساء ص ص ٣٤٥- ٣٤٦.

(٥٢) (نساء النبى) لِ بنت الشاطىء – ص ١٣٢.

(دعا القوم فَ طَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نَفَر، فَ جاء النبى ليدخل فإذا القوم جُلوس ثم إنهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبى - ص- أنهم انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت لأدخل فألقى الحِجاب بينى وبينه فأنزل الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى). (٥٣)

وأضاف أن أم سُلَيْم بعثت مع ابنها أنس هدية مساهمة فى وليمة العرس هى: حَيْس فى تَوْرَّة من حجارة مما يؤكد الصلة الحميمة . (٥٤)

والواقعة تدل على جلافة وجفاوة وبداوة أولئك العُربان ولو أن لديهم ذرة من حضارة أو مُسْكة من مدنية أو فُتيتة من رقى لما سلكوا ذاك المسلك البعيد عن الذوق بعد السماء عن الأرض.

وهى (= الواقعة) تتفحنا مؤشرا ذا دلالة غائرة عما عاناه (اللبيب) من أولئك الأعاريب من رذالات وسخافات ودناءات صبر عليها صبرا فاق صبر أيوب.

أبو طلحة لِ طول صحبته وقوة الالتصاق به ول متانة الآصَرة به دلّته فَرَاسَته على ضرورة بزوغ آية كريمة تردع - مستقبلا- أولئك العرية المُتبدِّين لئلا يعودوا لِ مثله أبدا. وبذا أثبت أنه فارس (= يتمتع بِ فَرَاسة كبيرة) من الطراز الأول .(٥٥)



(ب) أبو أيوب الأنصارى

(عن أفلح مولى أبى أيوب قالت أم أيوب لأبى أيوب : ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب، أفكنتِ يا أم أيوب فاعلة ذلك؟ فقالت لا والله. قال: فعائشة خير منك.

فلما نزل القرآن وذكر أهل الإفك قال الله تعالى: «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا، وقالوا هذا إفك مبين» الآية الثانية

---

(٥٣) (السمط الثمين) لِ المحب الطبرى-ص ١٨١- مصدر سابق و(أسباب النزول) لَ الواحدى ٢٤١- سابق.

(٥٤) والحَيْس : تمر وأَقط وسمن تُخلط وتُعجن وتُسوّى كَ الثَّرِيْد- المعجم الوجيز. -اما التَّوْر: قال الأزهرى: إناء معروف تذكره العرب - المصباح المنير) ا.هـ.

(٥٥) تقول العوام فى مصر فِرِّيس.

عشرة من سورة النور. يعنى أبا أيوب حين قال لِ أم أيوب) (٥٦)

إن تعليق الواقدىّ الوارد فى عُجُز الخبر بِ قوله (يعنى أبا أيوب حين قال لِ أم أيوب) فى غُنية عن الشرح والتوضيح.

(عن بعض رجال بنى النجار أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته آم أيوب:

يا أبا أيوب ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟

قال بلى وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال فعائشة خيرمنك، ثم قال الله تعالى (ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) أى فقالوا كما قال أبو أيوب وصاحبته).(٥٧)

وفى هامش ص ١٢١: أى قالوا يعنى أبو وأم أيوب خيرا فى حق عائشة.

ومن مصنفات أسباب النزول اخترنا مانفحنا به الواحدىّ النيسابورىّ فى هذه الواقعة وما جاء على لسان أبى أيوب:

(سمعت عطاء الخراسانى عن الزهرى عن عروة أن عائشة - رض- حدثته ب حديث الإفك وقالت فيه وكان أبو أيوب الأنصارى حين أخبرته امرأته وقالت:

يا أبا أيوب ألم تسمع بما حدّث الناس؟ قال: وما يتحدثون؟ فأخبرته بقول أهل الإفك، فقال ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. فأنزل الله عزل وجل:

(ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) (٥٨)

ومن هذا النص البالغ الثمانة يسفر (ينكشف) أن الآية العظيمة حملت ذات الكلمات التى خرجت من بين شفتىّ أبى أيوب اليثربى:

(ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم)

وهو (أبو أيوب) يُشاكِل ما حدث من العدوىّ ابن الخطاب ولو أن هذا الأخير فاقه فى العدد.

---

(٥٦) (المغازى) لِ الواقدىّ- المجلد الثانى - ص ٤٣٤- مصدر سابق.

(٥٧) (السيرة النبوية) لِ ابن إسحق - المجلد الثانى - ص ص ١٢٠-١٢١ - طبعة أخبار اليوم- مصدر سابق.

(٥٨) (أسباب النزول) لِ الواحدى - ص ٢١٨.

❖ ❖ ❖

اتباعا لخطوات المنهج الذى التزمنا به نختم بِ مدونات التفسير زيادة فى التوثيق:

فى تفسيره لِ الآية الثانية عشرة من سورة النور أورد النيسابورى ما يلى:

(روى أن أبا أيوب الأنصارى قال لأم أيوب: أما ترين مايقال؟ فقالت : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله سوءا؟

قال: لا ، قالت ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله -ص- فعائشة خير منى وصفوان خير منك)(٥٩).

وعسى ما قدمناه فيه مقنع بِ أن الآية العظيمة المذكورة طابقت فى معناها لا فى لفظها أو فى أُسّها لاَ فى رَصْنفها أو فى لُبّها لا فى قشرها ما ذهب إليه أبو وأم أيوب.



حزمة ضوء على الثنائى الأيوبى:

نحن لا نساير أم أيوب فيما ذهبت إليه أن صفوان خير من أبى أيوب، فَ إما أن ما قالته نَزّ تحت وهج الحماس الذى هيمن عليها وهى تتكلم فى الموضوع وإما أن بينها وبين أبى أيوب شيئا مثلما بين الأزواج جميعها فانتهزتها فرصة ونفّست عن مكنون صدرها وهى تعلم أنه لن يجرؤ على معارضتها أو يفتح فاه بِ كلمة لِ حساسية المسألة.

فَ أبو أيوب هو خالد بن زيد.. بن مالك بن النجار، وسبق أن أوضحنا صلة بنى النجار الوشيجة بِ (المستقيم)، وهو قد شهد بيعة العقبة وبدرا (الكبرى)، ولما هاجر (المعصوم) من بَكّة إلى أثرب شرفّه بِ النزول ضيفا عليه وأقام عنده حتى بنى بيوته ومسجده وآخى بينه وبين مُصعب بن عمير (الذى هو من ذؤابة قريش فهو من بنى عبدَ الدار حملة راية سخينة فى الغارات والغزوات وأرسله (الخاتم) كيما يُعلّم بنى قَيْلة قواعد الديانة ويحفظهم القرآن ومن ثم فَ هو يعد: مُقدم النَزَحَة ولذا فإن مؤاخاة أبى

(٥٩) (غرائب القرآن) لِ القمىّ النيسابورى- المجلد الثامن- ص ٢٦٢- مصدر سابق.

آيوب معه دليل قاطع على علو رتبته (= رتبة أبى أيوب) ا.ه). ولم يتخلف عن غزاة. وبعد وفاة (الحبيب/ المصطفى) شهد مع الإمام على كرم الله وجهه وقدّس سره ونوّر ضريحه قتال الخوارج ثم لزم الجهاد (أى الاشتراك فى معارك الغزو النهبوى الاستيطانى الاستنزافى الذى احتل به أولئك الأعاريب أراضى بلاد الجوار ذوات الحضارات الباذخة ا.ه) ومات إبّان قتال الروم سنة اثنتين وخمسين عند محاولة خائبة لفتح القسطنطينية ودُفِن هناك، فضلا عن روايته للأحاديث المحمدية. (٦٠)

إذن هو صحابى من الوزن الثقيل إذ له صلة نسب حميمة ومن ذوى السابقة فى اعتناق الديانة ورفع رأسه عاليا (الظَفُور) عندما نَزَح إلى القرية ذات الحَرّتين بـ النزول فى داره ثم حارب جنبا لـ جنب معه فى غزواته وشارك فى السرايا، أى أنه على آصرة شديد الأَسْر به وقديمة العهد معا، ومن ثم فـَ من الطبيعى أن تتوافق الآية الحميدة المذكورة مع رأيه أومذهبه أو منحاه فى فتنة أوشكت أن تصيب البيت المحمدى بقدر غير قليل من الصَّلْق.(٦١)



آما أم أيوب

فـَ هى أنصارية خزرجية، ساهمت فى خدمة (المنصور بـ الرعب مسيرة شهر) عند نزوله فى بيتهم ولها رواية (في الأحاديث المحمدية) (٦٢)

إذن هى ذات صحبة مستطيلة وخِلْطَة وتمَارسٌ فضلا عن شهادتها الرائعة فى حق التيميّة بنت ابن أبى قحافة، وجماعها مؤهلات تمنحها وزوجها شرف اتفاق الآية العظيمة المذكورة فيما ذهبا إليه لـ أول وَهْلة أن أُحْدُوثة الإفك مُختلقة من أساسها سُداها الكذب ولُحمتها التلفيق والافتراء وأنه فرض عين على كل مؤمن ومؤمنة من الأتباع أن يظن بنفسه خيرا وبـ التالى يوقن بـ براءة التيميّة عائشة.

---

(٦٠) (الإصابة) لِ ابن حَجَر العسقلانى – الثانى ص ٣٥١.

(٦١) (صلْق الشمس= حرها – القاموس المحيط– لِ الفيروزى آبادى) ا.ه

(٦٢) (أسد الغابة) لِ ابن الأثير – كتاب النساء – ص ٣٠٤ – سابق.

و (الاستيعاب) لِ ابن عبد البر– المجلد السابع– ص ٧٦٣– مصدر سابق.

❖ ❖ ❖

تلك أمثلة على بزوغ آيات كريمة من القرآن الحكيم إما موافقة لِ جُمَل تكلم بها أحدهم أو اقتراحات طرحوها أو توقعوها لِ ظروف أو أحوال تستنفر هلّها، وقد تجيء مرّة بِ اللفظ أو أخرى بِ المعنى. وهكذا يثبت (= القرآن) أنه وثيق الصلة بِ المخاطبين به وأن بَاصِرَته لا تتحول عنهم بل هى دائمة اللحظان لهم. وهى ميزة بالغة الروعة انفرد بهاعن كتابىّ موسى وعيسى، ومنحته فيضا لا ينضب من الاستمرارية والفتّاء والتجدد.

الفصل الرابع

الإيضاح والاستدراك والاستثناء

هذا الفصل يؤكد ما سبق أن زَبَرناه (= رقمْناه وكتبناه) أن الذكر الحكيم في سوره العظيمة وآياته الكريمة - باستثناء التي تناولت أُحْدُوثة الخلق وحكاية آدم وحواء والشيطان وحكايا البطاركة الأماثل والتي لها أصول في الكتاب المقدس (لدى اليهود والنصارى/ المسيحيين) اتصلت بِ وشائج متينة سواء بِ (المُبلّغ) الذي قرأها على المخاطبين بها أم أنفسهم.

{١}

هذا ضرب من الآيات لا يعالج مشكلات حَازِبَة ولا يفكّ معضلات معقدة ولا يلبي طلبات عاجلة ولكنه يوضح ويبيّن ويشرح حينا ويستثني حينا آخر.

وفي المرة الثالثة يستدرك- بداهة- ما فات جمهرة الذين توجهت إليهم الآيات استيعابه أو الإحاطة به أو فهمه على الوجه الصحيح، ولا نقول الأمثل، لأن أولئك البدو العريان لا تمكنهم أحوالهم الذهنية والمعرفية والإدراكية من النَقّه والفهم الأمثل، فَ هم بِ شهادة القرآن المجيد أكثرهم لا يعقلون وعندما ينفي عن غالبيتهم العقل فَ هذا ينسحب على المجموع لأن القلة التي قد تعقل هي استثناء ومعلوم أنه (أي الاستثناء) لا يغيّر من الحكم.

الخلاصة: إننا عندما نسطّر أن عددا من الآيات الكريمة جاءت على سبيل الاستدراك نعني أن عُمالتها (بضم العين أي وظيفتها) هي أن يستدرك المخاطَبون (بفتح الطاء) ما فاتهم من مدلول أمّت (=قصدت)

إليه الآية بيد أنه غاب عن فطانتهم - لو احتازو أو تملكوا فطانة - إذ لو احتازوها أو تملكوها لما أحوجوا (مأدبة الله) لأن يبعث إليهم ب آية أو آيات مُصلّية (=تالية- لاحقة) تعينهم على الوعى ب حقيقة المطلوب منهم.

فَ على سبيل المثال عندما هلّت الآية السابعة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) أخذها بعض صحبه بحرفيّتها وأحضر خيطين أحدهما أبيض والآخر أسود وظل يأكل ويشرب ويعافس زوجته، حتى يتبين له الأبيض من الأسود وبداهة لا يتحقق ذلك إلا إذا أسفر الصباح، فذهب أحدهم إلى (المُحلل) يسأله: فَ هَاله هذا الغباء المُطبق وقال له= إنك لَ عريض القفا.(١)

(عن عدىّ بن حاتم قال: لما نزلت (كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) عَمَدْتُ إلى عِقالين أبيض وأسود فَ جعلتهما تحت وسادتى وجعلت أنظر إليهما من الليل ولا يستبين لى فإذا تبين لى الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت، غدوت إلى رسول الله فأخبرته فضحك وقال: إنك لَ عريض القفا، إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل) وكنّى رسول الله -ص- بذلك عن بلاهة عدىّ وقلة فطنته).(٢)

أى لم ينقه مدلول الآية الكريمة وهو طلوع الفجر، ولكن الأسئلة تكررت أى لم تقتصر على فرد.

إزاء ذلك غدا من الحتم أن تنبثق آية توضح المقصود من (الخيط الأبيض من الخيط الأسود) فَ لمعت لكَ اللؤلؤة وأضاءت لكَ الفجر جملة إيضاحية (من الفجر):

روى البخارى عن سهل بن سعيد قال: أُنزلت (كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) ولم يُنزل (من الفجر) من الآية ١٨٧ من سورة البقرة، فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له

---

(١) (الكتبة المحدثون - دعك من الوعاظ وخطباء المساجد -عندما يتحدث (= يكتب) أحدهم عن أى صحابى حتى ولوكان مثل بُسر بن أرطأة يقول الصحابى الجليل سيدنا فلان بن فلان رضى الله عنه.

(٢) (غرائب القرآن) لَ القمىّ النيسابورىّ- المجلد الثانى - ص ٢٨٠ - مصدر سابق.

رؤيتهما فأنزل الله بعد (من الفجر) فعلموا أنما يعنى الليل والنهار). (٣)

وأورده الواحدىّ فى (الأسباب) وأضاف أن البخارى رواه عن ابن أبى مريم ومسلم عن محمد بن سهل عن أبى مريم. (٤)

أى أن الحديث خرّجه كل من البخارى ومسلم وهما قمة الصحاح الستّة، وزَبَرَه الأزهرى فى مقبوله بنصه عن البخارى ومسلم ووصفه بـ الصحة (صحيح) وأضاف أن النسائى أخرجه فى الكبرى والبيهقى فى السُنن وأبو يَعْلَى فى مسنده والطبرى فى تفسيره والطحاوى فى شرح معانى الآثار. (٥)

ثم نتوجه إلى كتب التفسير، وعلى سبيل المثال:

(وفى الصحيحين أيضا عن سهل بن سعد : نزلت (يعنى آية ١٨٧- البقرة) ولم ينزل (من الفجر) فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله عزّ وجل (من الفجر) فعلموا أنه يعنى الليل والنهار)(٦)

وهكذا تأكدت صحة الحديث لِ علو المصادر التى وضعته أمامنا وهو غنى بـ المعطيات منها:

أ- الآية المذكورة صَفِرَت صُفُورا تاما من كلمتى (من الفجر) عند انبثاقها أول مرة.

ب- دلّت الزيادة والعلة التى استنفرتها على المستوى الحضارى الخفيض لأول من خوطب بِ القرآن العظيم.

ولو أن الذين تلقوه على درجة ولو معقولة من الوعى لما استدعى الأمر إهلال آية جديدة توضح وتبيّن وتُسْفِر عن المقصود.

ج- عدّى بن حاتم الطائى أحد الذين فعلوا ذياك العمل الساذج لا يمكن بحال عدّه من غمار الناس وعامة الأعاريب فأبوه حاتم الطائى أشهر كرماء العربان وضُرب بجوده المثل وله شعر جيد وقبيلته طيئ من القبائل المشهورة وقد اعتنقت النصرانية وهذا العدّى من المقدّمين فيهم

---

(٣) (لباب النقول) لِ السيوطى - ص ص ٢٣-٢٤- مصدر سابق.

(٤) (أسباب النزول) لِ الواحدىّ ص ٣٢- مصدر سابق.

(٥) (المقبول) لِ الشيخ أبى عمر نادى الأزهرى ص ٩٦ - مرجع سابق.

(٦) (غرائب القرآن) لِ القمىّ النيسابورىّ ص ٢٨٠-مرجع سابق.

ومع ذلك وصفه (المتبتل) بـ البله وقلة الفِطْنة.

د- هذه الواقعة وأضرابها تَزِيدنا سندا جديدا يقوى ما أكدناه أن النصوص المقدسة انبثقت من أحشاء مجتمع بالغ الركود والتأخر وتفتحت أكاميمها فى بيئة شديدة التخلف والتدنى.



{٢}

إفشاء الديانة التى بشّر بها محمد وإرساء دولة بنى سخينة نعنى قريشاً، جماعه استدعى بـ طريق الحتم واللزوم عَسْكَرة مجتمع يثرب.

وهنا يتساءل أحد قرائنا: ما برهانك عليه؟

بـ حسبة بسيطة سوف يظهر أنه إبّان المدة التى عاشها (جد الحسنين) بين جنباتها خرجت كل شهر ونصف شهر وربما أقل غزوة أو سرية أو بعث خاص من (معانيه إرسال فرد أو نفر لاغتيال شخصية مُؤثّرة من الأعداء أو هدم صنم أو كعبة)، ومن ثم فَـ إن القتال أطلق عليه الجهاد وهو اسم متضلع من النكهة التيولوجية وشكّل معلما بارزا فى حياة ذلك المجتمع.

وقد مُنح جزاءً مُغْريا من يُقتل فى سبيل نشر العقيدة وتشييد مبنى الدولة وهو الخلود فى الجنة التى تفيض بأنهار الخمر واللبن والعسل المصفى والحور العين وأنواع اللحوم وأصناف الفواكه.. إلخ.

وهى مكافآت سخية تَخْلِب لُبّ البدوى الذى يعيش فى صحراء جرداء قرعاء قاحلة جَدِيبة شحيحة محرومة من جماعها ويتحلّب لها ريقه ويحلم بها يقظة ومناما.

إذن شدّد (القول الفصل/ القرآن) على ضرورة الخروج للقتال (الجهاد) ووعد من يفعلون بما ذكرنا وتوّعد من تقاعس عنه بضروب الوعيد.

وتعددت الآيات المتعلقة به (بـ القتال) أو التى تدور فى فلكه وتَمْرُج فى مرعاه وتجرى فى مضماره. ومن البديهى أن المُقْعَدِيْن والعُمى والزَمْنَى (=المرضى بـ أمراض مُزمنة) لا يشملهم النَفْر إلى القتال، وهذا أمر متعارف عليه لدى كل الشعوب على طول التاريخ. ولكن العُريان المُتبدّين

والذين حظوا بِ سماع (الحبل المتين/ القرآن) يُتلى عليهم لِ أول مرّة لم يدركوا هذه البديهة ربما خوفا من أن يطولهم الجزاء الرادع المرصود للناكلين أو المتقاعسين عن القتال (= الجهاد) أو طمعا فى ألا تفوتهم المتع الحسية الفائقة اللذة التى مُنى بها المُسرعون إليه.



هذا ماحدث فَ عندما تنبثق آية مضيئة كَ القمر فيها أمر بِ القتال يتردد أصحاب الأعذار بين الخوف والرجاء أو الرهبة والرغبة فَ يَزْقُلون أو أحدهم إلى (كنديدة وهو اسم محمد فى الزبور) يستوثقون منه على استثنائهم من القتال ولا ينصرفون حتى تهلّ آية أخرى أو استدراك يوثّق إعفاءهم من حمل عبء الجهاد أو القتال تقديرا لِ ظروفهم:

(أخرج الطبرانى عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله -ص- وإنى لواضع القلم على أذنى إذ أُمر بالقتال، إذ جاء أعمى فقال كيف بى وأنا ذاهب البصر ؟ فنزلت (ليس على الأعمى حرج) سورة الفتح آية ١٧ (٧).

تلألأت الآية ١٦ من سورة الفتح تحض المُخَلّفين من الأعراب على قتال قوم أولى بأس شديد حتى يسلموا (٨). وإن أطاعوا وقاتلوا فَ لهم الأجر الحسن الذى زَبَرناه قبلا أما إن خَنَسوا كَ عادتهم أو مثلما فعلوا فيما سبق فَ سوف يلحق بهم العذاب الوجيع.

وقد أورده المصنف ذاته فى (المقبول) بنفس الرواية عند الطبرانى ووصفه بِ صحة الإسناد. (٩)

ورغم وضوح الأمر وأن الآية مشرقة كالشمس فى رابعة النهار وأن التكليف الذى تضمنته بِ قتال مشركى العرب كيما يدخلوا الديانة الإسلامية موجهان إلى القادرين على السلاح واستعماله، فقد ذهب ضرير إلى (سيد الكونين) يسأله كيف يقاتل وهو محروم من نعمة البصر؟

---

(٧) (نهاية السول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى -ص- سابق.

(٨) سبق أن سطرنا أن الإسلام انتشر داخل جزيرة العرب بِ حَدّ وحَرّ السيف وسندنا حديث محمدى شريف خرّجه مسلم فى صحيحه علاوة على آية السيف أو القتال ا.هـ.

(٩) (المقبول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى ص ٦٠٠ - سابق.

وفى ميسور (مُقدم ولد آدم) أن يرّد عليه أن الخطاب غير موجه لك ولا لأمثالك ومن ثم لا معنى لِ استيضاحك.. بيد أنه هو مضرب الأمثال فى الاحتمال وسعة الصدر والأخلاق الرفيعة، فقد صبر حتى أشرقت الآية السابعة عشرة (= من ذات السورة) رسخّت قاعدة رفع الحرج عن العُميان والمرضى، وبالتالى عن جميع أصحاب الأعذار، وأكدّت لهم أن كل ما عليهم ينحصر فى طاعة الله و (المستقيم) فيماعداه (= القتال/ الجهاد).

فإن وُفّوا بها فَ لهم جنات (بِ الجمع) يتمتعون فيها بِ ذات اللذائذ المرصودة للمقاتلين (المجاهدين).



والاستدراك يتكرر:

أخرج البخارى فى صحيحه عن زيد بن ثابت أن رسول الله -ص- أملى عليه (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) النساء ٩٥ . فَ جاء ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لَ جاهدت ولكنى أعمى، فأنزل الله (غير أولى الضرر) النساء ٩٥.(١٠)

بطل هذه الواقعة هو عبد الله بن أم مكتوم قديم الإسلام وبسببه أقبلت كَ النجم الثاقب أوائل سورة عَبَس وعند خروج (الصيّن) فى إحدى الغزوات ولاّه على أثرب وربما تعدد أى حدث أكثر من مرة ومنه استخرج بعض الفقهاء جواز تولية الأعمى مقاليد الحكم.

إذن الآية الخامسة والتسعون من سورة النساء فى بَدّى الأمر بزغت كالفجر الصادق وهى مليطة من استثناء أصحاب الضرر فَ لما أبدى ابن أم مكتوم عذره أضيف إليها الاستثناء ولم يعد للعُميان والمرضى والزَمْنَى .. إلخ، حرج فى الخَنَس عن المساهمة فى الغزوات والسرايا، ولقد تأيد هذا الحديث من مصادر أخرى:

روى البخارى عن البراء قال: لما نزلت (لا يستوى القاعدون من المؤمنين قال النبى -ص-:

(١٠) (نهاية السول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى - ص ٧٣ - مرجع سابق.

ادْعُ فلانا فَ جاء ومعه الدواة واللوح والكتف فقال اكتب: (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) وخَلْف النبى -ص- ابن أم مكتوم فقال: يا رسول الله ، أنا ضرير، فنزلت مكانها (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر).

وروى الترمذى نحوه من حديث ابن عباس وفيه قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم: إنا أعميان.

وعند ابن جرير من طرق كثيرة مرسلة نحو ذلك.(١١)

هنا نَلْفَى السيوطى يذكر أن الحديث خرّجه البخارى والترمذى وابن جرير أى الطبرى.

آما الواحدىّ النيسابورىّ فَ قد صوّر لنا كيفية إضافة (غير أولى الضرر) الآية.

لِ (عن زيد بن ثابت قال: كنت عند النبى -ص- حين نزلت عليه (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) ولم يذكر أولى الضرر فقال ابن أم مكتوم:

كيف وأنا أعمى لا أبصر؟

قال زيد: فَتَغَشّى النبى -ص- فى مجلسه الوحى فَ اتكأ على فخذى فوالذى نفسى بيده لقد ثقل على فخذى فخشيت أن يرضّها ثم سُرّى عليه فقال:

اكتب «لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر» فكتبتها - رواه البخارى عن .... الزهرى (١٢)



من هذا الحديث ننقه إن الإضافة الاستدراكية هلّت على الفور لأعلى التراخى، فَ بعد أن قدّم عبد الله بن أم مكتوم ما يفيد عدم استيعابه لما جاء فى الآية إذ إنها من الطبيعى لا تقصد من كلمة (القاعدين) أصحاب العاهات الذين تكبّلهم عن الانخراط فى صف العسكر المقاتلين. إنما تنسحب على من يتراخى وهو صحيح البدن والحواس، بعدها مباشرة

(١١) (لباب النقول) لِ السيوطى -ص- ٦٠- مصدر سابق.
(١٢) (أسباب النزول) لِ الواحدىّ ص ص ١١٧/١١٨ - مصدر سابق.

بَزَغَت كالقمر المضىء جملة (غير أولى الضرر) وقبل أن يغادر ابن أم مكتوم المجلس أصبحت جزءا عُضويا من الآية الكريمة.



ننتقل بعدها إلى ما ورد بشأن هذا الحديث فى كتب التفسير لِ نزيده متانة ووثوقا:

(لما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم الأعمى فقال: يا رسول الله هل من رخصة فإنى ضرير من البصر فَ نزل «غير أولى الضرر». (١٣)

مئات الأعوام تفصل ما بين ابن جزىّ الكلبى والألوسى بيد أن المصادر واحدة أو هى متقاربة، عند تفسيره لِ هذه الآية المجيدة أورد لنا الألوسى الحديث محفوفا بخبر أو وقائع نفحتنا بِ معطيات على قدر من الأهمية.

(روى مالك عن الزهرى عن خارجة بن زيد قال: قال زيد بن ثابت: كنت أكتب بين يدى النبى -ص- فى كتف «لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون» وابن أم مكتوم عند النبى -ص- فقال: يا رسول الله قد أنزل الله تعالى فى فضل الجهاد ما أنزل وأنا رجل ضرير فهل لى من رخصة؟ فقال النبى -ص-:

لا أدرى، قال زيد وقلمى رَطْب ما جَفّ حتى غَشى النبى -ص- ووقع فخذه على فخذى حتى كادت تُدّق من ثقل الوحى ثم جَلَى عنه، فقال لى اكتب يا زيد «غير أولى الضرر» (١٤)

وقال محققه إن البخارى أورده فى صحيحه فى تفسير سورة النساء.

هنا نجد أن الآية تهادت أو بعضها خاليا من (غير أولى الضرر) ولولا اعتراض عبد الله بن أم مكتوم لَ ظلّت هكذا بيد أنه غبّ ما شرح لِ (الأعظم) ضُرّه ولو أنه ليس فى حَوْجة إلى إبانة، وسأله أثمة رخصة له وبداهة لِ أضرابه، أجابه أنه لا يدرى. ونكاد نرجّح أن هذا الخبر انفرد بِ هذه الإجابة المُعجبة لأن عدم دراية (اللبيب) مُشْكل من كل الوجوه..

وبعد قليل أتى الشطر أو الجزء أو البعض الاستدراكى يسعى مسرعا،

---

(١٣) (كتاب التسهيل لِ علوم التنزيل) لِ ابن جزىّ الكلبىّ- الأول- ص ١٥٤- مصدر سابق.

(١٤) (تفسير الألوسى) تحقيق محمود الشرقاوى - الجزء الخامس ص ١٩٨- ١٤١٦هـ ١٩٩٦م - كتاب الشعب الدينى - مؤسسة دار الشعب بِ مصر.

إذ قال لزيد بن ثابت أحد كتبة الوحى اكتب (غير أولى الضرر) وغدا استثناء هؤلاء من القتال أو الجهاد أو الحرب ميثاقا غليظا بينهم وبين (المجيد/ الزبور=القرآن) وانحسرت عنهم صفة أو صبغة العَسْكرة التى شملت مجتمعهم المبرور.

ويلفت الانتباه أن ابن أم مكتوم رغم فقد بصره بيد أنه تمتع ببصيرة فى هذه الخصوصية بِ الذات وهى أن الذكر الحكيم أبرز فضل الجهاد وهو بداهة يعنى المكافآت المُسيلة لِ اللُعاب المرصودة فى الدار الآخِرة لِ العسكر الذين يُقتلون فى سبيل نشر الديانة وتأسيس الدولة وبِ مفهوم المخالفة أنه سوف يُحرم منها هو وأنداده بسبب ما بهم من أضرار وعاهات وهذا يتمثل فى قوله (يا رسول الله قد أنزل الله تعالى فى فضل الجهاد ما أنزل) ولعل هذا هو الباعث الذى وزّه على طرح هذه الملاحظة.

ولو أننا لا نسقط من حسابنا التدنى المعرفى والثقافى الذى جعلهم لا يعون أن استحالة عسكرة ذوى الأعذار ترقى لِ رتبة البديهيات ومن ثم فَ لا ضرورة للنص عليها.



إن صيغة الخبر كما أوردها مفسر حديث أو معاصر تحمل دليل ثبوت على انخفاض المستوى الحضارى لأولئك البدو العُريان ولو أنها جاءت فى أحد أطرافه لا فى صلبه.

(وعن البراء- رض - قال: لما نزلت (لا يستوى القاعدون من المؤمنين) قال النبى -ص- ادع فلانا فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف فقال اكتب (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) وخَلْف النبى -ص- ابن أم مكتوم، فقال، يا رسول الله أنا ضرير، فنزلت مكانها (لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله) (١٥)

فمنه (= الخبر) نستخلص أنهم دأبوا على الكتابة على أكتاف البعير

---

(١٥) (فى رحاب التفسير) لِ عبد الحميد كشك- الجزء الخامس- ص ٩٩٣- الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ- المكتب المصرى الحديث - القاهرة.

وما شابهها من أدوات ساذجة والزمن قبيل منتصف القرن السابع الميلادى فى حين أن قدماء المصريين ابتدعوا الكتابة وعلّموها سائر الأمم ولو أن بعض علماء الحضارات يمارى فى هذه الحقيقة التاريخية، إنما الذى لا مشاحة فيه أنهم على الأقل منذ ثلاثة آلاف عام سابقة على القرن السابع الميلادى توصلوا بِ عبقريتهم الخلّاقة إلى صنع أوراق البردى وسجلوا عليها تاريخهم وكافة أحوالهم، وما زالت هذه الأوراق، رغم مضى هذا المدى السحيق، محتفظة بِ مادتها وقوامها وماسُطّر عليها.

أليس من مخاريق التاريخ أن أولئك الأعاريب الرُحّل-الذين شَفَّ استعمالهم لِ أكتافِ البعير وضروبها كصحائف لِ الكتابة عليها، عن ما هم عليه من بداوة وبدائية وبعد عن المدنية والعلم- أن يحتلون أرض الكنانة التى علمت الدنيا الحضارة والضمير وأن يفرضوا على مواطنيها لغتهم وثقافتهم وتراثهم وعاداتهم وتقاليدهم! ويتحول المصريون قادة العالم إلى أتباع لِ أولئك الأعاريب العراة من كل ما يمت إلى الثقافة والعلوم بِ أوهى صلة؟

إن هذا الأمر المحيّر المُلغز يحتاج إلى دراسة معمقة.

ثم نعود أدراجنا إلى سياقة البحث:

{٢}

فى الفقرة السابقة ثبت أن الاستدراك هلّ بِ طلعته البهية وريحه الذكية بسبب ملاحظة عبيطة، فى حين أن الرد عليها بديهى تلك التى أبداها عبد الله بن أم مكتوم أو من على شاكلته.

أما هذا الاستدراك أو هذه الاستدراكات التى بزغت كالنجوم الوضّاءة والتى نستطيع أن ننسخ أو نرقم أنها حُبلى بِ جنين أو أجنة أساميها المعقولية وكُناها المنطقية بل وفى مقدورنا أن نخطو خطوة أو خطوات قُدُما فَ نسّطر أن إكراهات المجتمع وإلزامات البيئة وضغوط الواقع المعاش هى التى حَزَبت أصحابها ووزّت مُبديها وحثت طارحيها على أن يفعلوا، ومن هذه الزاوية الحياتية تلقاها (العافى = محمد) بصدر رحب ومن رجا آخر: تهادت الإجابات الاستدراكية شافية وافية.

إن انتظار المطلقة مدة من الزمن حتى تنكح زوجا جديدا أمر ضرورى للتأكد من براءة الرحم مما يحتمل أن يَعْلَق به من الزوج السابق. وهو أمرعرفه العُربان السابقون على ظهور الإسلام واستقروا عليه. ثم جاء الإسلام فَ نَقشه كما استعار الكثير من الأنظمة فى شتى المناحى، فَ أشرقت آية كريمة كما السراج المنير (والمطلقات يتربصن بِ أنفسهن ثلاثة قروء) ٢٢٨ البقرة، (١٦) ثم تشريع عدة المتوفى عنها زوجها. بقيت أنواع أخر من النِسْوَن مثل: المسنات اللاتى غيبهن الحيض، ذوات الأحمال، الصغيرات التى لم يَعْرَكْن (يحضن) (١٧) .

إزاء ذلك تقدم من سمع تلك الآية أو الآيات إلى (المصدوق) يلحفون فى طلب استدراك يبين حالة أولئك اللاتى لم يوضح (الأحسن= القرآن) أحوالهن: (قال مقاتل لما نزلت «والمطلقات يتربصن بِ أنفسهن ثلاثة قروء» قال خلاد بن النعمان بن قيس الأنصارى: يا رسول الله فما عِدة التى لا تحيض وعدّة التى لم تحض وعدة الحبلى؟ فأنزل الله تعالى «واللائى يئسن من المحيض من نسائكم» إلى آخر الآية.

أخبرنا أبو إسحق المقرئ، أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون أخبرنا مكى بن عبد أنه قال: أخبرنا أبو الأزهر أخبرنا أسباط بن محمد عن مطرف عن أبى عثمان عمرو بن سالم قال: لما نزلت عدة النساء من سورة البقرة فى المطلقة والمتوفى عنها زوجها، وقال أبى بن كعب: يا رسول الله إن نساء من أهل المدينة يقلن قد بقى من النساء لم يذكر فيها شىء قال: وما هو؟ قال الصغار والكبّار وذات الحمل فنزلت هذه الآية (واللائى يئسن) إلى آخرها (١٨)

فى هذا الخبر المزدوج نجد أن الذى سأل فى شطره الأول هو خلاّد بن النعمان بن قيس من بنى قيْلة، وفى عجزه من طرح الاستفسار هو أبىّ بن

---

(١٦) اخترع الفرنجة الكفرة الملاعين الذين سيدخلون النار جهازا بواسطته يمكن معرفة خلو الرحم أوعلوقه بِ نطفة وقد نادينا فى إحدى كتاباتنا بأنه لم تعد هناك ضرورة للانتظار ثلاثة أشهر فردّ علينا أحد الإخوة الأزهريين سامحنى الله وإياه أننا ممن يحبون أن تشيع الفاحشة والعياذ بالله تعالى ا.ه.

(١٧) اليس مستغربا فى ذياك المجتمع المدهش أن تنكح طفلة لم تبلغ العاشرة وقد أخبرتنا كتب السيرة المحمدية التى هى أطيب ريحا من نشر القطر أن (صاحب اللواء) وهو فى الخامسة والخمسين أو قريبا منها دخل على التيمية عائشة ولم تبلغ الثامنة .ا.هـ.

(١٨) (أسباب النزول) لِ الواحدى -ص- ٣٩٠ - سابق.

كعب أثربي أيضا إنما لم يتكلم عن نفسه فقط بل يمكن أن نعدّه وافد النِسْوَن إلى (آبى إبراهيم) مما يكشف عن أن طلب الاستدراك جَمْعِيّ لا فرداني.



أخرج ابن شيبة والحاكم وابن جرير وابن أبى حاتم وابن راهويه عن أبى بن كعب (١٩)

قال... ثم أورد الحديث الذى نفحنا به الواحدى وهو المرقوم قبل قليل باختلاف بسيط وهو أن (ناسا من أهل المدينة) بدلا من (نساء من أهل المدينة) التى ذكرها الواحدى وهذه العبارة ترفع الستار عن أن الأمر لم يشغل باب النِسْوَن فَـ حسب بل شمل ذُكران القرية ذات الحرتين وهو يؤكد ما وسمنا به الرغبة بِـ الجماعية.

ولاحظنا أن من أخرج الحديث ثُلّة طيبة من أصحاب كتب الحديث ووصف إسناده بِـ الصحة وهو ذات ما ذهب إليه السيوطى فى (ال لُباب). ثم أهدانا الأزهرى صاحب المقبول رواية أخرى له (٢٠)



بعدها نعرّج على كتب تفسير القرآن الكريم وعلومه الشريفة:

روى أن أناسا قالوا: يا رسول الله قد عرفنا عدة ذوات الأقراء، فما عدة اللائى لم يحضن من الصغار والكبار؟ فنزلت الآية «واللائى يئسن من المحيض من نسائكم..»(٢١)

الزركشى صاحب (البرهان)، وهو من أهم كتب علوم القرآن وقد يضاهيه (الإتقان) لِ السيوطى، أورد الخبر عينه دون إسناد.

بيد أنه فى موضع آخر فى الصفحة يضعه فى حجرنا بِ إسناد:

عن ابن جرير بِ سنده عن عمرو بن ساباط قال: قال أُبىّ بن كعب: يا

(١٩) (المقبول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى ص ٦٧٧.

(٢٠) (ذات الصفحة). ووصفه بأنه صحيح الإسناد.

(٢١) (البرهان فى علوم القرآن) لِ بدر الدين محمد الزركشى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم –الجزء الأول– ص ص ٢٨–٢٩– الطبعة الثانية – ١٣٩١هـ– ١٩٧٢م – نشره عيسى البابى الحلبى – ب مصر.

رسـول الله إن عـدد النسـاء لم تُذكر فى الكتـاب = الصـغـار والكبـار وأولات الأحـمــال، قــال فـَ أنزل الله عـــز وجل «واللائى يئـسـن من المحـيض من نسائكم..» ونقله بان كثير فى التفسير.(٢٢)

إذن حسبما نسخه الزركشى فى برهانه:

حمله تفسير ابن جرير الطبرى وتكلمنا عنه مرارا وسطّره ابن كثير فى تفسيره وهو من أجلّ التفاسير وله مقام محمود عند الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة جعلنا الله منهم وحشرنا فى زمرتهم بِ مَنّه وكرمه.

❖ ❖ ❖

بِ مـقـدورنا أن نكتـفى ب مـا نسـخنـاه عن الزركـشى كَ دليل ظهـيـر (مسـاعد/ مسـاند) للحجج التى نقلناها عن مـؤلفات الأسـبـاب، بيـد أنه نظرا لِ أهميـة الموضوع والمادة فإننا نأتى بِ براهين أخرى لِ زيادة التأكيد وترسيخ التوثيق. أما الأهمية التى أوردناها فَ تتمثل فى شأنين:

أولهما: ما تناوله الاستدراك من مسائل على قدر وفير من الحساسية فهو يعـالج أكثر من حالة من حـالات النِسّوَن (الصغيرة/الكبيرة/ الحامل) أى نسبة كبيرة منهن، وهن يشكّلن نصف المجتمع.

آخرهما: يمس ناحيـة أوْلاهـا أولئك العُريان التفاتا كبيـرا والحق أنها تستحق الاهتمام حتى الآن وهى صحة نسبة الجنين (أنثى أو ذكر) لوالده.

(روى أن مـعـاذ بن جبل قـال: يا رسـول الله قـد عـرفنا التى تحـيض فماعدة التى لم تحض؟ فنزل «واللائى يئسن من المحيض».(٢٣)

هذا الـ مـعـاذ بن جـبل أثربى من بنى قَـيْلة ومن الصـحب المعـروفين، أرسله (الحبيب) إلى اليمن للفتيا والقضاء، والحوار الذى دار بينهما فى هذه الخصوصية يعتبر من أدلة الاجتهاد.

---

(٢٢) هامش ص ٢٨ من كتاب (البرهان فى علوم القرآن) لِ الزركشى- الأول بقلم محققه محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢٣) (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير) لِ الفخر الرازى- المجلد الخامس عشر - ص ٥٧٦- مصدر سابق.

وحتى الآن فإن جميع طلبة الاستدراك هم من مواطنى قرية أثرب.(٢٤)



إن تفسير ابن عباس آمدنا بِ تفصيلات عن ذات الخبر ثحينة الثمانة، غالية القيمة، شديدة النفاسة (.. فلما بيّن الله عدة النساء اللائى لم يحضن قام معاذ (أى ابن جبل) فَ قال: يا رسول الله: ما عدة النساء اللاتى يئسن من المحيض؟ فنزل : «واللائى يئسن من المحيض» أى من الكبر من نسائكم إن ارتبتم أى شككتم فى عدتهن (لعدتهن) فى الطلاق (ثلاثة أشهر) فقام رجل آخر فقال: أرأيت يا رسول الله فى اللائى لم يحضن للصغر ماعدتهن؟ فنزل واللائى لم يحضن من الصغر فَ عدتهن أيضا ثلاثة أشهر.

فقام رجل آخر فقال: أرأيت يا رسول الله ما عدة الحوامل؟ فنزل (وأولات الأحمال) يعنى الحُبالى (أجلهن) يعنى عدتهن (أن يضعن حملهن) يعنى ولدهن).(٢٥)

هذا الخبر (التُحفة) يكشف لنا الغطاء عن عدد الاستدراكات التى لحقت بشأن عدة المطلقة ومن توفى عنها زوجها وعن طريقة بزوغها وكيف أنها تلاحقت الواحدة إثر الأخرى وجماعها فى مجلس واحد. إن هذا الأثر النفيس لم يتناوله -على حد علمنا- واحد من البُحّاث فيما يسمى الوحى وطريقة نزوله. إنه لَ شأن مُدهش بل مُحيّر، إذ كيف تتابع

---

(٢٤) هناك رأى يذهب إلى أن اليهود الذين طردهم قدامى المصريين من المحروسة (مصر) لخبثهم ونجسهم نزح فريق منهم لِ منطقة الحجاز وسموا هذه القريبة أثريب على اسم مدينة مصرية معروفة ثم حُرّفت إلى أثرب كما يحدث عادة. وقد حاول الأعاريب تعليله فقالوا إنه من الثّرب أى وهو إما الملامة والتعبير ب الذنب أو شحم رقيق يغشى الكرش والإمعاء- (المصباح المنير) لِ الفيومى و(المعجم الوجيز) لِ مجمع اللغة العربية وكما يبين هو تعليل خائب بل فاسد لأن أيا من المعنيين لا يصلح اسما لِ قرية.
كما أطلقوا عليها طيبة وهو أيضا اسم مدينة مصرية وهكذا تنتشر أشعة الحضارة المصرية فى كل اتجاه ا.ه.

(٢٥) (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) لِ الفيروزى آبادى صاحب القاموس- ص-ص ٣٥٨-٣٥٩- الطبعة الثانية- ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م - مكتبة مصطفى البابى الحلبى -بِ مصر.
ونحن نعلم أن هناك من يشكك فى نسبة هذا التفسير لِ ابن عباس وحتى لو قيل إنه من تصنيف أبى طاهر محمد بن يعقوب - الفيروز آبادى فَ لا يقدح فى مكانته لأنه من علماء القرن التاسع عشر الهجرى وخاصة فى اللغة و(قاموسه المحيط) يعتبر من أهم القواميس والمعاجم.

الاستدراكات بِ هذه الأيأة (= الهيئة) وفى جلسة واحدة؟

وهنا يرتفع سؤال يتشح بِ غُلالة شفافة تكشف عن لهفة غائرة فى العمق للعلم والمعرفة:

(الإمام / العجب= القرآن) من الحتم اللازم أنه ألمّ بأحوال النِسْون الكبيرات والصغيرات والحُبالى فَ لماذا سكت عن توضيح مقدار أو مدة عِدّتهن كما بين عِدّة المطلقة والأرمل؟

أمن الضرورى أن يتقدم اليثاربة الأعاريب أو غيرهم من أتباع (المِفْضَال) بِ استيضاحات واستبيانات حتى يهلّ الاستدراك ويبزغ الإيضاح ويتهادى البيان؟ الإجابة القاطعة من غير سَوْم ولا مفاصلة ولا مماحكة هى النفى القاطع: لا، لا لزوم لأى منها، بيد أنه (= المرفوع/ المطهر= القرآن) تركها لِ المخاطَبين به يقدرونها حسب ظروف مجتمعاتهم وموجبات تقاليدهم ومقتضيات عاداتهم . بيد أنه لما ألحفوا فى الطلب ولجّوا فى المسألة وألحفوا فى الاستيضاح غدا من الحتم اللازم الإجابة عنها والرد عليها.

ومن الغريب أن (السابق بِ الخيرات) طالما حذر تَبَعَه من كثرة السؤال عليه وأن يذروه (يتركوه) ماتركهم.

(ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم)

(ذرونى ما تركتكم فَ إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم) و (إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يُحرّم على المسلمين فَ حَرّم عليهم من أجل مسألتهم)(٢٦)

بيد أن أولئك البدر العُربان لم يدركوا هذا المنهج المحمدى الرائع فى تربيتهم وتعليمهم.

ومن جانب آخر فَ هم لا يريدون أن يعملوا عقلهم ويُشغّلوا مُخّهم أو يجتهدوا فى استكشاف حلول لِ مُشكلاتهم وابتداع مفاتيح لِ مغاليق معضلاتهم بل هم يَرْفِلُون إليه لِ ينوب عنهم فى كل ذلك وهذا مسلك

---

(٢٦) صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب توقيره-ص – وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة له- وغيرها من الأحاديث المحمدية الشريفة.

القاصر ونهج العاجز وطريق البليد وسبيل الفَدْم وجادة العَيِّ).

روى أنه لمانزل (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) قيل فماعدة اللائى لم يحضن؟

فنزلت الآية (واللائى لم يحضن) (وأولات الأحمال) (٢٧)



وهكذا تكاملت أدلة الثبوت من واقع مصادر قيمة من كتب أسباب النزول ومصنفات علوم القرآن والتفاسير صحة الاستدراك أو الاستدراكات التى أشرقت لكَ الشموس الطالعة والبدورالرائعة والنجوم اللامعة تتمم ما سبقها وتكمل ما تقدم فى مجال عِدّة النِسْوَن.

{٣}

الاستدراكات السوابق جاءت تلبية لمطلب جماعى:

أما المُصلّية (التالية) فقد بَزَغَت بناء على زغبات فرد واحد:

(عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال أتى وحشى إلى النبى –ص– فقال: يا محمد أتيتك مستجيرا فَ أجرنى حتى أسمع كلام الله، فقال رسول الله –ص–قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتنى مستجيرا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله، قال: فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله تعالى وزنيت هل يقبل الله منى توبة؟ فصمت رسول الله حتى نزل «والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون» ... إلى آخر الآية، فتلاها عليه، فقال: أرى شرطا فلعلى لا أعمل صالحا أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت: «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»، فدعا به فتلاها عليه، فقال: ولعلى من لا يشاء وأنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت: «قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا

---

(٢٧) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) لِ القاضى البيضاوى.

(٢٨) (أسباب النزول) لِ الواحدى –ص ٢٢٧– سابق.

و (نهاية السول) لِ أبى عمرنادى الأزهرى– ص ص ١٨٤– ١٨٥ – سابق.

و (لباب النقول) لِ السيوطى – ١١٨ – سابق.

(المقبول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى – ص ٥٧٣– سابق.

تقنطوا من رحمة الله»،، فقال: نعم الآن لا أرى شرطا فأسلم). (٢٨)

طالبها هو وحشى: عبد أسود أفطس رأسه كَ زبيبة وفوق ذلك هو قاتل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد (صاحب المقام المحمود) والذى وصفه أحد صناديد بنى سخينة بأنه (الذى فعل بهم الأفاعيل) فى غزاة بدر الكبرى.

وقبلا فى قرية التقديس والمسلمون قلة مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس (٢٩) .

غِبّ أن أعلن حمزة إسلامه تنفسوا الصعداء واستطاعوا الظهور وهذا يفسّر لنا حزن ابن أخيه (سيد ولد قُصىّ) على مقتله فى معركة أحد وتمثيل هند بنت عتبة أم الطليق معاوية وبعل الطليق أبى سفيان بِ جثته تمثيلا بشعا مما دفعه إلى أن يقسم أن لو واتته الفرصة لِ يُمثّلن بِ سبعين منهم. (٣٠). بيد أنه راجع نفسه الشريفة وعدل عنه.(٣١)

قتل وحشى حمزة بعد أن وعدته هند بِ الحرية ثأرا لِ مقتل أبيها عتبة فى وقعة بدر الكبرى فانتهز العبد فرصة انهماك حمزة فى القتال ورماه بِ حربته من خلف ولما تأكد من موته انصرف وتوجه لِ سيدته فلما تيقنت من حقيقة الأمر طغى عليها السرور وخلعت عليه حُلّيها ثم أقبلت على جسد حمزة الطاهر وبقرت بطنه واستخرجت كبده ولاكتها. (٣١) (أ)

بيد أنها لم تستسغها فَ لَفَظَتها، وهذا من شقوتها وتعاستها إذ لو ابتلعتها لَ دخلت الجنة كما أخبر (الرحمة المهداة).

وتفسيره أنه من المستحيل أن تصطلى كبد حمزة بالنار مع أم الطليق معاوية، فى حين أن سائر جسده يحظى بِ النعيم فى الجنة.

---

(٢٩) (الخطاب الذى بالقرآن العظيم بصيغة (يا أيها الناس)

(٣٠) موجه إلى المكاكوة، وفيه نوع من التقدير لأنهم خَامّة (خاصة) أهل جزيرة الأعاريب وهناك بيت شعر يقول: أنتم الناس أيها الشعراء.

(٣١) لاحظ الرقم سبعين .

(٣١)(أ) هذا الفعل الشنيع من هند يقطع بِ أن القساوة والتوحش مركوزان فى نفوس أولئك العربان مع أنها تعد من ذؤابة بنى سخينة فَ ما بالك بِ نسوِن العامة فى مكة والبدويات ساكنات الخيام والأخبية؟ وقارن بين سلوك هذه المَرَة المفترسة و ما سطّره التاريخ عن السلوك البالغ الرقى والتهذيب لِ النساء فى مصر القديمة لِ تدرك الفرق بين البداوة والحضارة والهمجية والمدنية . ومن ثم فإن المقارنة بينهما مستحيلة.ا.هـ.

❖ ❖ ❖

قد يسأل قارئ ما الذى دفع (صاحب الزوجات الطاهرات) أن يصبر هذا الصبر الذى فاق صبر أيوب (الذى يضرب به المثل) على العبد فيتلو عليه ثلاث آيات كريمات ضمّتهن سور متباينة وبداهة أنهن أشرقن فى أوقات متباعدة، لأن الآية الأولى فى سورة الفرقان (هى الثامنة والستون) والثانية فى سورة النساء (هى الثانية والأربعون) والثالثة والأخيرة فى سورة الزمر (هى التاسعة والثلاثون) والأولى والثالثة (الأخيرة) مكيتان أى سابقتان على حدوث الواقعة بِ سنوات والثانية أو الوسطى مدنية أى بزغت كالقمر فى أثرب. وقد جمعهن بِ هذا الترتيب حتى يُسلّم؟

الإجابة تتلخص فى أنه أتاه مستجيراً. وتوجد آية حاسمة فى (أحسن القصص) تنص على الآتى:

(وإن أحد من المشركين استجارك فأجّره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه).(٣٢)

فـ إذن حتم لازم على (المتضرع فى الدعاء أى محمد) أن يُجيره ويسمعه آيات من القرآن المجيد بل ويبلغه مأمنه.

وهذا يوضح لنا قوله لِ العبد (قد كنت أحب أن أراك على غير جوار) ونحن نرجّح أن مسلما فطّنه كيما يطلب الجوار وسماع آيات من (النور الهدى= القرآن) لِ ينفد بِ جلده من القتل، هذا من شق.

ومن صوب آخر فإن (اللَسِن- اللوذعى) هو القدوة فى الصبر وسعة الصدر واحتمال الأذى، بِ الإضافة إلى حرصه البالغ على أن يلَج الديانة التى يُبشّر بها أكبر عدد من المخاطَبين بـ من فيهم العُبدان ذوو الأنوف الفُطْس والبشرة السوداء والشعر الأجْعَد الأكْحَت، إذ بحسب ما سنّه لِ تُبّاعه أن الناس سواسية لا يتفاضلون إلا بِ التقوى، وهو معيار بالغ الروعة.

ومن ناحية ثالثة:

فَـ إنّ (الزين- الكامل) امتاز بِ فراسة عميقة وبعد نظر ومن ثم حدّس

---

(٣٢) (سورة التوبة الآية السادسة .

أن وحشيا بماله من قدرة قتالية عالية ومهارة مشهود لها فى استعمال الحِرَاب (جمع حَرْبة) وهى من أدوات الطِعان الهامة لدى أولئك العربة.. سوف يغدو شديد النفع فى الغزوات والسرايا والبعوث والمغازى(٣٣) التى تعمل جميعها على إشاعة ديانة الإسلام وتوسيع رقعة دولة بنى سخينة، ولقد صدقت فراسته، كيف لا وهو (الصادق المصدوق)، ففى خلافة التيْمىّ عتيق ابن أبى قحافة قتل وحشىّ مسيلمة (الكذاب) رأس وقائد ثورة بنى حنيفة بِ اليمامة على دولة بنى سخينة، أيضا رماه بحربته فَ أرداه قتيلا ومن ثم سُمعت منه مرارا قالته (قتلت خير الناس يعنى حمزة وشر الناس أى مسيلمة).

وبِ مقتله انهارت ثورة بنى حنيفة فى حين أنهم إبّان حياته صمدوا وقاوموا حتى إنهم كَبّدوا جيوش الخلافة التيميّة خسائر فوادح راح ضحيتها المئات من الصحابة، خاصة حُفّاظ القرآن العظيم ويسمونهم (القُرّاء) ولولا قتل مُسيلمة لما تخاذل بنو حنيفة ولما انهارت مقاومتهم، أى أن العبد الأفطس قَدّم للديانة الإسلامية وللدولة القُرشية المتمثلة فى الخلافة التيْميّة خدمة تجل عن الوصف.

وهذا واحد من مئات البراهين على أن (النابذ/ الناجز) تمتع بِ عبقرية فاذة وبعد نظر عرىّ عن الضروب وبصيرة نافذة لا نديد لها.



نصل إلى محطة توثيق الخبر من صفحات (التفاسير) التراثية التى تضعها أمة لا إله إلا الله فى مقام التقدير.

القرطبى فى (الجامع) أورد الحديث الذى قدمناه آنفا بِ نصه وفصه- من ثم فَ لا نرى موجبا لتكراره منعا لِ الإطالة والإملال وذلك فى ثنايا تفسيره لِ سورة الزمر.(٣٤)

---

(٣٣) يسمونها الفتوح مثل فتح مصر مع أنه غزو استعمارى استيطانى استنزافى لم تر الكِنَانَة أبشع منه فى تاريخها الطويل المجيد، فَ لم يحدث على تعدد غُزاتها وتنوع جنسياتهم أن استعمرها واستنزف خيراتها واستوطن أرضها الطاهرة مثل أولئك العُربان بل إنهم فرضوا عليها بِ القوة لغتهم الميمونة وثقافتهم المبروكة!

(٣٤) (تفسير القرطبى- الجامع لِ أحكام القرآن) المجلد الثامن- ص ص ٥٧١٢-٥٧١٣- كتاب الشعب - طبعة دار الريان لِ التراث - القاهره - د.ن.

وإبّان تفسيره لِ ذات السورة ذكر محمد بن أحمد بن جَزىّ الكلبى وهو يتناول آية (قل يا عِبادى الذين أسرفوا على أنفسهم..) : (فَ قيل فى سببها إنها نزلت فى وحشى قاتل حمزة، لما أراد أن يُسلم وخاف ألا يغُفر له ما وقع فيه من قتل حمزة). (٣٥)



لسنا بصدد الخوض فى الخلاف الذى نشب بين أهل السنة والجماعة وبين المعتزلة حول غفران الله لِ جميع الذنوب هل هو متوقف على التوبة لأن مشيئته تابعة لُحكْمِه وعَدْلِه أم أنه يفعله حتى دون توبة، لأن مشيئته تابعة لِ ملكه وجبروته فهو يغفرها ولا يبالى؟

إنما الذى يعنينا هو أن الزمخشرى- وهو معتزلى ويُعَدّ تفسيره خير مثل لِ تفاسير المعتزلة- ذكر عن الآية الكريمة: «وقيل إنها نزلت فى وحشى قاتل حمزة -رض-».(٣٦)

وهكذا تضافرت ثلاثة من أميّز التفاسير التراثية: سُنيّة ومعتزلة على اثبات صحة الحديث الذى رَقّمْناه فى فاتحة هذا الفاصلة والذى حملته أربعة من مصنفات (أسباب النزول) منها اثنان من كتب السلف يعتبران من آهم ما دون فى هذا العلم واثنان من المراجع (الحديثة أو المعاصرة). وبهذا تتامت براهين الثبوت عليه.



قبل ختام هذه الفاصلة يجىء مفيدا فى صدد التوثيق أن هناك من ذهب إلى أن الآية ٥٣ من سورة الزمر مدنية رغم أن السورة التى احتضنتها مكية، منهم ابن جَزىّ الكلبى، والجلالان المحلى والسيوطى.(٣٧)

ومن أصحاب مؤلفات علوم القرآن نكتفى بِ اثنين يعتبران من أعلام من أبدع فيها وهما الزَرْكَشىّ والسُيوطىّ.

---

(٣٥) (كتاب التسهيل لِ علوم التنزيل) لِ ابن جَزِىّ الكلبى الجزء الثالث - ص ١٩٧- مصدر سبق ذكره.
(٣٦) (الكشاف) لِ الزمخشرى - المجلد الثالث - ص ٤٠٣- مصدر سابق.
(٣٧) (كتاب التسهيل) -الجزء الثالث - ص ١٩٠. و (تفسير الجلالين
(٣٨) (البرهان فى علوم القرآن- الزركشىّ- الأول ص ٢٠٢ سابق.

وفى فقرة عنوانها (الآيات المدنية فى السور المكية): سورة الزمر مكية غير قوله (قل يا عبادى......) الآية ٥٣. .(٣٨)

أما السيوطى فَ أورد : «قال البيهقى: فى بعض السور التى نزلت بِ مكة آيات نزلت بِ المدينة فَ ألحقت بها» قال ابن الحصّار: كل نوع من المكى والمدنى منه آيات مستثناة.. وذكر أمثلة:

السابع عشر : من الزمر «قل يا عبادى... الآية ٥٣». ٣٩

وأهمية توثيق أن الآية (٥٣ - الزمر) مدنية هو أنها تمثل الاستدراك الثالث والأخير الذى تلاه (الشارع) على العبد وحشى وبعد سماعه دخل حظيرة الإسلام أى أن هذه الآية أشرقت خصيصا فى هذه المناسبة أو لِ أجل هذا السبب وهو دفع قاتل حمزة إلى اعتناق الإسلام.

{٤}

هذا الاستدراك علته أن آية كريمة أشرقت فَ أصابت أتبعة (قدم صدق) الأوائل بِ فزع شديد إثر أن قرأها عليهم وهى «وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» وهى الرابعة والثمانون بعد المائتين من سورة البقرة. ولهم عذرهم، فَ الحساب على ما يدور فى خَلَجَات النفس وما يعتمل فى حنايا الصدر وما يوسوس به القلب أمر صعب، خاصة أنها (= النفس) أمارة بِ السوء بِ شهادة القرآن المجيد ذاته.

فَ أَرْقَلُوا (=هرعوا/ أسرعوا) إليه بل إنهم جَثَوا للركب بين يديه الشريفتين وبثوه شكواهم وحدثوا أن المؤاخذة على ما يبدون ويخفون تعنى الهلكة لهم.

وامتعض من هذا الموقف وطلب منهم أن يسمعوا -يعنى الآيات الكريمات وتوجيهاته الساميات - ويطيعوا دون نقاش وبغير اعتراض وبلا جدال، ومعناه أن يسحبوا ملاحظتهم وإلا تساووا مع تَبِع (الكُمّل) السابقين الذين قالوا صراحة: سمعنا وعصينا.

والذى فاقم الشأن تعقيدا وزاده مَرْجا.(٤٠) وضاعف من كدره أن كبار الصحاب من النَزَحَة واليَثَاربة أسهموا فى رفع الشكاية، أى أن تلك الآية

(٣٩) (التحبير فى علوم التفسير) لِ السيوطى - ص ص ٥٣. ٦٠.

(٤٠) (فى (القاموس المحيط) ل الفيروز آبادى المرج = القلق والاضطراب والاختلاط.

لم تقضّ مضجع الأخْيَاف (المختلطين) أو الخامدين أو الأزاعِر بل الحامّة (= الخاصة) والصفوة والأماثل.

وإلى هذا الحد البالغ الحروجة ورغم الأمر الحاسم كما السيف القاطع بِ الطاعة المطلقة والتسليم الكامل والإذعان الكلى فَ قد غدا من الحتم اللازم ورود استدراك يرد إلى الصحاب -وهم عُدّته فى نشر الديانة وسنده فى إقامة الدولة- هدوء سرهم وراحة بالهم وسكينة نفوسهم وشَرْح صدورهم وبرد قلوبهم وطمأنينة أفئدتهم.

وهكذا تلألأت الآية المُصَلِّية (= التالية لها) من ذات السورة العظيمة فَ روت ظمأهم وبلّت صداهم وأذهبت عطشهم إلى الأبد:

(روى أحمد ومسلم وغيرهماعن أبى هريرة قال:

ولما نزلت هذه الآية (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ٢٨٤ البقرة، جاء أصحاب رسول الله -ص - إلى النبى فجَثَوا بين يديه لِلركُب وقالوا: يا رسول الله إن كنا نؤاخذ بما أبْدَيْنا وأخفيّنا لقد هلكنا، فقال رسول الله-ص- أتريدون أن تقولوا كما قال من قبلكم:

سمعنا وعصينا؟

قولوا سمعنا وأطعنا فلما اقترأوها وزلّت بها أنفسهم أنزل الله تعالى:

(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون) ٢٨٥- البقرة. (٤١)

وأضاف أن مسلما وغيره رووه عن ابن عباس.

وذكر الواحدىّ أن على رأس الصحب الذين جاءوا إلى (صاحب التاج) وأبدوا له تلك الملحوظة أو ذلك التحفظ من المنازيح= أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف، ومن بنى قَيْلة: معاذ بن جبل وناس منهم وأضاف ان الحديث رواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن وكيع. (٤٢)

أما صاحب (المقبول) فقد ذهب إلى أن الحديث أخرجه أحمد ومسلم عن أبى هريرة، أما النسائى فقد أخرجه عن ابن عباس وأن له رواية عن ابن عباس ووصفه (الحديث لا ابن عباس) أنه صحيح.

وذكر أن ابن عباس أكد أن المسلمين وجدوا (=حزنوا) عندما سمعوا

---

(٤١) (لباب النقول) لِ السيوطى -ص- ٣٦ مصدر سابق.

(٤٢) (أسباب النزول) لِ الواحدىّ النيسابورىّ -ص ٦٠ مصدر سابق.

الآية ٢٨٤ - البقرة. (وإن تبدوا ما فى أنفسكم) جتى جاءت الآية المصلية ٢٨٦- البقـرة (لايكلف الله نفسا إلا وسعها) وأردف المصنف أن الحديث أخرجه الحاكم وابن جرير أى الطبرى عن الزهرى وأنه (الحديث لا الزهرى) صحيح الإسناد .(٤٣)

❖ ❖ ❖

هذا ما أورده أصحاب مصنفات (الأسباب).

فَـ ماذا رقم (المفسرون) ومؤلفو كتب علوم القرآن الكريم الأخرى؟

ونبدأ بِ ما أورده القاضى أبو بكر ابن العربى فى مؤلفه (الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم) إذ زَبَر ذات الخبر الذى سطرناه قبل قليل ولا مدعاة لِ تكراره .(٤٤)

وأول ما نبدأ به فى نطاق المفسرين، ما زَبَدَنا به شيخهم نعنى الطبرى:

(عن مجاهد قال: كنت عند ابن عمر فقال: «وإن تبدو ما فى أنفسكم أو تخفوه» الآية، فبكى فدخلت على ابن عباس فذكرت له ذلك فضحك ابن عباس فقال: «يرحم الله ابن عمر وما يدرى فيم أنزلت؟ إن هذه الآية حين أنزلت غمّت أصحاب رسول الله -ص غَمّا شديدا وقالوا:

يا رسول الله: هلكنا! فقال لهم رسول الله -ص- قولوا: سمعنا وأطعنا، فنسختها : «أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه-- إلى قوله: وعليها ما اكتسبت».(٤٥)

ويبين من هذا الأثر ما يقال عن العدوىّ ابن العدوىّ: عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه درج على التفسير الحرفى للنصوص واتباع ما جاء بها

(٤٣) (المقبول) لِ أبى عمر نادى الأزهرى -١٤٩-١٥٠ - مرجع سابق.

٤٤) (الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم) للقاضى أبى بكر بن العربى/ تحقيق عبد الكبير العلوى - الجزء الثانى - ص ٣٤ - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٩٨م- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - المملكة المغربية.

(٤٥) (تفسير الطبرى- جامع البيان عن تأويل آى القران) لِ أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى- ٢٢٤-٢٣٠هـ تحقيق محمود محمد شاكر ومراجعة أحمد محمد شاكر - الجزء السادس- ص ١٠٨- الطبعة الثانية ١٠٧١ دار المعارف.

(٤٦) (نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام) لِ على سامى النشار- ص ٣٨٠- الجزء الأول - الطبعة الثامنة ١٩٧٧- دار المعارف بِ مصر.

والتقيد دون أى حيدة أو تمييز، بل إن عمرو بن عبيد (من زعماء المعتزلة) هاجم عبد الله بن عمر واعتبره حشويا. (٤٦)

ولعل القارئ يسأل ما المقصود ب الحشوية؟

(هناك بعض النصوص تقرر أن عمرو بن عبيد هو أول من أطلق هذا الاسم وأنه سمى به عبد الله بن عمر، فقد كان عبد الله بن عمر يقبل الأحاديث والسنن والآثار، كيفما كانت).(٤٧)

ثم عود إلى سياقة التنقير:

الفخر الرازى يضع فى حجورنا لائحة ب أسماء كبار التبّاع الذين هرعوا إلى (أذن خير) غِبّ أن هلّت الآية (وإن تبدوا ما فى أنفسكم):

(يروى عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت هذه الآية جاء أبو بكر وعبد الرحمن ابن عوف ومعاذ (=ابن أبى جبل) إلى النبى -ص- فقالوا: يا رسول الله، كُلفنا من العمل ما لا نطيق، إن أحدنا ليحدث نفسه بِ ما لا يجب أن يثبت فى قلبه وإن له الدنيا. فقال النبى-ص- فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل سمعنا وعصينا، قولوا سمعنا وأطعنا، فقالوا سمعنا وأطعنا واشتد ذلك عليهم فمكثوا فى ذلك حولا فأنزل الله تعالى (لايكلف الله نفسا...)

نسخت هذه الآية، فقال -ص- «إن الله تجاوز عن أمتى ما حدثوا به أنفسهم مالم يعملوا أو يتكلموا به». (٤٨)

هذا الأثر الشريف ملىء بِ المعطيات رفيعة الدرجات منها:

١- أن رؤوس المنازيح هم الذين آدتهم الآية الكريمة ويكفى أن يمشى فى مقدمهم التيمىّ عتيق صاحبه فى الغار والعدوىّ عمر بن الخطاب/ حموه أى والد زوجته حفصة وعبد الرحمن بن عوف أحد النجباء وعضو هيئة المبشّرين العشرة بِ الجنة ومن اليثاربة العرب معاذ بن جبل الذى أرسله قاضيا ومفتيا إلى اليمن.

٢- أن قالة هؤلاء المتنفذين تَشِى بِ معارضة جارفة تصل إلى تخوم العصيان وتمثل ذلك قولهم (كُلفنا من العمل ما لا نطيق)، أى أن الآية

---

(٤٧) ذا المرجع ص ٣٧٤.

(٤٨ (مفاتيح الغيب- التفسير الكبير) لِ فخر الدين الرازى- ٥٤٤/٦٠٦هـ- المجلد الرابع - ص ٢٩- طبعة الفد العربى - سابق.

الكريمة كلفتهم بِ ما لا طاقة لهم به.

٣- عندما أمرهم (الأوسط) بِ الطاعة يبدو أن الأمر كما جاء بِ الحديث اشتد عليهم أى رغم تلفظهم بكلمات السمع والطاعة استمروا فى العُسْرة والمعاناة.

ولاشك أن (الألمعى) أدرك ما هم فيه من ضيق وعنت وكرب.

٤- ومن ثم فإنه بعد عام كامل بزغت لكَ الهلال الآية الاستدراكية (لايكلف الله نفسا ... إلخ) ومنه نعلم أن الاستدراك من الجائز أن يأتى مُصَلِيًا (=تاليا) بعد سنة كاملة.



أما القمىّ النيسابورىّ فَ قد زَيَدَنا بِ خبر ثمين إذ إنه حمل طرفا من الحوار الذى جرى بين الأصحاب وبين (الناسك) وبعبارة أخرى أوضح اعتراضهم ثم رده عليهم:

(عن ابن عباس وأبى هريرة واللفظ له، لما نزلت (وإن تبدوا ما فى أنفسكم ... إلى آخرها) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله -ص- فأتوا رسول الله -ص- ثم بركوا على الركب فقالوا: أى رسول الله كُلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والسلام والصدقة وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نُطيقُها، قال رسول الله -ص-:

أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما قرأها القوم وزلّت بها ألسنتهم أنزل الله عز وجل (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها).(٤٩)

التُباع فى هذا الخبر وصلت بهم الحالة الشعورية التى انتابتهم بعد الآية الأولى أن بركوا على الركب ولْ نذكر أن الذى فعله سادة غطاريف لا عُبدان أو موالى بل ولا بُغاث أَوْشَاب أَغْمَار، حتى وإن كانوا أحرارا. مما يقطع بِ أن وقع الصدمة غائر وليس سطحيا وذكروا له أن الأعمال أى الأوامر أو التكاليف التى أمرهم بها أدوها على الوجه الأكمل.

---

(٤٩) (غرائب القرآن) لِ القمىّ النيسابورى - المجلد الثالث - ص ٣٢.

(٥٠) (نظام الغريب فى اللغة) لِ عيسى الوحاظى الحميرى - تحقيق محمد بن على الأكوع - باب أسماء السيوف ص ١٢٧- الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م - دار المأمون لِ التراث - دمشق- الشام.

بيد أن فحوى الآية لا يطيقونه، وهنا صكّهم بـ رد قاطع كما الصِمْصَام الجرّار أي السيف القاطع (٥٠) بـ أنهم بهذا المسلك شابهوا حملة العهدين القديم والجديد تبعة البطاركة أو الكُمّل (=مفردها كامل) السوابق حينما يسمعون الإصحاحات ثم لا ينفذون ما تحمله إليهم من أوامر وتكليفات - ودعاهم إلى السمع والطاعة ليس هذا فـ حسب بل لطلب الغفران.

ويضيف الخبر أنهم بعد أن قرأوها أو أقرئُوها زَلّت بها ألسنتهم.

وكلمة زَلّ لها العديد من المعانى منها:

زَلَقَ ومثلما يزّل الشخص فى الطين، كذا فى المنطق أو القول وأزلّه الشيطان عن حق وزَلّ من الشهر كذا: مضى وزَلّ الفرَسَ: أسرع وزَلّ عمره: ذهب، وزَلّ الدرهم: نقص وزنه، وذهب فلان زليلا وزلولا: سريعا(٥١) وكلها توحى بـ عدم الاكتمال والعَوَز إلى التمام والافتقار إلى البسط والحَوْجة إلى السعة مع التسرع والهرجلة (٥٢) أى أن الصحاب تَعَجلوا فى الحكم على الآية المجيدة فأنزلقت ألسنتهم وهَذْمَلت نفوسُهم وشَطَنَتَ (٥٣) (= بعُدت) عقولهم وكـ محصلة أكيدة (أنزل الله فى أثرها: آمن الرسول .. إلخ)

بيد أن القمىّ النيسابورى وضع أيدينا على معلومة هامة، هى أنه بعد أن وردت آية (وإن تبدوا ما فى أنفسكم..) التى أهمّت الصحبة وآدتهم (بالدال لا بالذال) ورفعوا بشأنها شكواهم بَزَغت آية كريمة هى (آمن الرسول...) توسطت بين الأولى والأخيرة وكأنما جاءت مقدمة لآية الاستدراك الأخيرة أو الثالثة وهى (لايكلف الله نفسا..)

إن هذا الرأى الذى ساقه المصنف يتسم بـ الجِدّة إذ لم نقرأه لـ غيره ممن اطلعنا على كتبهم.

وبـ المعقولية لـ أن النسخ أو ما نسميه الاستدراك من المقبول منطقيا أن تسبقه فترة تمهيد أو إعداد أو تهيئة فى هذا الموقف على وجه التعيين. لماذا؟ لأنه يتعلق بـ الناحية التربوية أى تربية (القارئ = الجواد) لـ أصحابه. ولعل هذا يزيح الستار عن علة ما زَبَره الفخر الرازى من أن

---

(٥١) (أساس البلاغة) لـ الزمخشرى- الأول و(المختار من صحاح اللغة).

(٥٢) هى الاختلاط فى المشى من (القاموس المحيط) لـ الفيروزى آبادى - الجزء الرابع.

(٥٣) الـ هَذْمَلَة: مشية فيها قَرْمَطَة- ذات المصدر والجزء

الاستدراك تهادى بعد حَيْل (=حول) كامل.

بخلاف الاستدراكات المتقدمة التى تحتم مواقفها ظهور آياتها الكريمة إما على الفور وإما على رَيْث إنما لا تنتظر لِ مدة اثنى عشر قمرا.

ولعلنا بِ ما قدمنا قد أفلحنا فى طرح البراهين القواطع على صحة انبثاق الاستدراك الذى حملته خواتيم سورة البقرة والذى جاء ردا على ملاحظة حازبه تقدم بهاو هم جاثون على ركبهم جَمَاجِم (٥٤) الصحبة من منازيح وأثاربة.

(٥٤) جمع جُمْجُمَة، وجُمْجُمَة القوم : رأسهم (شجر الدر) صنعة أبى الطيب عبد الواحد اللغوى - ت ٣٥١هـ - تحقيق محمد عبد الجواد- ص ٤١- الطبعة الثالثة - ١٩٨٥- دار المعارف - ب مصر.

فى ختام هذا الباب الأول:

لعلنا قد وفقنا فى تقديم البراهين المؤكدة والحجج الدامغة والأدلة الموثقة على قيام الوشيجة المحكمة والآصرة المتينة والرابطة القوية بين (الفرقان= القرآن) والذين توجه إليهم ب الخطاب على كافة المستويات ومختلف الصُعُد وفضلا عن شدة الأسْر التى تسمها فهى ليست علاقة جامدة (استاتيكية) أو ذات طرف واحد، بل هى (ديناميكية) متحركة ذات طرفين، صاعدة ومردودة أى قبول وإيجاب، طِلبة «ب كسر الطاء» وتفاعل معها، رغبة وتحقيق، وفى أحيان ظُلامة أو شِكاية فى مقابلها رفع لِ علة التظلم وإزالة ل سبب التشكى وفى أحيان ثانية رجاوات وموافقة عليها وأحيانا أخرى استبيانات تقابلها استدراكات تزيل اللبس وتنفى الحرج وتفك المعضلة. .

(وهكذا .ونخرج من جماعه أنها علاقة جدلية.. وهى ب هذه الخاصية النادرة غدا حتما مقضيا وضرورة لازمة وفرضا محكما أن تَهلّ الآيات نجوما وتفاريق وهى (= الخاصية) التى أكسبت (أحسن الحديث/ القرآن) الحيوية والنضارة والفتاء والعطاء المستمر والتى ميزنه عن توراة موسى وإنجيل عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم.

ومن رجا آخر منحته سمة العناية بِ الواقع الذى عاشوه ساعة بزوغ آياته الكريمة وبِ النوازل التى لقيها الذين أمّتهم (قصَدتهم) بالخطاب وبِ مشاكلهم وأحوالهم وتقلباتهم اليومية، ومن هذا المنطلق فإن ادعاءات التعالى والمفارقة والتغريب والفصم والتجريد .. إلخ، التى ينادى بها كثيرون - لِ حاجات فى نفوسهم- قد رفعت الستور عن بطلانها وبددت الحُجُب التى تمنع رؤية فسولتها وأزيحت الغيوم التى توارى زيفها وظهر لكل ذى بصيرة أن القرآن العظيم هو وحده كتاب الحياة.

